رتيبة الحفنى

معجزة الغناء العربى

دار الشروق

أمّ كلثوم

الطبعـة الأولى
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس . 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب. ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨٦٧٥٥٥ - تلكس : SHOROK 20175 LE

الإهـــداء

إلى والـدى

المقدمة

قالوا عن أم كلثوم إنها « أسطورة » . . ووصفوها فى الغرب بأنها أشهر من «جان دارك » ، وأنها تفوقت على « إديت بياف » و « ماريا كالاس » .

هذه العملاقة التى بدأت منذ فترة مبكرة ، وعاشت وسط الفلاحين . . لأنها فلاحة ، من ريف مصر السخى ، ذاقت الفقر والحرمان والجوع والشقاء ، واستطاعت فى النهاية أن تصل إلى أعلى مراكز التقدير من شعبها ومن شعوب العالم .

وليسمح لى القارئ بإلقاء الضوء على تجربة صغيرة لى مع هذه الشخصية الجبارة ؛ فقد أحاطتنى بكل الحب والرعاية ، فكانت رحمها الله تتابع كل نشاط موسيقى وغنائى جديد يقدم فى مصر ، إلى جانب اهتمامها الخاص بكل ما أقدم من موسيقى وغناء ، كانت الأم الحنون التى تساندنى وتقدم لى النصح فى كل مناسبة .

وفى أكتوبر عام ١٩٦١ ، حينما قدمنا على خشبة دار الأوبرا المصرية محاولتنا الفنية الأولى « الأرملة الطروب » المعربة ، والتى كان لى شرف القيام ببطولتها ، حرصت أم كلثوم على حضور عرض هذه المحاولة الجريئة التى كان الوزير الفنان د. ثروت عكاشة قد أشرف على إخراجها . وأعجبت أم كلثوم بهذا العمل الفنى . وفى لقاء لها مع الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين جاء ما يلى (*) :

« . . فى بوفيه دار الأوبرا ، قالت لى السيدة أم كلثوم إنها تجربة عظيمة ، وإنها سعيدة جداً بها . وإن رتيبة الحفنى ممتازة . وإن الناس عندنا لم يتعودوا أن يستمعوا إلى الأصوات دون أن يميزوا فى البداية كل كلمة من الكلام الذى يقال . . ولكن المفروض أن القيمة

(*) المساء فى ٢٣ أكتوبر عام ١٩٦١ .

العليا فى هذا المجال للصوت واللحن . . والمسألة مسألة تعوّد على أى حال . . وحاسة تنمو مع الزمن » .

وخرج العديد من تصريحات أم كلثوم عن هذا العمل الفنى الجديد فى المجلات والصحف اليومية . ولا أخفى على القارئ هذا الدور الذى لعبه تعليق أم كلثوم واهتمامها فى نشر هذا العمل الجديد . فالناس كانت تقبل على الأوبريت لتشاهد هذا العمل الناجح ، وتستمع إلى الفنانة التى شهدت بإمكاناتها الفنية ، كوكب الشرق أم كلثوم . وتصور هذه الكتابات الصحفية سعة صدر أم كلثوم لكل التجارب الثقافية الغنائية والموسيقية فى مصر . . وتشجيعها للعناصر الصاعدة فى مجالات الغناء بشتى نواحيه . إن حضورها حفلات الأوبرا وارتباطها بالحركة الموسيقية العالمية لهو جانب يجب التنويه عنه أيضا .

أما الأطفال فكانت ـ رحمها الله ـ شغوفة بهم ، تعطف عليهم وتصبر . وإنى لأذكر حادثة تأثرت بها كثيرا ، إذ كشفت لى جانبا إنسانيا عميقا فى شخصية أم كلثوم .

اتصلت بى أم كلثوم هاتفيا تطلب « كورال أطفال محافظة القاهرة(*) » للاشتراك معها فى تسجيل « الثلاثية المقدسة » . وعلى الرغم من ثقتى فى إمكانات كورال الأطفال الفنية ، هذا الكورال الذى كنت أشرف عليه وأدربه ، فإننى قرأت على وجوه الصغار الرهبة والخوف ، لا يصدقون أنهم سيشتركون مع هذه الشخصية العملاقة فى عمل فنى ، بتصوراتهم عنها من جدية وصرامة .

وفى اللقاء الأول للأطفال مع أم كلثوم فى إستوديو الاذاعة ، تغيرت الصورة التى إفترضوها فى أذهانهم لهذه السيدة العظيمة . . فكم كانت دهشتهم كبيرة حينما وجدوا

(*) يعتبر أول كورال للأطفال فى الشرق الأوسط . قمت بإنشائه بعد عودتى من بعثتى الدراسية بألمانيا . واحتضن محافظ القاهرة وقتها « صلاح الدسوقى » هذه الفرقة . كما شجعها الفنان محمد عبد الوهاب الذى جاء لحضور حفل الافتتاح . وقدمت الفرقة العديد من الأعمال الغنائية العربية والعالمية . ولها شريط تسجيل وأسطوانة « بصوت القاهرة » .

أم كلثوم تقف بينهم . . تغنى معهم . . وكان الإستوديو مزدحما بالعازفين والمنشدين والأطفال . . والموسيقار الراحل رياض السنباطى الذى يضيق ذرعا بأقل بادرة خطأ منهم . أما أم كلثوم . . فكانت أما لهم جميعا . . تبسطت معهم ، وضاحكتهم وربتت على أكتافهم ، وعاونتهم على التدريب والحفظ والاندماج مع كبار العازفين ، بكل حب ورعاية وثقة . وانتهى التسجيل ، وظلت أم كلثوم تذكر للأطفال صوتهم الملائكى وإمكاناتهم فى أداء جزء :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

لم أسمع إطراء ومدحا فى الكورال ، كما سمعته من سيدة الغناء العربى ، التى زادت البساطة المتناهية من عظمتها وعمق إنسانيتها .

وكانت أم كلثوم صديقة لوالدى المرحوم ، الدكتور محمود أحمد الحفنى ، رائد الموسيقى فى مصر . وكانا معا ـ أم كلثوم وأبى ـ على اتصال تليفونى كل يوم . وكثيرا ما كنت محظوظة بالرد على التليفون . فتسألنى عن دراستى بالمعهد ومدى استيعابى لما يدرس لى . . وتمدنى بالنصائح .

وحينما توفى والدى فى مارس من عام ١٩٧٣ ، تلقيت منها برقية طويلة تقترب من الصفحة الكاملة . أثرت كلماتها فى نفسى . وكان فيها بعض العزاء الصادق فى وفاة أعز إنسان عندى .

اتصلت بأم كلثوم تليفونيا أشكرها على البرقية . . فما كان منها إلا أن عاتبتنى بصوت لائم قائلة :

ـ لقد فتحت بيتى للعزاء فى فقيد العالم العربى ، الرائد ، والإنسان العظيم . . وتأتين أنت الصغيرة تشكريننى على سطور قليلة لا تساوى أعماله وآثاره فى الموسيقى العربية؟!

كانت هذه الكلمات آخر ما سمعت بصوت أم كلثوم . . فقد فارقت عالم الفن بعد هذا التاريخ بسنتين .

رحلت عنا كوكب الشرق ومعجزة الغناء أم كلثوم . . ولست فى معرض تعداد مآثرها؛ فهى خارج الحصر والتقييم . . إن كل عمل عظيم، يزداد الوعى بقيمته عبر الأزمنة . . ويظل رصيدا ضخما وتراثا نفيسا . . كذلك أم كلثوم .

إنها معنا باقية خالدة فى أعمالها ، وفنها ، وإنسانيتها ، وتاريخها المجيد .

رتيبة الحفنى

الفصل الأول
النشأة والتطور الفنى

نشأتها :

ولـدت أم كلثوم فى بيـت متـواضع ، مكـون مـن طابـق واحـد ، فى قريـة « طماى الزهايرة» . والدها الشيخ إبـراهيم السـيد البلتاجى ، مؤذن مسـجد القرية . سميت بأم كلثوم تيمنا باسم بنت النبى عليه الصلاة والسلام .

روى الشيخ إبراهيم : أنه فى ليلة ٢٧ من رمضـان (ليلة القدر) غلبه النوم وهو فى المسجد . فـرأى فى منامه سيدة فى مـلابس بيضاء ، يشـع وجهها نورا ، تعطيه لفـافة خضراء . وعندما فتحها وجد فى داخلها شيئا له بريق . . سأل :

ـ ما هذا ؟

قالت :

ـ هذه جوهرة وبشرى السعد . . حافظ عليها .

وعندما سألها : من أنت ؟ أجابت :

ـ أنا أم كلثوم ابنة النبى محمد . .

وعندما وضعت فاطمة زوجة الشيـخ إبراهيم طفلتها . . احتارت فى تسميتها . . وسألت زوجها الشيخ إبراهيم :

ـ نسميها إيه ؟

فأجاب على الفور :

نسميها « أم كلثوم » على اسم بنت النبى عليه الصلاة والسلام ؛ فالرؤيا كانت لا تزال تملأ عينيه .

شغف الأديب الكبير الراحل عباس محمود العقاد بشرح معنى كلمة « كلثوم »، واستقر فى آخر الأمر على أن أصل هذه الكلمة فى اللغة هو « الراية الحريرية » التى كان يرفعها المقاتلون فى حروب الجاهلية .

* * *

كبرت الطفلة « واشتهرت فى الحى بجمال صوتها . فكانت تغنى أغانى الأطفال . . وصديقاتها من حولها يرددن وراءها :

أبويا زرع لى جنينة كلها برتقال خالص
أسرح وأروح ألاقى البربرى حارس
والنبى يا بربرى لأبيعك
وأسد دين الوسية
وأطلع م البلد خالص

وكانت أم كلثوم الطفلة تنزل الغيط . . تغنى بصوتها الجميل . . . كما كان مرقص أفندى ناظر العزبة معجبا بصوتها الذى خفف على الفلاحات عناء اليوم الطويل .

وفى المساء كانت الأسرة تجتمع مع الجيران على سطح المنزل . . يفترشون الأرض هربا من الحر . . تغنيهم الطفلة أم كلثوم ويصاحبها والدها بالإيقاع على آنية من أوانى المطبخ .

* * *

وكان شهر رمضان من أحب شهور السنة لدى أم كلثوم . . وصفته بقولها :

« فى الشهر ده كنا نلم بعضنا ــ واحنا عيال ــ نغنى لرمضان . . كنا نمسك بصفائح ندق عليها . ما كانش فى القرية عندنا مدفع ـ لكن كان فيه مسحراتى . وعلى أيامنا ما كانش فيه فوانيس ملوّنه نلعب بها » .

وتضيف : « وأنا عمرى أربع سنوات . . . كنت أعمل نفسى صايمه . . علشان يصحونـى فى السحور . الأكل فى رمضـان حلو . . وكانوا بيـاكلوا حاجـات حلوة فى السحور. . وفى نفس الـوقت أنا كنت عاوزة أبان كبيرة . . . مـش عيّلة ، وطبعا أهلى عارفين أنـى فاطرة . . بس واخـدينى على قدّ عقلى . . ومـش عاوزين يعرفـونى أنهم فاهمين أنى فاطرة . والدتى حاولـت تنصحنى كثيراً بأن أنام وتقول لى : حنخلّـى لك من أكل السحور !! لكن مفيش فايدة !! صمت حقيقى وأنا سبع سنوات . »

وعن العيد تروى أم كلثوم :

« العيد كـان بالنسبـة لى جلابيـة وجزمـة جديـدة . ودايما كانـوا بيجيبوهـا مقاس يايطلع ضيـق قوى يا واسع قوى !! أنـا وحظى . وكنت من فـرحتى بها أضعُها تحت المخدة . . وألبـس الشراب الجديد وأنـام ليلة العيد ، وجنبـى الجزمة الجديـدة . ومع الفجر نصحى ننتظر العيدية . . كانوا يدونا أكل . . واحنا كنا عاوزين فلوس علشان المراجيح !! »

وسُئلت أم كلثوم . . هل تذكرين أول فستان كان لونه إيه ؟؟

تقول وهى تضحك :

« ده ما كانش فستان . . ده كان جلابية بكورنيش كده و « سفرة » حلوة . . قماشة « شيت » ملون أخضر وأحمر . . ألوان الموضة بتاعة أيام زمان . »

وفى حديث آخر تقول أم كلثوم :

« كانـت طفولتى سعيدة . . مليئـة بالضحكات ، إلى أن صحـوت ذات ليلة على صوت همسـات بين أمى وأبـى !! . . سمعت أمى تسـأل أبى عـن سبب قلقـه طوال الليل؟ وكان رده عليها : العيد جاى . . ومش قادر أجيب للأولاد جلاليب جديدة . . وأحسست بآلام أمى وأبى . . وعندما طلع النهار، ذهبت إلى أمى ، وقلت لها :

ـ أنا مش عاوزة جلابية على العيد ، جـلابيتى القديمة حلوة قوى ، ونفسى ألبسها فى العيد .

وبكت أمى ، وراحت تمطرنى بقبلاتها . وشعـرت وأنا محاطة بذراعيها أننى أرتدى أجمل فستان فى الدنيا . »

طفولة أم كلثوم تعكـس حياة الريف فى بداية القـرن العشرين ، والحب الذى كان يربط العائلات بعضها ببعض ، بما فيها من تماسك أسرى ، وموقف الفتاة فى المجتمع الريفى ، بداية من الطفولة . . والحياة الريفية الساذجة البسيطة . فقصة حياة أم كلثوم تصور لنا بصدق حياة الأسرة الريفية ، متـوسطة الحال حتى وصولها لعالم الفن والغناء فى مصر .

ومن ذكريات أم كلثوم فى طفولتها أيضـا ، عروسة جدتها نصرة التى صنعتها لها من البفتة وملأتها قطنـًا ورسمت لها وجها . . « عينين وأنفا وفما » . لم تكن العـروسة جميلة ولكنها كانت أحب شىء لدى الطفلة أم كلثوم .

كان الوالد حـريصا على تعليم أخيها خالد ، فألحقـه بالكتَّـاب . . كما كان يلقنه قصة مولد النبى ، والقصائد والموشحات ، ليساعده فى الليالى التى كان يحييها بالغناء .

واستطاعـت الطفلة (أم كلثوم) أن تحفـظ كل ما كان الـوالد يلقنه لأخيهـا . فقد كانت تتميز بذكاء شديد . فكانت تراقب أخاها كل يوم وهو ذاهب إلى الكتَّاب وبيده لوح « الإردواز » وعلى كتفه حقيبة القماش التى بها كتبه وكـراساته . . . وسألت نفسها لماذا لا تذهب هى أيضا إلى الكتَّاب ؟؟ لماذا لا تمسك هى أيضا القلم البسط ، وتكتب على الورق بالحبر مثل أخيها خالد؟؟

أخذت أم كلثوم تلح على والدها أن يلحقها بالكتَّاب . . ومع إلحاح الطفلة ، اضطر الوالـد أن يرضخ لـرغبتها ويلحقها بالكتَّـاب . . رغم ضيق اليد . ومنـذ الأيام الأولى لالتحاقها بالكتاب حفظت أجزاء كثيرة من القرآن الكريم ، وظهر تفوقها فى الدراسة .

تقول أم كلثوم فى مذكراتها :

« لم أسمـع من أبـى وأمـى فى يوم مـن الأيـام شكوى بصـوت مسمـوع من الفقـر والحرمان الذى كنا نعيش فيه ، إذ كانا يحاولان دائما إخفاء الضيق عنا . . ولا يكشفان

عن هذا الضيق إلا بهمسات بعد صلاة الفجر، عندما يتصوران أننى وأخى نائمان لا نسمع شيئا . ولكن هـذه الهمسات عاشت معى . . كانـت تدوى فى أذنى . . كنت أتصور أن كل ما أستطيع أن أقدمه لأمـى هو أن أتطلع إلى السماء وأقول : يارب ساعد أمى . »

وجاء فى مذكرات أم كلثوم :

« . . بعد بضعة أشهـر من التحاقى بـالكتَّاب ، سمعت أبى يهمـس لأمى عقب صلاة الفجر مـرة : أنا مش قادر أدفع مصـاريف أم كلثوم . . ما عنـديش غير قرش واحد أدفعه للـولد . ورحت ألح على والدى أرجـوه أن يبحث عن أى طريقـة يدبر بها قرشا آخـر . فقد كانت مصـاريف الكتَّاب قرشـا واحدا كل أسبوع لفقيـه الكتَّاب . واستطاع أبى أن يدبر هذا القرش . . ولم أخرج من الكتَّاب » .

ولأم كلثوم قصص طريفة عن مرحلة دراستها بالكتَّاب . تقول :

« كان الذهاب إلى الكتَّاب فى الصباح ، مثلا ، حادثا مفجعا ، يتكرر فى حياتى كل يوم . فكثيرا مـا كان يحدث أن أذهب إلى الكتـَّاب فى الصباح ، فإذا « سيـدنا» يأمـرنى وبعض زميلاتى أن نذهب لنساعد زوجته فى تنظيف الحبوب من الطين والطفيليات . وأذكر أننى كنـت أطلب إلى زميلاتى أن يحتفظن بما يجمعن مـن طين وطفيليات ، حتى إذا جاء الظهـر ورأت زوجة سيدنـا أننا عملنا ما فيـه الكفاية ، فـإننا نغافلهـا ونعيد إلى الحب المنقـى ما جمعنـاه مـن الطين والطفيليات . . . وكـانت زوجـة سيـدنا تكتشـف جريمتنا بعد أن نذهـب . وفى الصباح التـالى يترك سيدنا « المقرعة» تعبر عن رأى زوجته فينا ! » .

ومن ذكرياتها أيضا(٦) (*):

« ذهبـت إلى الكتَّاب ، ذات صبـاح ، مبكـرة على غير العـادة . . ولم يكن السبـب راجعا إلى نوبـة نشاط بقدر ما كـان راجعا إلى نوبة مـن نوبات الشقاوة . . والـرغبة فى الأذى . فقد ذهبـت قبل كـل تلاميـذ الكتاب لأكسر مـا تقع عليـه يداى مـن ألواح

(*) الترقيم يرمز إلى المرجع فى نهاية الكتاب .

الإردواز والطباشير ، وأنقـل كراسة كـل تلميذ مـن درجه إلى درج آخر . ثـم أستمتع بعدها بجـو الذعر حين يحضر سيدنـا ، ويحضر التلاميذ ، ويبدأ الـدرس . فإذا هم يفاجئون ، بما حدث، وإذا الذعر يسيطر عليهـم ، فلا يجرؤ أحدهـم على أن يفتح فمه بكلمة، وأنا أغالب الضحك وأكتمه فى صدرى .

وذات يوم ، ذهبت مبكرة إلى الكتَّاب . وفجأة سمعـت وقع حوافر حمار يركض ، ثم يقف أمام الكتَّاب . . وسمعت صوتا يقول :

ـ افتـح الباب لحمارة المفتـش . . وفهمت أن مفتش وزارة المعـارف ـ وكـان الشيخ قنصوة ـ قد وصل . وقبل أن أفكر فى موقفى، فتح الباب ودخل المفتش . . فجلست فى مكانى ونظـرت إليه فى صمت ! وكان المفتـش عصبيا . . فقد فوجـئ بكتَّاب ليس فيه الا فتـاة واحدة . . فصاح بـأعلى صوته : من هنـا ؟؟ وقلت وأنا أرفـع أصبعى : أنا ! ! وأمسك عمامته ، واقترب منى وهو يقول :

ـ ما شاء الله . . كتَّاب بأكمله ليس فيه إلا بنت واحدة ؟؟

ثم أخـذ يتوعد مهـددا سيدنا ، وأنـا لا أستطيع أن أغالـب الفرحة . وبعـد قليل دخل « سيـدنا » . وكان خبر وصـول المفتش قد وصلـه . . وانهال عليه المفتش لـوما وتأنيبـا . . ولم ينس أن يستغل وجـودى ليشيد بنشـاطى وإقبالى على الكتـَّاب، منددا بكسل سيدنا وانصرافه عن الكتَّاب وشئونه !

وانتهت زيارة المفتـش ، ولكن « سيدنا » جعلنـى أدفع الثمن . فكان يلقـى علينا أعقد الأسئلة ، فيرفع التلاميذ أيديهم ليجيبوا فيهز رأسه فى ضيق، ويقول مشيرا إلىَّ :

ـ لأ . . لابـد أن تجيب عنـه (الشاطـرة الفالحة) التـى تجىء مبكرة كـل يوم . . وكانت (الشاطرة الفالحة) التى تجىء مبكـرة تتعثر دائما فى إجاباتها ، ويجد « سيدنا » الفرصة لينتقم منها ! »

وتروى أم كلثـوم أن (خالدًا) بحكم أنـه « مطرب العائلة » ، كـان غير منتظم فى الكتَّاب، ويتغيب وقتما يشاء . . فكانت أعذاره وحججـه مقبولة دائما ، فالمعروف أنه

يسهر مع والده فى الموالـد والحفلات . أما أم كلثوم فكانت تجد الحل الـوحيد للتزويغ من الكتَّاب ، هو وضع الملح فى عينيها لتحمـر . . . ويكون هذا سببا مقبولا للتخلف عن الكتَّاب .

وتقول أم كلثـوم . . إنها كانـت فى بعض الأحيـان تعطى « سيـدنا » نصـف فطيرة مشلتتة أو عود قصب أو برتقـالة تأخذها معها من البيت ، والمفـروض أنه نصيبها من الطعام . . ولكنها كانت تفضل إعطاءه « لسيدنا » لتهرب من الدرس .

غير أن أوضاع أم كلثوم فى الكتَّاب تبدلت ، بعد أن غنت فى بيت شيخ البلد . . فى حضرة عدد من الرجال . . فبدأ صيتها يلمع فى القرية . وكانت تتقاضى قرشا أو قرشين تغطى بهما مصاريف الكتـَّاب لمدة أسبوعين . . وبذلك هدأ « سيدنـا » ، وغير معاملته لها . فقد كانت لا تخشى أحدا قدر خشيتها من «سيدنا » . وعندما توفى سيدنا لم تصدق الخبر . . إن سيدنا ليس كبقية الناس ، فهل يمكن أن يموت؟؟ وتحكى أم كلثوم :

« أول ما خطر فى بـالى هو أن أطمئن على أنه مـات بالفعل . . فجريـت إلى بيته ، فوجـدت زوجته تبكى وتصرخ بشدة ، فلـم أصدق . وعدت أجرى وأدور على بـاقى منازل أقاربه ومعارفه فوجدتهم يبكون ، فرجعت مرة ثانية إلى بيت الرجل ، وقد قررت أن أدخل حجـرته لأراه على فراش الموت . وبالفعـل تسللت من بين أرجل المعـزين ، ودخلت الحجرة ، ورأيـت « سيدنا » ممددا على السرير ، ولكننـى لم أطمئن إلا بعد أن سرت وراء الجنازة ، ورأيت المشيعين ينزلون سيدنا إلى القبر . . ويقفلون عليه ويعودون من غيره . . . وفى هذه اللحظة وحدها شعـرت بالاطمئنان . . ومضيت أجرى وأقفز فى سعادة ، فقد تصورت أنه بموت « سيدنا » انتهى عهد التلمذة والذهاب إلى الكتَّاب بالنسبة لى . . كنت أتخيـل أن « سيدنا » هو الذى بدع مسألـة التعليم كلها . . وأننى بانتهائه قد تحررت نهائيا من المذاكرة وتحصيـل العلم . ولكن اتضح بعد ذلك أن موت « سيدنا » جاء على « دماغى » . . فقد أرسلونى إلى مدرسة السنبلاوين ، وأصبح على أن أسير على قدمى ، كـل يوم ذهابا وإيـابا ، خمسة كيلو مترات ونصـف كيلو متر . .

ساعتها فقط ترحمت على سيدنا الشيخ . . » .

وعن مدرسة السنبلاوين قالت أم كلثوم : (٧)

« مدرسة السنبلاوين هذه . أو كتَّاب عزبة الحوال كان « سيِّدُهُ » أو « سيدنا » اسمه الشيخ إبراهيم جمعة ، ولم يضطهدنى هذا الرجل كما فعل المرحوم سيدنا ، فأحببت التعليم ، ربما لأول مرة فى حياتى » .

وكانت ، وهى فى هذا الكتَّاب ، تذهب فى فترات الراحة إلى بيوت بعض الجيران ، جيران المدرسة ، فتغنى لهم ليعطوا لها خمسة مليمات أو عشرة مليمات ، فتعود فرحة سعيدة (تعاير) زملاءها وشقيقها وقريبها صابر بالنقود . . ثم تنظر إليهم ، وهم يتميزون من الغيظ .

لقد بدأت تحس بنفسها ، وأنها غدت شيئا مختلفا عن قريناتها من بنات القرية وأبنائها ، فلم تعد تلعب على الترعة مثلهن . . إنها تتلقى العلم فى المدرسة ، وتتلقى الفن فى البيت . . ولو بمفهوم القرية للعلم والفن .

وذات يوم ، كانت أم كلثوم تجلس على مقربة من الكتَّاب ، فى انتظار وصول الفقيه . . وأخذت تغنى بعضا مما كانت تنشده مع والدها الشيخ إبراهيم فى المولد . وإذا برجل وقور يرتدى ملابس أهل المدينة يقترب منها . . ويتابع غناءها ، وبعد أن انتهت من أغنيتها سألها عن اسمها ، وعن قريتها واسم والدها . .

وكان هذا الغريب هو القاضى « على بك حسين » . وكان من محبى الغناء ، المعروف عنهم التمييز بين أنواع الغناء ومراتبه .

وذات يوم ذهب القاضى «على بك حسين» لزيارة الشيخ ابراهيم (والد أم كلثوم) فى قريته « طماى الزهايرة » . وراح القاضى يؤكد للوالد ـ الذى أذهلته الزيارة ـ أن فى منزله كنزا لا يعرف قدره . فسأله الشيخ فى سذاجة عن مكان هذا الكنز . فأجابه القاضى أنه فى حنجرة ابنته الطفلة أم كلثوم .

وضحك الوالد ضحكته الريفية متعجبا لرأى هذا القاضى، لكن « على بك حسين» استطاع إقناع الوالد بالاهتمام بهذا الصوت، ورعايته، وصقله، مبديا استعداده لبذل أى مساعدة فى هذا السبيل . . .

* * *

أم كلثوم والحفلات :

ومن ذكريات أم كلثوم (مختارات الهلال ١٩٤٦)

« كان والدى يمارس فن الغناء، وكنت أنا وشقيقى نتردد على كتّاب البلدة . حتى إذا شب أخى ، أراد والدى أن يعلمه هذا الفن ليستعين به . فأخذ يلقنه الأدوار والموشحات . وذات يوم كلّفه أن يحفظ موشحا ، فلم يستطع حفظه . وظل يعيده عليه عدة مرات ، ولكن أخى لم يحفظ الموشح . مما جعل والدى يعنفه ويضربه . وكنت أنا فى خلال ذلك قد حفظته ، ووجدت فى نفسى ميلا شديدا لإلقائه ، فأسرعت إلى والدى وقلت له :

ـ « هل تسمح لى أن أسمعك هذا الموشح ؟ »

وكان أبى محافظا ، ولم يفكر يوما فى أن أمارس الغناء، فأجابنى :

ـ « يابت اتلهى !! »

فألححت فى الطلب ، وأصر هو على الرفض . . . مكررا :

ـ « يا بت اتلهى . . اللى أخوكى ما هو عارف . . حتعرفى إنتى ؟ »

ولما يئست من قبوله ، دخلت غرفة أخرى، وبدأت أغنى الموشح ، فأنصت والدى حتى انتهيت منه ، وكأنه فى هذه الدقائق فقط عرف ما فى نفسى من ميل فطرى للغناء. فاستدعانى وطلب منى أن أعيد الموشح فأعدته . »

وعن حفل شيخ البلد روت أم كلثوم :

« كان الوالد مدعوا للغناء فى منزل شيخ البلد ، فألححت عليه أن أشارك فى هذا

الحفل ، مؤكدة أننى أحفظ كل ما يعرفه أخى خالد من قصائد وموشحات دينية » .
وأمام هذا الإلحاح ، وافق الوالد على أن يشرك أم كلثوم معهما فى هذا الحفل .

كان الحاضرون فى الحفل حوالى خمسة عشر شخصا ، اعتبرتهم الطفلة أم كلثوم عددا ضخما . أوقفوها على « دكة » حتى يراها الحاضرون . وبدأت تغنى . وأعجب الحاضرون بأدائها . ولكن الطفلة لم تهتم بهذا الإعجاب ولا التصفيق . . وإنما كانت تنتظر أجرها عن الغناء ، وهو طبق المهلبية الذى وعدها به والدها . فالمهلبية كانت طبقها المفضل . ومن أجله فقط ، وقفت تغنى . علقت أم كلثوم على هذا الحفل بقولها :

« لم أشعر بخوف أو رهبة ، ولم أضطرب أمام الجمهور . لقد وقفت وغنيت بلا اهتمام ، وكأنى أغنى لعروستى الصغيرة . . رغم أننى أخاف اليوم من الجمهور الذى يعرفنى وأعرفه . . وأعمل له ألف حساب . »

كانت أم كلثوم ، وهى فى طريقها إلى الكتَّاب ، تمر على دار العمدة . وكان بالدار « فونوغراف » تدار عليه الأسطوانات . ولما كانت أم كلثوم من محبى صوت الشيخ أبو العلا محمد ، فكانت تقف إلى جانب سور المنزل لتستمع إلى صوت أستاذ الغناء . . وعلى الرغم من عدم فهمها لمعانى كلمات القصائد، التى كان الشيخ أبوالعلا يتغنى بها . . فإنها استطاعت أن تحفظ الكثير منها . وكانت، عندما تعود إلى دارها، تبدأ فى إعادة ما حفظته من أغان . وكان والدها من أشد المعجبين بأداء ابنته لتلك الأغانى .

بدأ الوالد يصطحب ابنته أم كلثوم معه فى الحفلات . . لتشارك بصوتها الجميل . . فقد كان فى حاجة إلى المال ليتعيش وأسرته بها . وكانت أولى حفلاتها فى بلدة السنبلاوين . . كان على الفرقة أن تسير على الأقدام . وكان أفراد الفرقة يضطرون إلى حمل الطفلة، حيث يحملها كل منهم مسافة ما ، ثم يحملها الآخر . . وهكذا . .

وبعد الغناء، كانت تأكل طبق المهلبية . ولم تكن أم كلثوم تفكر فى المال، بل كان يكفيها قرش أو قرشان تدفعهما قسطا للكتَّاب .

بدأ اسم أم كلثوم يلمع . . وبدأت العائلات الكبيرة ترسل فى طلبها ، للاشتراك بالغناء فى حفلاتها وأفراحها .

ومن القرية انتقلت إلى قرى مجاورة ومدن . . واختلفت أساليب الانتقال . . وتحولت من الانتقال بواسطة الحمير إلى التنقل بالقطار . .

كانت أم كلثوم الطفلة تحب ركوب القطار . . وكانت ، إذا ما وصل القطار إلى محطة الوصول ، فإنها تأبى مغادرته . . وتبدأ فى البكاء . . فيضطر والدها إلى الوعد بركوب القطار فى طريق العودة .

تنقلت الطفلة أم كلثوم من مديرية إلى مديرية . . وارتفع أجرها ، حتى وصل إلى مائة وخمسين قرشا . وكان ذلك عام ١٩١٥ . . واعتبر الوالد هذا المبلغ علامة ثراء . . فاشترى حمارا ، تركب عليه أم كلثوم . . وعلق فى رقبته خرزة زرقاء ، منعا للحسد . ركبت أم كلثوم الحمار ، وسار والدها وخالد على أقدامهما . وفى عام ١٩١٦ ، زاد إيرادهم من الحفلات . . واشتروا حمارين آخرين . . وأصبحوا ثلاثتهم يركبون الحمير فى تنقلاتهم .

* * *

ولهذه الحفلات قصص طريفة كثيرة ، كما روت أم كلثوم :

« دعينا إلى فرح ببلدة بالدقهلية ، وصعدنا إلى التخت فى الساعة العاشرة مساء . وأخذنا ننشد الموشحات والأدوار والقصائد ، حتى انتهينا منها كلها فى ساعة واحدة . . دون أن يقول أحد « الله » أو « كمان » أو « أنتم فين » . . وأعدنا الأدوار والموشحات والقصائد من جديد . . ولكن الحاضرين ظلوا ساكتين ساكنين . .

وقال والدى :

ـ يظهر أنهم نائمون ، دعونا نكرر ونعيد حتى يصحوا ، أو تنتهى السهرة . وبقينا على هذه الحال حتى انتهينا . فكانت ليلة لم أشهد مثلها فى حياتى . ولا أزال إلى الآن أضحك كلما ذكرتها . ولا أدرى السميعة ليلتها كانوا واكلين إيه ؟! »

ورواية أخرى طريفة تقول فيها :

« كثيرا ما نتعرض نحن الفنانين والفنانات للمخاطر . ومما أذكره فى هذا الصدد ، أننى دعيت ذات مرة إلى حفل فى بلدة « القرشية » . فلما ذهبنا إليها ، لم نجد لا فرحا ولا شيئا يمكن أن يشير إلى أن هناك حفلا كبيرا . ولما صعدنا على التخت ، تقدم منا أحد الداعين وقال لنا :

ـ لما تشوفوا فانوس اتكسر ، قوموا وادخلوا فى الغرفة التى بجانب السرادق .

وازدحم السرادق بالحاضرين ازدحاما شديدا ، وماكدنا ننهى الدور الأول حتى رأينا أحد الفوانيس ينكسر . فأسرعنا فى الدخول إلى الغرفة . وقامت على أثر ذلك معركة شديدة بين أهالى البلد وأهالى بلد مجاور ، لخصومة شديدة قديمة بين البلدين . وقد علمنا ، فيما بعد ، أن أهالى القرشية أقاموا هذه الحفلة خصوصا ليضربوا خصومهم حين يأتون لسماع الغناء . ولكن النتيجة كانت عكسية ، فقد أخذوا هم علقة طريفة» .

ومن روايات أم كلثوم أيضا :

« ركبنا مرة قطار الدلتا لمدة ساعتين ونصف الساعة . ثم ركبنا الحمير لمدة ساعتين ونصف الساعة . . لكى نصل إلى « الكفر » الذى سنحيى فيه ليلة الفرح . . ولما وصلنا بسلامة الله بعد هذا المشوار الشاق الطويل ، تبين لنا أن الفرح قد تأجل . فقال أبى لصاحب الفرح :

ـ طيب لما الفرح اتأجل . . مش كنت تدينا خبر ؟

فأجابه الرجل ببساطة شديدة :

ـ إهيه ! ! ما كل الناس عارفة إن الفرح اتأجل ! ! »

عن سنوات السير على الأقدام . . . تحكى أم كلثوم فى مذكراتها التى كتبها «على أمين » ورسمها « بيكار » . . ففى الصفحات الأولى ذكرت :

« مسحت بقدمى الصغيرتين القطر المصرى ، قرية قرية . . . قبل أن أضع قدمى فى القاهرة . »

واستطاعت الطفلة الصغيرة أن تترك فى كل قرية عددًا من المعجبين بصوتها . . حيث كانت تنتقل من قرية إلى أخرى مشيا على الأقدام . . فقد كان أصحاب الحفلات يرسلون إليهم « الحمير »، لتحملهم إلى مكان الحفل . . فإذا انتهى الحفل، اختفت الحمير . . وهكذا كانوا يركبون ذهابا . . ويمشون إيابا !!

كانت المسافات التى تقطعها الطفلة أم كلثوم ووالدها وبطانتها ـ مشيا على الأقدام تتراوح بين خمسة وعشرة كيلو مترات. ولم يكن السير على الأقدام ، وهى لا تزال صغيرة ، أصعب متاعبها . . بل كان الانتظار على أرصفة المحطات هو تعبها الأكبر . . فكانت تقف فى عز البرد والمطر اثنتى عشرة ساعة كاملة أحيانا فى انتظار مجىء القطارات. وكانت هذه القطارات تمر أمام المحطة مرتين : مرة فى السادسة صباحا . . ومرة أخرى فى السادسة مساء . . ولذلك كانت هى وبطانتها يسرعون ، بعد انتهاء كل حفل ، إلى محطة السكة الحديد . وكثيرا ما كانوا يصلون إلى الرصيف بعد قيام القطار بدقائق . تقول :

« كنا نضطر إلى الانتظار ١٢ ساعة على الرصيف . وكان الانتظار فى معظم الأيام وسط البرد الشديد . . أو تحت الأمطار الغزيرة، التى كانت تحرص على استقبالنا فى كل محطة نلجأ إليها .

وفى يوم من الأيام ، عرف أبى سر مفتاح باب « استراحة الركاب . . » وكان سر المفتاح هو حنجرة الطفلة . . أم كلثوم . . لقد أقنع والدى ناظر المحطة بأن يفتح لى استراحة الركاب . . وكان الثمن هو أن أغنى للناظر . وغنيت على أرصفة العديد من محطات السكك الحديدية فى الوجه البحرى» .

وبدأت الطفلة « أم كلثوم » تكتشف أن الدنيا أكبر من الوجه البحرى . . وأن هناك مدنا أخرى لا تقل أهمية عن المنصورة والزقازيق .

« اكتشفت أن هناك مدينة اسمها القاهرة . . اكتشفتها بمحض الصدفة » . .

فقد حـدث أثناء حديث عـابر بين الثرى « عـز الدين يكـن » وناظر عزبتـه ، أن قال صاحب العزبة إنه سيقيم فى قصره بحلوان احتفالا بليلة الإسراء والمعراج ، كعادته كل عام ، فقال ناظر العزبة :

ـ «والله يا سعادة البيه عندنا بنت صوتها حلو قوى» .

فقال صاحب العزبة : « هاتها تغنى لنا »

وسافـرت هى ووالدها والبطانة مع نـاظر العزبة لأول مرة إلى القاهـرة . . ولا تكاد أم كلثوم تذكر شيئا عن المدينة الكبيرة .

« إن صورتها لم تعش فى ذاكرتى . . كل ما أذكـره هو محطة « باب اللوق » . فهناك اشترى لى والدى « كراملـة » أعجبتنى ، وجعلتنى أتصور أن القاهرة بلـد « الكراملة » الحلوة . وذهبنا إلى قصر « عز الدين بـك يكن » فى حلوان . . وخرج صاحب القصر لاستقبالنا . . »

لم تنس « أم كلثـوم » هذا الاستقبال . . فعندمـا استقبلهم صاحـب القصر ، نظر إليها « من تحت لفوق » عدة مرات ، ثم سأل ناظر العزبة فى دهشة :

« هى دى البنت اللى ح تغنى فى الحفلة ؟ »

ولما هز ناظر العزبة رأسه موافقاً . . صاح عز الدين بك :

«إيه لعـب العيال ده . . بلاش كلام فـارغ . . انزل مصر حالا ، وهـات الشيخ اسماعيل سكر يحيى لنا الحفلة . . »

« ووضعونـا فى البدروم » مـع الخدم . وجاء الشيـخ إسماعيل سكـر ، وراح يغنى للمدعوين . . وبعد أن اطمأن صاحب القصر على نجاح حفله، قال لناظر العزبة :

ـ «هات لنا البنت الصغيرة تغنى . . ونشوف حتقول إيه . »

وجاءت البنت الصغيرة من البدروم . . وصعـدت على كنبة فى الصالون ، وبدأت تغنى، واستعادها الحاضرون مرات عديدة . . واستعادها معهم الشيخ إسماعيل سكر

نفسه . ثم جاء أحد الخدم، وقال لعز الدين بك :

« الست عاوزه تشوف البنت الصغيرة فى الحرملك . »

وصعدت إلى الحرملك أنا وأخى خالد . . وأدخلونا صالوناً كبيرا مليئا بالأثاث الفاخر . . وسمعنا صوتا يقول لنا :

ـ اتفضلوا ! !

وتلفتنا نبحث عن مصدر الصوت . . فلم نر أحدا فى الصالون . . وعاد الصوت يقول لنا :

ـ اتفضلوا ـ اتفضلوا ـ اتفضلوا . . ! !

وهنا رأينا صاحب الصوت : إنه طائر فى قفص . . وأصبت بالفزع وصرخت

« الغراب بيتكلم . . الغراب بيتكلم ! ! »

وخرجت أنا وأخى من الصالون فى فزع . . واصطدمت عند الباب بحرم عز الدين بك . وكنت أرتجف من شدة الخوف . وراحت تهدئ من روعى ، وتسألنى عن سبب فزعى ، فرحت أصرخ :

« الغراب بيتكلم ! ! الغراب بيتكلم ! ! »

وضحكت حرم عز الدين بك ، وقالت لى :

« إنه ليس غرابا . . إنه ببغاء . . والببغاوات بتتكلم . »

وعادت الطفلة « أم كلثوم » إلى قريتها وراحت تتحدث عن القاهرة بلد العجائب . . البلد الذى تتكلم فيه الغربان .

وعن ذكريات طفولتها . . تحكى أم كلثوم :

« فى بداية حياتى الفنية ، كنت أتنقل بين القرى والعزب والكفور، أحيى الحفلات والأفراح . وكثيرا ما اضطرتنا الظروف إلى السير على الأقدام مسافات طويلة ، لكى نلحق بآخر قطار . فإذا فاتنا القطار فإننا ننام على رصيف المحطة .

وذات ليلة قارسة البرد ، قضينا الليل فى « زريبة بهايم » . وفى تلك الليلة اتخذت

من كـومة قـش فراشـا لنومـى ، وغطاء مـن البرد . وكان يجاورنـى فى « المنامـة » جمل ضخم . . ورغم الإرهاق الشديد الذى كنت فيه نتيجة السير على الأقدام والغناء طول الليل . . إلا أننى لم أستطع النوم مخافة أن يرفسنى الجمل » .

وتقول أم كلثوم أيضا : إنها كانت تركب مـع أبيها وأخيها القطار فى الدرجة الثالثة . وعندما يتحرك القطار تسرع مع أبيها وأخيهـا إلى الثانية . وعندما يمر الكمسارى، تتحايل عليه أن يتركهم فى الدرجة الثانية، بسبب زحام الدرجة الثالثة. وعندما يتعرف الكمسارى على شخصيتها، وأنها الطفلة التى تتمتـع بالصوت الجميل ، والتـى تحيى الحفلات فى القرى المجاورة، يتركها لفترة ، ثم يعود مع زملائه ليمكثوا معها فى الديوان مستمعين إلى أغـانيها وصـوتها الجميـل . وتضيـف أم كلثوم : « إن الحقيقـة لم تكـن بسبب زحـام الدرجـة الثالثة ، وإنما علشـان الناس اللى مستنيين على محطـة البلد اللى رايحاها يشوفونا نازلين من « البريمو» ، فاحترامهم لينا يزداد ونكبر فى أعينهم » .

كانت أم كلثوم ترتدى ملابس الصبيان. . . وتغطى شعرها بكوفية وعقال. فالرجل الريفى يخشـى التقاليد. وأراد الشيخ إبـراهيم أن تتنكر ابنته فى زى غـلام. كما خافت الأسرة على ابنتها من الحسد، فكلف الوالد أحد مشايخ القرية بعمل حجاب لها، يقيها شر الحاسدين. ومن الطريف أن أم كلثوم ظلـت محتفظة بهذا الحجاب إلى آخر يوم من حياتها. . .إذ كانت تتفاءل به.

وفى عام ١٩١٨ ، دعيت الصبية أم كلثوم للغناء فى كلوب قناوى حسانين، بمدينة الزقازيق . وعند وصـولها بصحبة والدهـا ، رفضت أن تغنـى القصائد الدينيـة وسط جمهور يحتسى الخمر. وبعد شد وجذب ، وافق الوالد على غناء ابنته ، بشرط أن يمتنع المكان عن بيع الخمر .

وحينما بدأت أم كلثوم تشتهر بصوتها الجميل . . وأصبـح صيتها مدويا فى النجوع والقرى المجاورة . . أراد والدهـا أن يعاملها الجميـع معاملـة المطربين الكبار . وكان هناك مطـرب مشهور اسمـه « الشيخ حسن جـابر » ، كـان ينص فى بنـود عقده على

(إضافة زجاجة كازوزة) أثناء الحفل . ففعل والد أم كلثوم كذلك . . وأضاف الكازوزة فى العقد مثل المطربين الكبار .

كما اشترط الوالد ، بعد أن اشتهرت ابنته ، فى العقد على صاحب الحفلة (أن يقدم الحمير للمطربة والموسيقيين) ، وكانت هذه هى وسيلة المواصلات فى ذلك الوقت .

وعن طفولتها وبدايتها الفنية مع والدها . . وعن الحفلات التى أقامتها فى القرى والمدن المجاورة قالت :

« لقد دعكتنى هذه السنوات ، وصقلت موهبتى ، وجعلتنى أكثر جلدا واحتمالا ، وعلمتنى أن الطريق أمام من يريد الوصول . . طويل . . طويل . . . . »

وقالت أيضا :

« نفعتنى تلك الفترة . . فعندما بدأت أشتهر وأسجل أسطوانات . . اشترى كل أعيان الريف الذين غنيت فى بيوتهم وأفراحهم ، أسطواناتى ليقول كل واحد منهم لأصدقائه :

ـ تعالوا نسمع البنت اللى غنت عندنا فى الفرح .

لقد كوَّنت لنفسى زباين وسميعة ، ظهروا مرة أخرى بعد ما نجحت» .

وجاء فى مذكرات الحاج « إسماعيل أبو العينين» (*) التى كتبها ، والخاصة بعمله مع أم كلثوم فى فرقة واحدة تعريف بحياة أم كلثوم الفنية فى قرى السنبلاوين ومحافظتى الدقهلية والشرقية ، ضمت هذه المذكرات نماذج من الأشعار التى تغنت بها أم كلثوم.وفيها يقول :

« التقيت فى إحدى السهرات الدينية ، التى كان يقيمها المرحوم « على بك أبو العينين» من أعيان مدينة السنبلاوين فى ليالى رمضان المعظم ، بالخالدة « أم كلثوم» . . وكان عمرها حوالى ١٢ عاما يرافقها والدها المرحوم الشيخ « إبراهيم السيد البلتاجى » وشقيقها الشيخ « خالد » .

(*) الحاج اسماعيل أبو العينين من قرية تمى الامديد ـ مركز السنبلاوين ـ بدأ الغناء فى حفلات القرية ـ كهاو .

وفى هذا الحفل الدينى أنشدت أم كلثوم لحنا دينيا (رغم صغر سنها) ويقول الموشح الدينى :

اللهم صل وسلم على أحمد محمد نبى الهدى
صلاة نفوز بها فى غد ونسعد بها ونكيد العدا
بعد الحصى والرمال وموج البحار وقطر الندى
بعد الملائكة القائمين كذا الراكعين مع السجدا
وألف صلاة وألف سلام على أحمد محمد نبى الهدى

وقد غنتها مرات ومرات، بناء على طلب الحاضرين . ثم أعلن شقيقى الوجيه «على بك أبو العينين » اسمى ، وقدمنى للغناء. وشعرت برهبة وخوف ، خاصة وأن الفتاة الصغيرة أم كلثوم ــ غنت ونالت إعجاب الحاضرين . غنيت موشحا دينيا من تأليف شقيقى « على بك أبو العينين » . وأثناء غنائى كانت عيناى على الفتاة الصغيرة « أم كلثوم» ، لأرى مدى تأثير غنائى عليها . كانت تتمايل طربا . وبدأت تردد معى بصوت منخفض كلمات الموشح . وما إن انتهيت من الأداء حتى صفقت لى ، وقامت وصافحتنى وقالت لى مبتسمة : برافو يا أبو السباع ، صوتك جميل ـ عربى أصيل .

ثم ذهبت إلى أبيها ، وهمست فى أذنه بكلمات لم أسمعها ـ وبعد قليل ، وجدت الشيخ « إبراهيم البلتاجى» يتحدث إلى شقيقى الوجيه « على بك أبو العينين » .

ثم نادى على وقال :

ـ أنا خلاص اتفقت مع سعادة على بك . . أنك تكون معانا فى الحفلات والليالى الدينية ، تغنى موشحات مع أم كلثوم . . رأيك إيه يا أبو السباع ؟ ولم أتمالك نفسى من الفرحة وأسرعت أقول :

ـ أنا تحت أمـرك يا سيدنا الشيـخ إبراهيم ، ده شرف كبير . . صحيح أننـى هاو، لكن حاستفيد وأتعلم على إيدك الكريمة .

ومنذ هذا اليوم بدأنا جولات فنية فى قـرى السنبلاوين . ثم انتقلت شهرتنا إلى قرى محافظتى الدقهلية والشرقية .

أم كلثوم تؤلف :

كـانـت أم كلثـوم تختـار كلمات القصـائد والموشحـات الـدينيـة مـن المؤلفين فى السنبلاوين والدقهلية . وأحيانا من تأليف والـدها الشيخ إبراهيم . كانت تمتاز ـ رغم صغر سنهـا ـ بالبـلاغة ، وبخاصـة اللغة العـربية ، لحفظها القـرآن الكريم . ولـذلك كانـت ذات حاسـة أدبية لماحـة . فكانـت تضيف وتحذف مـن القصائد والموشحـات الدينية ، وأحيـانا تغير معنى الكلمة إلى معنـى آخر أعذب وأرق . وبعد ثـلاث سنوات من العمل معا ـ وأصبح عمرها ١٥ عامـا ـ أقدمت على تأليف القصائد والموشحات . وأول قصيدة ألفتها أم كلثـوم وغنتها كانـت بعنـوان « تبارك من تعالى فى عـلاه» ، وتقول فيها :

تبـــارك مـــن تعـــالى فى عـــلاه	يقـــول للعبـــد اطلبنـــى تجدنـــى
أنـــا المطلـــوب فـــاطلبنـــى تجدنـــى	وإن تطلـــب ســـواى لم تجدنـــى
أنـــا المقصـــود لا تقصـــد ســـواى	كثير الخير فـــاطلبنـــى تجدنـــى
أنـــا الملـــك المهيمـــن جـــل قـــدرى	عظيـــم الخير فـــاطلبنـــى تجدنـــى
تجدنـــى فى سجـــودك حين تـــدعـــو	وحين تقـــوم فـــاطلبنـــى
تجدنـــى راحما بـــارا رءوفـــا	بكـــل الخلـــق فـــاطلبنـــى تجدنـــى
وإذا اللهفـــان نـــادانـــى حـــزينـــا	أقـــول لبيـــك فـــاطلبنـــى تجدنـــى

وهناك الكثير من الموشحـات والقصائد غنتها أم كلثوم مـن تأليف والدهـا الشيخ إبراهيم البلتاجـى . . والحق أن موشحات والدها كانت أم كلثوم تغنيهـا بدون تعديل

أو إضافة أو حذف . وكانت تعلق على ذلك بقولها :

ـ إنه والـدى ـ وأستاذى ـ ومعلمـى يا أبو السباع ، إزاى التلميـذة تعدل وتضيف وتحذف لأستاذها ومعلمها ؟

ومن القصائد التى تعتـز بها أم كلثوم من تأليف والدها ، وكـانت تغنيها فى أغلب الحفلات والليالى الدينية، موشح دينى بعنوان «من الله نرجو الغفران ». ويقول الموشح :

لا إلّه إلا الله

لا إلّه إلا الله

محمد رسول الله

من الله نرجو الغفران

إن كنت يا ولهان

خائفا من الديان

قم فى الدجى سهران

بالذكر والقرآن

واترك جميع دنياك

واقصد حمى مولاك

فهو الذى أنشاك

بالفضل والإحسان

تب توبة الأبرار

وابك على الأوزار

يرضيك بالغفران

وكانت أم كلثـوم تردد قصيدة من تأليـف الشيخ « إبراهيم جمعه » ـــ شيخ الكتاب بحى الحوال بالسنبلاوين الذى التحقت به بعد وفاة الشيخ « عبد العزيز » شيخ كتّاب

قرية طماى الزهـايرة . والقصيدة بعنوان « الدهر لوعنـى فى الحب من صغرى » وتقول القصيدة . .

الدهر لوعنـى فى الحب من صغرى	فـلا مفـر مـن المحتـوم فى القـدر
إلى متـى اللوم يـا خـالى من الفكـر	ألا تـرى الدمـع من عينـى كالمطـر
والجسـم ذاب مـن التبريـح والغير	عـدتـك حـالى لأسرى بمستتر

وأم كلثوم كانت تؤلف أيضا تواشيح دينية أذكر منها موشح :
« يا حبيبى يا محمد » وهو من تلحينها . وتقول فيه :

صـل يـارب وسلـم	ع النبـى بـدر التمـام
يـاحبيبـى يـا محمـد	أنـت مصبـاح الظـلام
أنـت سر الله حقـا	والمظلـل بـالغمام
أنـت نـور أنـت بـدر	أنـت كهـف لـلأنـام
أنـت أصـل للبرايـا	أنـت مـولانـا الإمـام
يـا رسـول الله إنـى	أبتغـى نيـل المرام
كـن مغيثـى كـن مجيرى	فى الـورى يـوم الـزحـام
أنـت مطلـوبـى فهـب لى	نظـرة لـوفى المنـام

وظللنا نجوب القرى والنجوع ننشد فى الحفـلات والليالى الدينية . وكان لأم كلثوم العديد من القصائد والموشحات الدينية . والمديح فى الرسول عليه الصلاة والسلام . . أذكـر منها : « صلى وسلـم يـا كـريم » و « يـارب صلى على المختـار » و « ألا إن رب العرش بالعفو ناظر » و « إلهى توسلنا تجاه محمـد » و « لولاك يارب الوجود » و « يا أمة الهادى لنا وذويه » و « نبى على الرسل الكـرام مكرم » . وفى الحب كانت تغنى قصائد منها : « سلوا الحب عنى» و « ساقى المحبة قد سقى » و « تعجـب الناس من الصبر فى لوعة الحب » و « إن قلبى ذو هيام » .

لقاء أم كلثوم والشيخ أبو العلا محمد :

روت أم كلثوم لقاءهـا الأول مع الشيخ « أبو العـلا محمد » فقالت : « كنـت أغنى بلا إحساس ولا شعور . . لقد كنت أردد الأغانى التى أسمعها من أبى بنفس الطريقة التى يردد بها التلميـذ الصغير جدول الضرب ، وقواعد النحـو والصرف . . ثم غيرنى فونوغراف العمدة . لقد سمعت من هذا الفونوغراف صوت الشيخ أبو العلا محمد . . وهزنى صوته . كنت أشعر أنه يغنـى لى وحدى . . وسمعت صوته مئات المرات ـ من الفونوغـراف ـ وهو يغنى « أفديـه إن حفظ الهوى أو ضيعا » ، وسمعت صـوته مئات المرات وهو يغنى «وحقك أنت المنى والطلب » و « غيرى على السلوان قادر » .

كان الفـونوغراف يسكـت . . ولكن صوت الشيـخ أبو العلا كـان يستمر فى أذنها وكانـت تتصور أنه قد مـات ، إلى أن جاء اليوم الذى التقـت فيه بالشيخ أبـو العلا فى محطة السنبلاوين . وبالطبع لم تتعرف عليه إلا بعد أن سمعت والدها يقول :

ـ الشيخ أبو العلا هنا . .

وتقول أم كلثوم :

« لم أصدق أذنـى ، ورأيت أبى يسرع نحـو الرجل الكبير، ويصـافحه فى احترام . وأسرعت وراءه وأمسكت بيده ، ورحت أحدثه على الفور عن إعجابى به . »

وجاء فى روايتها عن هذا اللقاء . . أن الشيخ أبـو العلا لم يهتم بحديثها واستمر فى حديثه مع الآخـرين . حاولت أن تمنعه من الحديث مع آخـر غيرها . . أمسكت بيده وألحت عليه أن يأتـى معهم لزيارتهـم فى القرية . . وأمام هـذا الإلحاح رضـخ الشيخ أبو العلا وذهب معهم إلى قرية « طماى الزهايرة » .

تقول أم كلثوم :

« دخلت إلى أمـى ، وأنا أكـاد أطير من شدة الفـرح ،وقلت لها إن أهـم إنسان فى الدنيا سيتناول معنـا طعام الغداء . كل حاجة عندك قدميهـا له . . ادبحى الفراخ اللى عندك ، واللى عند الجيران . » كانت لا تصدق عينيها . . عاشت فى حلم . . .

ولما جلست أم كلثوم أمام الشيخ أبو العلا طلبت منه أن يغنى . . فطلب منها أن تغنى هى أولا . . ورفضت فى خجل . . . فكيف تجرؤ على الغناء أمام هذا العملاق . . ؟ فغنى لها . . وغنت له . تقول :

« شعرت أن فى بيتنا أجمل أحلامى . . وأحسست بضربات قلبى وأنا أسمع صوته . . »

أعجب الشيخ أبو العلا بصوت أم كلثوم . واقترح أبو العلا على والدها الشيخ إبراهيم أن يترك قرية « طماى » وينتقل إلى القاهرة . ولكن الوالد كان يشعر بالطمأنينة فى قريته . . ويخشى الغربة . . فقال الشيخ أبو العلا :

- إن مستقبل ابنتك أكبر من طماى . . وحرام عليك تحبس هذه الموهبة فى قرية صغيرة .

وأجاب الوالد :

- لما نشوف ! ! ربنا يعمل اللى فيه الخير . . .

وتروى أم كلثوم :

« دخلت فى المناقشة . . وكانت أول مرة فى حياتى أناقش والدى ، وألح عليه فى ضرورة السفر إلى القاهرة . . ولم أتعب من « الزن » و « الإلحاح » . إلى أن حدث أن اتفق أحد أهالى القاهرة مع الشيخ إبراهيم على أن تحيى أم كلثوم فرح ابنته فى كوم الشيخ سلامة المجاور لحى العتبة الخضراء . سافرت الأسرة . . وأخذت معى « تحويشة العمر » . .

نداء القاهرة :

تقول أم كلثوم : «فقدت الخمسة عشر جنيها التى ادخرتها من مصروفى «وعيديتى» .

فى القاهرة نزلنا فى بيت صغير - بيت صاحب الفرح - وقبل خروجنا من البيت لإحياء الحفلة ، وضعت ثروتى « الضخمة » فى جيبى . ولما انتهى ، الحفل وعدنا إلى

البيت، أسرعت إلى « تحويشة العمر » لأخرجها من جيبى فلم أجدها . لم أصدق عينى . . رحت أبحث فى جيب أخى . . وتحت الكراسى فلم أجد لها أثرا . . ولم أذرف دمعة واحدة . لقد كانت نكبتى أقوى من الدموع » .

أخفت أم كلثوم الحادث عن والدها فى أول الأمر . . ولكنها اضطرت أن تعترف بما حدث . . وعاهدت نفسها على ألا تجىء إلى القاهرة مرة أخرى . ولكن نداء القاهرة كان أقوى من ضياع أموال قارون، فعادت إليها أكثر من مرة . وكانت إقامتهم فى لوكاندة «جوردن هاوس » التى تطل على شارع فؤاد الأول (٢٦ يوليو حاليا) .

وذات مرة ، جاء « الشيخ أبو العلا » لزيارتهم باللوكاندة . . وطلب منها أن تغنى له . . فغنت . . وسكت « الشيخ أبو العلا » . . . تقول أم كلثوم :

رأيت دمعة تسقط من عينيه ثم قال :

ـ لن أفترق عن هذا الصوت طول عمرى . .

وفعلا ، لم نفترق منذ تلك اللحظة . . كان يصحبنى مع أبى وأخى فى كل حفلاتى . . وفى كل مكان نذهب إليه » .

تعلمت أم كلثوم من « الشيخ أبو العلا » الكثير . . إذ قدم لها خلاصة تجاربه وفنه . . علمها كيف تتذوق الشعر وتفهم مضمونه قبل أن تحفظه وتغنيه . قالت :

« استمرت صداقتى بأستاذى الشيخ أبو العلا سنين طويلة . . كنت أبحث عنه فى كل مكان لأستظل برعايته وأستاذيته ، وكنت أطلب فى كل مرة نلتقى فيها أن يغنى لى . . كان غناؤه غذاء روحى . »

أنا وأحمد رامى :

« وعن طريق الشيخ أبو العلا عرفت الشاعر أحمد رامى . فقد التقى رامى بالشيخ أبو العلا ذات يوم وسأله :

ـ فيه بنت بتغنى اسمها أم كلثوم . . إيه رأيك فيها ؟

فأجاب الشيخ أبو العلا :

ـ دى بتقول لروحها « آه » .

وفى إحدى حفلاتى بحديقة الأزبكية ، عرفت أن أحمد رامى جاء يسمعنى ، فأردت أن أحيى الشاعر الذى غنيت أشعاره قبل أن أراه . أردت أن أقول له أهلا . فغنيت له قصيدة « الصب تفضحه عيونه ». وكانت مفاجأة له . . كان رامى يحب الغناء . . وكنت أنا أحب الشعر . ويرجع له الفضل كل الفضل فى تذوقى للشعر وفهم معانيه . . كان يقدم لى فى كل مرة يزورنى فيها ديوان شعر . وتعلمت على يديه أوزان الشعر . وبدأت أفرق بين البيت المكسور والبيت الذى يقف على قدميه »

ومنذ أن التقت أم كلثوم بأحمد رامى ، لم تنظم بيتا واحدا من الشعر. وحول هذا الموضوع تقول أم كلثوم :

« لعل السبب هو كثرة قراءاتى . . ولأننى قرأت الشعر الجيد وتذوقته . ولولا قراءاتى لحاولت أن أنظم عددا من القصائد ، أعبر فيها عن مشاعرى . . ولكننا عندما نتعلم ، نعرف مكاننا بين العلماء !! ».

وعندما توفى الشيخ أبو العلا محمد ، غنت أم كلثوم فى حفل أقيم إحياء لذكراه . غنت بصوت يتمزق ألما وهى تذرف الدموع . . لقد مات أستاذها ، ومثلها الأعلى فى الغناء .

وعن أيامه الأخيرة روت أم كلثوم :

« أصيب الشيخ أبو العلا فى أيامه الأخيرة بالشلل ، فتعذر عليه أن يغنى وأن يلحن . وعندما كنت أذهب لزيارته ، كنت أشاهده وأنا مكتوفة الأيدى ، لا أستطيع شيئا أمام عذاب ذلك الرجل الذى أحب الغناء والموسيقى والطرب ، والذى أوجد أنغاما ساحرة . لقد تألم كثيرا ، لكنه حاول بالرغم من ألمه أن يغنى لى. وعندما يخونه صوته أثناء الغناء ، كان يقول لى « أنت عارفة أنا عاوز أقول إيه ؟ » كان يحيا من أجل

جمال ألحانه ، لن أنسى هذا كله ، وسأحفظ له جميل الذكرى . »

وعند تشييع جنازة الشيخ أبو العلا محمد ، لم يشيعه منْ أهل الفن سوى أم كلثوم وأخيها خالد ، وأستاذ الكمان سامى الشوا . تقول أم كلثوم :

« لم أستطع أن أبقى فى بيتى . . ولم أحتمل أن أذهب إلى بيته . . كنت أحس أن البيوت لا تتسع لحزني . » .

فضل الشيخ أبو العلا :

ومن روايات أم كلثوم عن الشيخ أبو العلا :

« علمنى الشيخ أبو العلا أن أفهم الكلام قبل أن أحفظه وأغنيه . فقد كنت أردد الكلام بلا فهم ولا اهتمام . بدأت الكلمات غير المفهومة تتعثر فى فمى ، وترفض الخروج من بين شفتى . وفى إحدى الليالى كنت أغنى مع أفراد الفرقة :

جل من طرز الياسمين فوق خدك بالجلنار
واصطفى ذا الجمان الثمين معدنا من لماك العقار

ووقفت كلمة « ذا الجمان » فى فمى ، ورفضت الخروج من بين شفتى . وتركت باقى أفراد الفرقة ينطقون الكلمة وحدهم .

تصور أبى أننى نسيتها ، فلم يعر الأمر اهتماما . ولما تكرر وقوفى عند نفس الكلمة مرة أخرى ، أحس والدى بأن المسألة ليست مسألة نسيان . فسألنى لم لا أغنى هذه الكلمة ؟

فأجبت :

ـ مش عارفة أقولها ازاى ؟ موش عارفة أقولها وأنا بضحك ، ولا أقولها وأنا مكشرة؟ أنا مش فاهمة معناها إيه !!

وكانت هذه هى المرة الأولى التى أواجه فيها والدى بما تعلمته من الشيخ أبوالعلا ، وهو أنه يجب أن أفهم المعانى قبل أن أغنى الكلمات . . » .

غنت أم كلثوم العديد من القصائد والموشحات الدينية، وبقى لنا من ألحان أبو العلا محمد تسع قصائد، سجلتها على أسطوانات، هى :

١ ـ الصب تفضحه عيونه (أحمد رامى) على أسطوانة جراموفون عام ١٩٢٤ (أول قصيدة تغنيها أم كلثوم لأحمد رامى، وأول ما لحن الشيخ أبو العلا من كلمات رامى .

٢ ـ وحقك أنت المنى (الإمام عبد الله الشبراوى) جراموفون عام ١٩٢٦ .

٣ ـ أقصر فؤادى (أحمد رامى) جراموفون عام ١٩٢٦ .

٤ ـ مثل الغزال نظره (صفى الدين الحلّى) جراموفون عام ١٩٢٦ .

٥ ـ يا آسى الحى (إسماعيل باشا صبرى) جراموفون عام ١٩٢٦ .

٦ ـ أفديه إن حفظ الهوى (ابن النبيه المصرى) جراموفون عام ١٩٢٨ .

٧ ـ أمانا أيها القمر المطل (ابن النبيه المصرى) جراموفون عام ١٩٢٨ .

٨ ـ قل للنجيلة بالسلام تورعا (؟) جراموفون عام ١٩٢٨ .

٩ ـ أكذب نفسى (بكر بن النطاح الحنفى) أوديون ١٩٣١ .

١٠ ـ كم بعثنا مع النسيم سلاما (إبراهيم حسنى ميرزا) لم تسجل .

أم كلثوم تغنى فى القاهرة :

يروى مدحت عاصم :

« . . دعيت مع والدتى إلى حفل بقصر آل عبد الرازق . وكانت هذه هى أول مرة يتردد فيها صوت أم كلثوم بالقاهرة . كان حفلا خاصا جدا ، أقامه آل عبد الرازق خصيصا لأم كلثوم، كى يفتحوا أمامها أبواب بيوتات القاهرة . وقد حضر هذا الحفل نخبة من رجالات مصر، أذكر منهم : عدلى باشا يكن ، وعبد الخالق ثروت ، وعلى ماهر ، وأستاذ الجيل لطفى السيد. ومازلت أذكر استخفاف الحاضرين بهذه الفتاة الصغيرة القد ، التى ترتدى ثوبا ريفيا بسيطا جدا ، يتوارى خجلا أمام الأزياء التى

ارتدتها سيدات الحفل . وسارت الفتاة بين صفوف المدعوين ، وشالها الأسود يخفى كل رأسها ، ما عدا عينيها وفمها ، حتى وقفت فى المكان المخصص لها ، وبدأت فى الشدو.

وفى البداية انصرف المدعوون عنها إلى أحاديث جانبية لاهية . وما كاد صوتها الرخيم يخرج من فمها ، حتى صمتت الأحاديث القريبة منها . وبعد لحظات كان المكان يسيطر عليه الصمت العميق . وشدت أم كلثوم بكلمات دينية تقول : «مولاى كتبت رحمة الناس عليك فضلا وكرما» .

وما كادت تستطرد فى الغناء حتى أقبلوا عليها بكل جوارحهم ، وقد أصبحو ا كالسكارى . . وما هم بسكارى . وتعالت أصواتهم من كل جانب تطلب منها أن تعيد وتكرر . وكانت دهشتى بالغة لا تتناسب وسنى الصغير ، لأنى كنت أرى أغلب المطربين والمطربات ، الذين يدعون إلى مثل هذه الحفلات ، يغنون لأنفسهم فقط . منذ ذلك اليوم ، بدأت أهتم بهذه الفتاة الصغيرة . . الكبيرة والعظيمة المستقبل . » .

تروى أم كلثوم :

« حدث عام ١٩٢٣ ، أنها كانت تغنى فى كازينو « البوسفور » ، وقد ارتدت العقال و البالطو الأزرق . فبدأت كعادتها تنشد واحدة من المدائح النبوية مطلعها : «سبحان من أرسله رحمة» . وإذا ببعض أفراد الجمهور يطلبون منها أن تتوقف عن غناء هذه القصيدة ، وأن تغنى واحدة من الأغانى الهابطة السائدة آنذاك . ولما لم تلتفت واستمرت فى الإنشاد ، إذا عدد من الحاضرين يصعدون إلى المسرح ويسدلون الستار» .

كانت القاهرة حينذاك تعيش فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى ، وكانت الأغانى المترددة فى المقاهى والمسارح يسودها جو من الانحلال والهبوط والإسفاف فى كلماتها وألحانها وأسلوب أدائها . . فكان من الطبيعى أن تتعرض هذه البدوية الصغيرة لبعض من المخاطر .

ويروى أن أم كلثوم تعرضت، ذات ليلة، لمستمع مخمور يشهر فى وجهها مسدسا، ويطالبها بالتوقف عن الغناء « الغم » . . وأن تغنى أغنية من أغانى « الفرفشة » .

ظلت أم كلثوم فى القاهرة ثلاث سنوات تغنى دون فرقة موسيقية، على مسرح كازينو « البوسفور » بميدان المحطة شتاء، وعلى مسرح صالة « سانتى » بحديقة الأزبكية صيفا . فى هذه الفترة كانت تغنى قصيدة

«وحقك أنت المنى والطلب   وأنت المراد وأنت الأرب »

وموشحة : « جل من طرز الياسمين » . وقصيدة :

«لى لذة فى ذلتى وخضوعى   وأحب بين يديك سفك دموعى»

وقصيدة : « غيرى على السلوان قادر » وقصيدة : « أماناً أيها القمر المطل » . وكان أغلبها من ألحان الشيخ أبو العلا محمد، بما فى ذلك قصيدة : « أراك عصى الدمع» . ومن بين ما كانت تغنيه كذلك قصيدة لأحمد رامى مطلعها :

« الصب تفضحه عيونه   وتنم عن وجد شجونه »

وهى من تلحين الشيخ أبو العلا أيضا .

من البيت إلى القصر :

فى عام ١٩٢٦، اتجهت أم كلثوم اتجاها جديدا فى أسلوب غنائها . وكونت أول تخت لها من الفنانين، محمد العقاد (قانون) سامى الشوا (كمان) محمد القصبجى (عود) محمود رحمى (إيقاع)، وبعض المذهبجية(*) . وفى العام نفسه تغير زى أم كلثوم من بالطو وكوفية وعقال، إلى ملابس حديثة . . . وكانت حريصة على أن ترتدى رداء الرأس المعروف باسم « التول » . كما انتقلت من « بيت الدرى » بشارع قوله بحى عابدين، إلى عمارة « بهلر » المطلة على قصر عائشة فهمى بالزمالك .

(*) وكان من بينهم شقيقها خالد .

واستمرت أم كلثوم فى إقامة حفلاتها الشهرية يوم الخميس الأول من كل شهر على مسارح « سينما فؤاد » و « البسفور » و « حديقة الأزبكية » و « رمسيس » .

وفى هذا العام أيضا ، تعاقدت معها شركة أسطوانات « أوديون » ، فسجلت أسطواناتها الأولى بأجر قدره مائة وخمسون جنيها عن الأسطوانة الواحدة . واعتبرت أم كلثوم هذا المبلغ صفقة رابحة ، وبدأت تفكر فى بناء فيلتها بشارع أبو الفدا بالزمالك ، والتى انتقلت إليها عام ١٩٣٦ .

كان والد أم كلثوم قد تقاعد عن العمل ، منذ أن استقلت أم كلثوم بحفلاتها بمصاحبة تختها الجديد . وأخذ يدير أعمالها ويتعاقد باسمها . . ويقبض الذى تتقاضاه . . ويعطيها مصروفها الخاص . . ويوفر المبالغ الباقية . . وبذلك تمكنت أم كلثوم من شراء مائة وخمسين فدانا فى قريتها . . زادتها فيما بعد إلى مائتى فدان . وبنت هناك بيتاً من طابقين بالطوب « اللبن » ، أقام والدها فيه إلى أن توفى عام ١٩٣٢ .

بعد أن افتتحت أم كلثوم بصوتها محطة الإذاعة المصرية عام ١٩٣٤ ، تعاقدت معها الإذاعة على إحياء حفلين فى الشهر، يذاعان من إستوديوهاتها ، فى مقابل أجر قدره خمسة وعشرين جنيها عن كل حفل . . وتغنى فى كل حفل وصلتين . . كل وصلة تستغرق نصف ساعة . ثم ارتفع هذا الأجر عام ١٩٣٦ ، فبلغ أربعين جنيها ، ثم زاد إلى خمسين جنيها ، على أن تستغرق كل وصلة أربعين دقيقة .

اقترحت أم كلثوم على الإذاعة أن تقيم لها حفلات خارجية ، ينقلها الميكرفون من أحد مسارح القاهرة . والمعروف أن أم كلثوم كانت لا تشعر بالاندماج أثناء غنائها داخل الإستوديو . . كانت تفتقد جمهورها . واقترح أحمد رامى أن يحضر تسجيلاتها من داخل الإستوديو ليستمع إليها ، ويعبر عن طربه وإعجابه بالإيماءات والإشارات . . وانطلقت أم كلثوم فى الغناء داخل الإستوديو، لمستمع واحد ، هو شاعر الشباب الذى أطلق على نفسه لقب «سميع الغبرا » . وقدمت أم كلثوم أول

حفـل مذاع لها بمسرح دار الأوبـرا ، فى يوم ٧ ينـايـر عام ١٩٣٧ . . وزادت فى هـذا الحفل مـن عدد أفراد العـازفين بفرقتها . وعنـدما تـوفى عازف القانـون الكبير « محمد العقاد » ، حل محله فى فرقة أم كلثوم الموسيقية « عبـد الحميد القضابى » ، ثم« إبراهيم العريـان » ، وبعد ذلك « محمـد عبده صالح» . كما حـل محل ضابط الإيقـاع «محمود رحمى» ، العـازف «إبراهيـم عفيفى » . وأخـذ « كـريم حلمـى » مكان عـازف الكمان «سامى الشـوا » . كما أدخلت آلتين لم تتواجدا مـن قبل فى فرقتها ، هما آلـة النـاى التى قام بالعزف عليها « حسن فاضل » ثم « سيد سالم » . وآلة الفيولنسل التى قام بالعزف عليها « محمـود رمزى » . كما زادت أم كلثـوم على عازفى الكمان «أنـور منسى» و«أحمد الحفناوى» . وكان من بين عازفيها «عبـد المنعم الحريرى» و«أحمد العريان ونجيب رزق الله ومحمود القصبجى» . كما كان يتناوب وظيفة ضابـط الايقاع مع إبراهيم عفيفى كل من« سعيد الموجى» و«صالح الكرانى» .

أول أسطوانة :

وتعتبر أسطوانة قصيدة « أراك عصى الدمع » من أولى أسطوانات أم كلثوم ، وهى من شعـر « أبى فراس الحمدانـى » ولحن عبده الحامولى . وقد سجلتهـا أم كلثوم على أسطوانات أوديون عام ١٩٢٦ ، وهى من مقام البياتى .

وأعاد زكـريا أحمد تلحين هـذه القصيدة فى مقـام السيكاه ، وغنتهـا أم كلثوم عـام ١٩٤٤ ، ولم تسجل .

ثم أعادرياض السنبـاطى تلحينها للمرة الثالثة من مقـام الكرد ، وغنتها أم كلثوم يوم الخميس ٣ ديسمبر عام ١٩٦٤ . وأضيف إلى القصيدة الأبيـات التالية بعد البيت الخامس :

وفيت وفى بعض الوفاء مذلة لفاتنة فى الحى شيمتها الغدر
تسائلنى من أنت وهى عليمة وهل لشج مثلى على حاله نكر
فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى قتيلك قالت أيهم فهم كثر

وقد سجلت على أسطوانة صوت القاهرة .

ومن الملاحظ أن تسجيلات أم كلثوم من الأسطوانات فى العشرينات . كانت أغلبها من الطقاطيق الخفيفة مثل : « يا كروان والنبى سلم » ـ «حبيت ولا بانش على » و « أنا على كيفك » . إلى جانب بعض القصائد الشعرية القديمة مثل : « أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا » و«أمانا أيها القمر المطل » ـ و « أكذب نفسى عنك فى كل ما أرى » .

وبذلك استطاعت بأغانيها أن تواكب موجة الغناء الخفيف ، إلى جانب حرصها على الارتقاء بذوق الجماهير بأدائها لبعض القصائد . . وكان فى هذا أيضا إرضاء لنفسها ولفنها .

ولكن أم كلثوم أخطأت مرة ، بنزولها على رغبة الجمهور، وسجلت لإحدى شركات الأسطوانات أغنية من ألحان الدكتور صبرى النجريدى ، الذى كان يتميز بألحانه الخفيفة المرحة ومطلعها :

« الخلاعة والدلاعة مذهبى من زمان »

ولما طرحت الأسطوانة فى الأسواق ، إذا محبو فن أم كلثوم يلومونها على انسياقها وراء موضة العصر من الأغانى الهابطة الخليعة .

وسارعت أم كلثوم إلى جمع أسطوانات الأغنية من الأسواق ، بعد أن دفعت تعويضا لشركة إنتاج الأسطوانة . ولكنها عادت وغنت الأغنية من جديد ، بعد أن أجرى أحمد رامى تعديلا على الكلمات . . فأصبح مطلعها :

« الخفافة واللطافة مذهبى من زمان » . .

ومن الظواهر اللطيفة ، أن المطربين والمطربات ، والفنانين عموما ، كان لهم العديد

من الألقاب . . فمثلا :

دولت أبيض ، كانوا يسمونها : صديقة العمال

وزينب صدقى ، كانوا يسمونها : صديقة العظماء

ومنيرة المهدية ، كانوا يسمونها : سلطانة الطرب

وفتحية أحمد ، كانوا يسمونها : مطربة القطرين

ومحمد عبد الوهاب ، كانوا يسمونه : مطرب الملوك والأمراء

أما أم كلثوم ، فعرفت باسم : كروانة مصر ـ أميرة الإنشاد والغناء ـ وفيما بعد كوكب الشرق ـ ثم سيدة الغناء العربى .

كانت شركات الأسطوانات والحفلات تهتم بالإعلانات . كما جاء فى عام ١٩٢٨ إعلان عن حفل تقيمه أم كلثوم . . جاء بالطريقة الطريفة الآتية :

تحييكم وتستقبلكم بعد احتجابها الطويل فحيوها ـ
وتطربكم بصوتها الحنون بكل جديد مدهش لأول مرة
بمسرح رمسيس شارع عماد الدين
الآنسة أم كلثوم
على تخت مؤلف من محمد العقاد ومحمد القصبجى وكريم حلمى
أغانى شعرية من نظم شاعر الشباب
الأستاذ أحمد رامى
توجد ألواج حريمى غاية فى الحفظ والصون
فتذكروا ولا تنسوا يومى ٦ ، ٨ سبتمبر سنة ١٩٢٨
توجد مراوح كهربائية كبيرة لجلب الهواء فى داخل التياترو

لقاء أم كلثوم والشيخ سيد درويش :

جاء على لسان محمد على حماد (٦)

« . . فى صيف عام ١٩٢٣ ، كنت أجتاز محنة نفسية شديدة أثر وفاة أمى المفاجئة . . وكان سيد درويش يمر هو الآخر بأزمة نفسية عنيفة أثر حل فرقته الخاصة التى قدم معها رائعتيه شهرزاد والباروكة . . وأعاد درته الخالدة : العشرة الطيبة .

واجتمعنا حزينين . . وقررنا أن نمضى بضعة أيام فى مصيف رأس البر . وكان فى ذلك الوقت، أشبه ما يكون بقرى الريف المصرى الجميل بهدوئه وقلة رواده . . وما يمتاز به من جو ساحر لطيف يناسب الأعصاب المرهقة المشدودة . وتخيرنا فندقا متواضعا ، كان يمتاز بالنظافة والأكل الجيد . . مع الأجر القليل المناسب للنزيلين الكريمين . . المفلسين .

وذات مساء ونحن نتناول طعام العشاء ، لاحظنا جمعا من أصحاب العمائم، لعل عددهم لم يكن يزيد على ثلاثة أو أربعة ، يتناولون عشاءهم على مائدة قريبة . ولفت الأنظار صغير كان يجلس معهم . يلبس العقال فوق بالطو لا يكاد يبين له لون من القدم .

وكان التنافر يبدو شديدا واضحا ، بين وقار هذه العمائم وحركة الصغير النشطة الدائبة . . وسأل سيد درويش صاحب الفندق . وكان قد اعتاد أن يتناول عشاءه معنا تحية منه لنزيله الكريم سيد دروش .

ـ من هؤلاء . . . ؟ وماقصة هذا الصغير الذى معهم !

وقال الرجل :

ـ إن هذه أم كلثوم . . وهؤلاء أبوها وأخوها وخطيبها .

وسأله سيد :

ـ ومن تكون أم كلثوم هذه ؟

ولم يخف دهشته من أن يكون هذا الطفل هو هذه الفتاة . .

وقال الرجل :

ـ إنها مغنية ريفية من قرية قريبة من بلدة السنبلاوين . . وإن أحد نزلاء الفندق من أعيان الدقهلية يعطف عليها . . وقد استقدمها هى وبطانتها حيث نزلوا جميعا فى ضيافته بالفندق . وستغنى الليلة فى صالة الفندق للنزلاء . . ولمن يشاء من نزلاء رأس البر . والدخول بخمسة قروش . وحصيلة الدخل لها ولمن معها . أما نفقات الإقامة فقد تكفل بها وجيه الدقهلية .

وضحك سيد وهو يقول .

ـ الموسيقى ورانا ورانا حتى فى هذا المهجر . نسهر ونسمع وأمرنا لله .

وسهرنا وسمعنا . . سمعنا عجبا . بدأت السهرة ، وكانت قد أعدت (للمنشدين) دكة عالية بعض الشىء ، كالتى يجلس عليها الفقهاء فى المآتم لتلاوة أى الذكر الحكيم .

بدأت الوصلة الأولى . . وفيها أنشدت أم كلثوم أنشودتها المأثورة :

مولاى كتبت رحمة الناس عليك   فضلا وكرم

فالمرجع والمآل والكل إليك   عرب وعجم

ثم فجأة ، إذا بها تغنى : « والله تستاهل يا قلبى » .

وهى ـ كما هو معروف ـ من أشهر أغانى سيد درويش ، ومن أحلاها وأعذبها . وكانت أكثر من مفاجأة لسيد ولى . وتجمع سيد درويش كله فى أذنيه . وبدا عليه ما كنا نلمسه فيه ، عندما تنتابه نوبات الوجد والتصوف . . ولزمت الصمت . . والسمع .

وفى منتصف الأغنية تقريبا ، صمتت الصغيرة . . وتعالى التصفيق من كل مكان يستعيدها ، فأعادت . . وعند نفس المقطع توقفت . وصمتنا مرغمين ، لنعطيها فرصة لتتم باقى الأغنية . . ولكن طال صمتها . ثم بدأت أغنية أخرى . وكان واضحا تماما أنها لا تحفظ من أغنية سيد درويش إلا ما غنت ، وهو لا يتجاوز النصف الأول من هذا اللحن .

ونظرت إلى سيد . . ولم يفتني أن ألاحظ أنه فى قمة الوجد والصوفية . ساهما . . صامتا . . عيناه مشدودتان ناحية الصغيرة . يحملق فيها بنظرة عجيبة ، كأنه يرى شيئا عجبا ، لا عهد له به من قبل .

وانتهت السهرة . . وبدأت الصغيرة تنزل من فوق الدكة قفزا إلى الأرض ، بينما تتحرك البطانة فى وقار واحتشام . وفجأة رأيت سيد يتجه إليها . . إلى أم كلثوم . . يربت على رأسها فى حنان واضح .

وجذبنى سيد برفق ، وأخذ يتمشى فى هدوء على شاطئ البحر ، ولا يزال صامتا . ومضيت معه أنا أيضا صامتا . فقد اعتدنا . . نحن خاصة أصدقائه ، على مثل هذه الحالات . . وتعلمنا أن نلزم الصمت حتى يبدأ هو الكلام .

وأخيرا . . تكلم سيد . . قال وكأنه يتحدث إلى نفسه :ـ

ـ هذه الفتاة سيكون لها شأن كبير فى يوم من الأيام . . إن صوتها جميل طروب . . وأداءها طيب ، بل ممتاز . ولكن ، ليس هذا هو الذى أثار إعجابى وتقديرى لها ، إنها تعيش النغم بكل وجدانها ، وبكل كيانها . إنها لا تغنى اللحن . . هى تعيشه وتحياه . . فى أدائها شيء لست أدرى ما هو ، ولا كيف أعبر عنه . لقد عشت فى صوتها اللحظات النفسية التى عشتها ـ وأنا أضع موسيقاه ، (كان هذا اللحن آخر لحن فى رواية راحت عليك) . وجاءنى ، لحظة بدأت أمسك بكلمات اللحن وأهُم بوضع موسيقاه ، نبأ وفاة أختى فى الإسكندرية . وكانت أعز إخواتى ، وأحبهن إلى قلبى . فعشت فى الألم الموجع المرير . وظهر فى موسيقى اللحن صدى هذا الحزن العميق الذى كنت أعيشه . فخرجت الموسيقى كأنها دموع وآهات . ومن يسمع تسجيلى لهذا اللحن فى الأسطوانة التى سجلته فيها ، لن يخفى عليه أننى كنت أبكى وأنا أسجله . فقد عشت أثناء التسجيل نفس اللحظة التى عشتها عند التلحين .

والليلة عشت هذه اللحظة مرة أخرى ، وأنا أسمع أم كلثوم . هذه الفتاة سيكون لها فى يوم من الأيام شأن كبير » .

أم كلثوم والملحن الهاوى :

وفى عام ١٩٢٤ ، تعرفت أم كلثوم على ملحن هـاو، هو طبيب الأسنان الطنطاوى الدكتور أحمد صبرى النجريدى ، الذى يمكن اعتباره امتدادا للشيخ أبو العلا محمد . كان الطبيب الهاوى ملحنـا جيدا مجتهدا ، وقد لحن لأم كلثوم ما يقـرب من أربع عشرة أغنية، سجلـت جميعها على أسطوانات . . كما لقنهـا النجريدى العـزف على العود . والذى يستمـع إلى ألحان الدكتور النجـريدى، يظـن أنها من تلحين الشيخ أبـو العلا محمد، لشدة تـأثره بصديقه الشيـخ أبو العلا . وقد بلـغ الدكتور النجريـدى فى « كم بعثنا » و « مالى فتنت » قمة عالية فى فن التلحين .

والأغانى التى لحنها الدكتور النجريدى لأم كلثوم والمسجلة بصوتها هى :

١ ـ مونولوج : خايف يكون حبك (أحمد رامى)
٢ ـ طقطوقة : الخلاعة والدلاعة
٣ ـ طقطوقة : الفل والياسمين والورد (أحمد رامى)
٤ ـ طقطوقة : أنا على كيفك (أحمد رامى)
٥ ـ طقطوقة : شفت بعينى (أحمد رامى)
٦ ـ طقطوقة : يا ستى ليه المكايدة (أحمد رامى)
٧ ـ طقطوقة : يا كروان والنبى سلم
٨ ـ طقطوقة : التقل ليه يا مالك قلبى
٩ ـ مونولوج : طلع الفجر ولاح
١٠ ـ مونولوج : الحب كان من سنين (أحمد رامى)
١١ ـ مونولوج : والله ما حدش جنى غير قلبى ده علىّ
١٢ ـ قصيدة : كم بعثنا مع النسيم (إبراهيم حسنى ميرزا)
١٣ ـ قصيدة : لى لذة فى ذلتى (نصر الله الدجاجى)
١٤ ـ قصيدة : مالى فتنت بلحظك (على الجارم)

والدكتور أحمد صبرى النجريدى من الأفراد القلائل الـذين عملوا بالفن من أجل الفن فقط . واعترفت أم كلثوم فى لقاءات عديدة بالدور الهام الذى لعبه د . النجريدى فى حياتها الفنية .

داود حسنى :

ومن ملحنـى أم كلثوم داود حسنـى ، الذى تخرج على يديـه كبار الفنـانين أمثال : أسمهان ـ وعبد المطلب . وليلى مراد وغيرهم . حيث غنت أم كلثوم العديد من الأدوار فى الفترة مـا بين عام ١٩٣٠ ـــ ١٩٣٢ ، وتم تسجيـل بعـض هذه الألحان بصـوت أم كلثوم منها :

١ ـ دور شرف حبيب القلب (أحمد رامى) مسجلة على أسطوانة جرامفون ١٩٣٠ .
(وهو أول ألحان داود حسنى لأم كلثوم) .
٢ ـ دور يوم الهنا حبى صفا لى (أحمد رامى) مسجلة على أسطوانة جرامفون ١٩٣١ .
٣ ـ دور البعد علمنى السهر (أحمد رامى) مسجل على أسطوانة جرامفون ١٩٣١ .
٤ ـ طقطوقة جنة نعيمى (؟) مسجلة على أسطوانة أوديون ١٩٣١ .
٥ ـــ دور حسن طبـع اللى فتنـى (كـامل الخلعـى) مسجـل على أسطـوانة جـرامفـون ١٩٣١ .
٦ ـ دور روحى وروحك فى امتزاج (حسن والى) مسجل على أسطوانة أوديون ١٩٣١ .
(وهو من مقام طراز جديد) .
٧ ـ دور كل ما يزداد رضا قلبك (؟) مسجل على أسطوانة جرامفون ١٩٣١ .
٨ ـ دور كنت خالى لا حبيـب يهجر (كامل الخلعى) مسجل على أسطـوانة جرامفون ١٩٣١ .
٩ ـ دور يا فؤادى إيه ينوبك (أحمد رامى) مسجل على أسطوانة أوديون ١٩٣١ .
١٠ ـ دور يا عين دموعك فى الغرام يشفينى (أحمد رامى) مسجل على أسطوانة أوديون ١٩٣٢ . (ولم تطبع الأسطوانة) .

١١ ـ دور قلبى عرف معنى الأشواق (كـامل الخلعى) مسجل على أسطوانة جرامفون ١٩٣١ .

* * *

الصراعات الفنية :

تقول الدكتورة نعمات فؤاد (٦)

كان الصراع الفنى من ١٩٢٠ ـ ١٩٣٠ صاخبًا . . ولم تكن أم كلثوم طرفا بارزا فى هذا الصراع ـ على الأقل فى أوله ـ فقـد كانت صغيرة لا تلحظها العين . فقد حدث فى عام ١٩١٨ أن أخذ جلسـاء فاطمة قدرى التى كـانت يومئذ مطربـة ذائعة الصيت ، يتحدثون عن فتاة مسكينة اسمها أم كلثوم ! فتاة يقولون عنها إنها تغنى ، وإن لها صوتا لا بأس بـه ، ولكنها لا تغنـى كما يغنى الناس . بـل هى (تولـّـد) للنبى عليـه الصلاة والسلام ، وتنشد الأناشيد فى موالد الريف ، وتلبس العقال . .

وأخذ الحاضرون من الفلاحة الصغيرة مادة للتندر والضحك والتسلية : مرة يطلقون النكات على اسمها ، ومـرة يتساءلون عن سر العقـال ، ومرة يتساءلون عـن الجبة التى تلبسها وتـزعم أنها (بالطو) ، وهـل هى بنت أم ولـد ؟ وترتفع القهقهات مهما كـانت النكتة سخيفـة . وبينما هم يضجـون بالضحـك ، طلعت عليهـم مطربتهـم فاطمـة قدرى ، فهبوا وقوفا : وأدوا التحية . وبعد أن اطمأن بهم المجلس ، استأنفوا الحديث . فتساءلت الست فـاطمة من طرف أنفها من هى أم كلثوم هـذه ؟ فقصوا عليها قصتها من جديد . فارتسم على وجهها تعبير من تتذكر شيئا سمعت به قبلا .

ـ آه . . لقد سمعت بالبنت أم كلثوم ، و (لا مانع عندى) من أن أراها . وسرعا ما تطوع (المطيباتية) بإحضارها ، لكى تحظى بمقابلة المطربة المشهورة فاطمة قدرى .

وحين جاءت (البنـت أم كلثوم) ، دخلـت تتعثر فى خطـواتها . . ففيها انكسـار المساكين من أهل الريف ، وفيها حياؤهم ، على الرغم من أنها كانت قد قطعت شوطا فى القرى والمحافظات . ولكن القاهرة وأهلها فى أعين الريفيين شىء آخر .

ـ قربى . قالت فاطمة قدرى .

(قرّبت) أم كلثوم . . تقدمت من ست الحسن والجمال ، حائرة مرتبكة ليس لديها ما تقوله للست فاطمة قدرى التى تعرف مصر كلها قدرها .

ثم انصرفت أم كلثوم ، بعد أن أعطت المجلس مادة أغزر للسخرية والتفكه والضحك . أما هى فلعلها كانت تحلم باليوم الذى تصبح فيه مثل فاطمة قدرى .

وحتى بعد قصة فاطمة قدرى ، كانت (نعيمة المصرية) من رأيها أن « منيرة المهدية لا يُعلى عليها . . وأن فتحية أحمد لا بأس بها ، على ألا تغنى من أنفها . أما أم كلثوم فكانت تقول إنها لا تتوقع لها مستقبلا . . ! ! »

البنت المفعوصة :

وروت مجلة مصر الحرة عام ١٩٢٩ عن أم كلثوم ، « أنه حدث ذات مساء أن صعدت سيدة إلى المسرح ، قبل أن تغنى أم كلثوم ، تطلب مقابلتها . . وتصادف أن كانت أم كلثوم نفسها أول من قابلت السيدة المذكورة . ودار الحديث الآتى :

قالت السيدة :

ـ عاوزه أقابل أم كلثوم

ـ علشان إيه ؟

ـ نفسى أشوفها وأبوسها .

ـ عمرك ما شفتيها ؟

ـ لأ . . بس معجبة بها من صوتها فى الفونوغراف . . ونفسى أشوفها .

ـ طيب ياستى ، أنا أم كلثوم ! بوسينى بأه واخلصى !

ولكن السيدة نظرت إلى أم كلثوم من (تحت لفوق) باحتقار وقالت :

ـ حضرتك بتضحكى علىّ ؟ ليه ؟ هو أنا مجنونة علشان أصدق أن أم كلثوم مفعوصة كده ؟ !

ورأت أم كلثوم من عينى السيدة أنها حقيقة غير مصدقة أن الواقفة قبالتها هى أم كلثوم ، فقالت لها :

ـ صحيح أنا كنت بس باضحك ! أنا يا ستى خدامة أم كلثوم .

ـ طيب وهى فين ؟

ـ فى أودتها ، دلوقت بتلبس علشان حتطلع تغنى بعد خمس دقائق . وأظن أحسن حضرتك ترجعى تقابليها بعد ما تغنى الوصلة الأولى ، علشان يكون عندها وقت تقعد معاك شوية .

وانصرفت السيدة على ذلك .

ثم رفع الستار، وظهرت أم كلثوم مع تختها وغنت الوصلة ! وطبعا ، رأتها السيدة ، وعرفت أنها أم كلثوم ، وليست خادمتها . ولكن السيدة لم ترجع ؛ فقد خجلت أن تقابل أم كلثوم واكتفت برؤيتها على البعد . »

وشربت أم كلثوم ووالدها الكثير من المقالب . من بينها ، أن متعهدى الحفلات كانوا يتفقون مع والدها على الحفلة بسبعة جنيهات ، ويتفقوا مع المنظم عند بوابة المسرح بعدم إدخال أى واحد قبل رفع الستار بدقائق . وعندما يرى والد أم كلثوم المسرح خاويا يضطر إلى تخفيض الأجر . . بعد ذلك يبدأ الناس فى الدخول ، ويهرب المتعهد .

ومن الروايات أيضا ، أنه حدث أن تعاقد والد أم كلثوم على أن تحيى ابنته حفلة فى كازينو البوسفور . ووضع متعهد الحفلة « مسيو فيتاسيون » صورتها فى الإعلانات . ولم تكن صورها قد نشرت من قبل فى الصحف أو المجلات . غضب الوالد ، وبكت أم كلثوم . . وهددوا بعدم إحياء الحفل . . واضطر المتعهد ، إرضاء للفنانة ووالدها الرجعى ، إلى إعادة طبع الإعلانات ، مع تقديم الاعتذارات والترضية الكافيين .

وقد روت أم كلثوم أنها فى ليلة ٢٣ أغسطس عام ١٩٢٧ ، عندما كانت تؤدى وصلتها الغنائية فى كازينو البوسفور . . فوجئت بالجمهور يخرج من المسرح . . حتى

بقيت وحدهـا تغنى . وعندما سألـت عن سبب خروج المستمعين ، عـرفت أن سعد زغلول قد مات . فامتنعت عن الغناء فترة طويلة حدادا على وفاة الزعيم الكبير . . ثم غنت بعدها قصيدة من نظم الشاعر أحمد رامى تقول :

إن يغب عن مصر سعد ، فهو بالذكرى مقيم .

وقد بيعت هذه الأسطوانة . . وضربت رقما قيـاسيا فى المبيعات . . وقامت صداقة وطيدة بين صفية زغلول (أم المصريين) وأم كلثوم ، استمرت حتى وفاة صفية .

بين منـيرة المهديــة وأم كلثـوم :

عندما جاءت أم كلثوم إلى مصر . . لم يكن طريقها مفروشا بالورود . . هذه القروية الساذجـة التى جاءت لتـدخل ميدان الفـن . . وتقف جنبـا إلى جنب مع المطـربات العتيدات ، وعلى رأسهن منيرة المهدية وفتحية أحمد . ولكن أم كلثوم استطاعت بصوتها الجميل ومـوهبتها الموسيقية الكبيرة ، فى فترة قصيرة ، أن تصعد إلى قمـة الهرم . . فذاع اسمها ، وأصبحت حديث الناس . أحست منيرة المهـدية بأن العرش الغنائى بدأ يهتز من تحتها . النـاس تتحدث عن أم كلثوم . . وجمال أدائها ، فـأرادت أن تستمع إليها بنفسها . يقـول مصطفى أمين : « . . فى إحدى الليـالى ، ارتدت منيرة المهديـة ملاءة لف سوداء . ووضعت على وجهها برقعا ، وارتدت شبشبا فى قدميها ، حتى تبدو كبنات البلد . وصحبت معها الممثل محمد بهجـت ، وذهبت إلى مسرح رمسيس حيث كانت تغنى أم كلثوم . واشترت منيرة تذكرتين فى أعلى التياترو (وهى أرخص مقاعد المسرح) .

وجلسـت منيرة المهديـة تسمـع ، والجمهور يهلـل . . وشهـدت سيطرة أم كلثـوم العجيبـة على المستمعين ، وهى تتحكـم فيهـم بصـوتها الخلاب ، تجعلهم يـرقصـون فى مقاعدهم ، ويتمايلون على نغماتها ، ويهبون واقفين مصفقين لها ، هاتفين بحياتها .

ولم تحتمل منيرة المهدية أن تحضر أكثر من الوصلة الأولى من غناء أم كلثوم ، فتركت المسرح غـاضبة سـاخطـة ، على غباء الجمهـور وجحـوده ، وقلـة ذوقه . وعـادت إلى

عوامتهـا فى النيل ، وهى تكاد تجن سخطـا وغضبا . وأخذت تفكر كيـف تقضى على هذه الفتـاة الصغيرة التى جـرؤت على عرشهـا ، وأصبحت تهدد سلطـانها ؟ وهداهـا شيطانها إلى حيلة غريبة للقضاء على المنافسة الخطيرة .

فى ذلك الوقت ، كانت تصدر مجلة فنية اسمها مجلة « المسرح » . وكانت من أوسع الصحف انتشارا فى تلك الأيام . وكان صاحبها شابا اسمه الأستاذ « محمد عبد المجيد حلمى » الناقد الفنـى لجريدة كوكب الشرق . وكان ناقدا عنيفا لاذعـا ، له قلم يشبه الحراب . وأسلوب أقوى من المدفع الرشاش . وكان شـابا صعيديا بريئا ، لم تسبق له غزوات أو مغامرات فى عالم العشق والهوى والغرام .

وقـررت منيرة أن توقـع هـذا الصحفى الشـاب فى غـرامهـا . ودعته إلى الغـذاء فى عوامتهـا . وبعد ساعـة واحدة ، كان يجلس تحت قـدميها يبادلها عبـارات العشق ، وهى تلقى البترول على قلبه المشتعل فتندلع النيران . .

وخـرج الصحفـى الطيب مـن عنـدهـا ، وهـو مقتنـع بأنـه حبهـا الأول والأخير. وأصبحت مجلة المسرح هى مجلة منيرة المهدية سلطانة الطرب فى مصر والشرق . وبدأت مجلة المسرح تهاجم أم كلثوم (*) حيث قـالـت (فى ١٧ ينـاير عـام ١٩٢٧) : « . . أم كلثوم لها مئـات العشاق ، ولا أدرى مـاذا يحبون فيها . . فهـى ليست على شـىء من الجمال ولا خفة الروح ولا سلامة الطبع .

وفى ٣١ يناير كتبت نفس المجلة تقول :

« . . إن أم كلثوم نجمها قد غرب » .

وفى ٣١ يناير أيضا كتبت مجلة المسرح تقول :

(*) كانت المجلات الفنية تترصـد كل حركة للنجوم . وما لا يعجبها من هـذه الحركات تشهر به فى تندر وسخرية أو نقد مر . وكـانت الجرائد أيضا تتخصص فى فن مطربة معينة تمتـدحها وتتابع أخبارها . إن تهليل الصحف لفنانة لم يمنع الكاميرا أن تلهث وراء أخرى .

«إن أم كلثوم قدمت ـ وهى بنت صغيرة ـ شكوى لمحكمة السنبلاوين مؤداها أن شابا من القرية اغتصبها . » ووعدت بنشر نص الحكم . ولم تنشره أبدا ، لأنه كان خبرا مختلقا بالطبع . وكاد هذا الخبر ينجح فى إعادة أم كلثوم إلى قريتها ، فقد قرأه والدها الشيخ إبراهيم ، وأقسم ألا تبقى أم كلثوم فى القاهرة يوما واحدا . وأمر بحزم الحقائب . وركعت أم كلثوم على قدمى والدها ، تتوسل إليه أن تبقى فى القاهرة بعد أن بزغ نجمها . ولكن الأب أصر على موقفه . . لولا أن صديقا للأسرة حضر فى تلك اللحظة، واستطاع أن يقنع الشيخ إبراهيم بالبقاء فى القاهرة (الملعونة) .

واستمر الهجوم على أم كلثوم . وتقول د. نعمات فؤاد (٦) :

« كانت الفترة بين ١٩٢٦ ــ ١٩٣٠ تتميز بعملية تصفية للمطربات الكثيرات اللاتى ظهرن فى العقد الثالث من القرن العشرين . تصفية كانت نتيجتها أن انحصرت المقارنة وإعجاب المعجبين بين ثلاث :

منيرة المهدية ـ فتحية أحمد ـ وأم كلثوم . »

* * *

المنافسة بين المطربات الثلاث :

فى مقال بمجلة الناقد (العدد الثالث الصادر فى ١٧ / ١٠/ ١٩٢٧) للأستاذ حماد ، يقارن فيه بين أم كلثوم ومنيرة المهدية ، وفيه يقول :ـ

« . . منيرة المهدية لها صوت رنان جميل النغم . وقد وهبتها الطبيعة حنجرة سليمة الأوتار صافية نقية . لولا أنها لا تحسن استخدامها . وما قيمة التبر لدى من يجهله والماس عند من لا يفرقه من الزجاج البراق ؟ فهى لا تتحكم فى نبرات صوتها، ولا تستطيع أن تضبطها وفق ما تشاء . وكثيرا ما تستمع منها فتلمس الاختلاف بين ما تنشد وما تعزفه الموسيقى ، وكان هذا أوضح عيوبها . وإذا كانت لا تستطيع إصلاحه، فمرجع ذلك إلى الطبيعة وإلى ما أخذت به هى نفسها بين الإهمال وعدم التدرب الصحيح على أيدى أساتذة الفن . تستمع لها وهى تغنى ، فيطير بك صوتها

الجميل ولكن أى حسن ينقله إليك وأى شعـور يبثه فيك ؟ لا شىء . . فلا تلمس فى إنشادها عاطفة من عواطف القلب . ولا يمكـن أن يكون له وقع لديك أكثر من وقع منظر عـادى تأخـذه عيناك فيمـر. . . دون أن يبقى منـه فى دخيلة وجـدانك بقيـة لها قيمة . إنها تغنى لتطرب أذنـك وحاسـتك الماديـة فقط ، أما دون ذلك ، فتطلـبه عند أم كلثوم ، أو فتحية أحمد . »

وفى جريدة السائح سنة ١٩٢٦ (التى تصدر فى مدينة نيويورك) :

. « أم كلثوم المغنية الذائعة الصيت مازالت تتقـدم فى عالم الغناء منذ وصلت القاهرة فتاة ساذجة حتى أصبحت اليوم سيدة المغنيات وأميرة المطربات بلا منازع » .

يقول عبد الفتاح غبن (مجلة الإذاعة ١٩٧٥) :

«كانـت فى صوت سلطانـة الطرب منيرة المهـدية « بحة جنسيـة » يطير لها صواب الناس . . . وكان الطرب فى أغلبه تقريبا يعبر عن الجنس بوضوح شديد . ولكن هذه الفتاة الجديدة « أم كلثوم » جاءت ولا رصيد لها إلا صـوتها ، منذ جاءت تغنى قصائد دينية ، على طريقة المشايخ ، ووراءها أهلها يرتدون العمم ، وهى نفسها تلبس البالطو الأزرق فوق جلابيـة بسيطة . . وعلى رأسها عقال . كـانت جميلة نعم . . ولكـن هذا الإطار من حولها بما فيه ثيابها ، لم يكن يسمـح لها بأن تخاطب الناس إلا بشىء واحد : هو صـوتها ، ولأن صوتها كان خارقـا ، فقد أصبح لها بسرعة أنصـار كثيرون . . ولكن غالبية جمهور الطرب رفض أن يستسلم للمطربة الجديدة « أم كلثوم » . وخلال عامين فقط ، كانت « أم كلثـوم » تنازع « منيرة المهدية » على عرش الطرب . . بعـد أن كونت فرقة موسيقية من أشهر العازفين . . ولكن هـذا لم يكن غاية طموحها . . لقد فرضت بهذه الفرقـة الموسيقية أسلوبها الجديد ــ الذى لم يكن فيـه (هنك ولارنك) ـ وفـرضت أيضا ذوقها فى اختيار الكلمات التى تشدو بها . . »

وعن مجلة الصباح (العدد ٨٧ السنة السادسة ١٩٢٧) :

« جمعت حفلة المواساة على مسرح الأوبرا بين منيرة المهديـة والمطربة أم كلثوم . وقد

وصف محمود زكى باشا هذه الحفلة، وقارن بين منيرة وأم كلثوم وما سمعه من الجمهور عنهما فى هذه الحفلة، فقال :

« . . أجادت منيرة فى جميع أدوارها، فخلبت عقول السامعين . . وساعدها صفاء صوتها ، وتأثير نبراتها، وشدة شغف الناس بها، وسرورهم من تمثيلها ، وإعجابهم برخامة صوتها فقد فاقت حد الإبداع ، وظهرت مواهبها السامية وقدرتها العجيبة، وارتفعت إلى منزلة (أعظم مغنيات الشرق) . أما عظيم تأثير صوتها فى النفوس فلا يستطيع القلم وصفه . وكفى شاهدا على ذلك أن أم كلثوم، مع شهرتها، لم تستطع أن تأتى بعدها فى تلك الليلة على أقل شيء من الإجادة . . بل فشلت وأسدل عليها الستار وهى فى حالة يرثى لها . »

وعن مجلة الصباح أيضا (العدد ١٠٣ السنة السادسة سنة ١٩٢٧)

« . . كانت منيرة المهدية تغنى فى حفلة أقيمت فى (بوفيه لونابارك بمصر الجديدة)، فطلب إليها الجمهور أن تغنى أنشودة « إن كنت أسامح وأنسى الأسيه » التى تغنيها أم كلثوم . فأنشدت منيرة الأنشودة بين تصفيق الجمهور ، وتذوق الجمهور طعما شهيا للفن فى إنشاد منيرة لهذه الأنشودة .

وتحدث الجمهور بحسن صناعة منيرة ذات الحنجرة القوية والصوت العذب الحنون فى إلقائها و إجادة إنشادها وضبط ألحانها ، مع أن منيرة لم تكن قد عملت (بروفات) لالقائها قبل هذه الليلة .

وأيضا غنت (إن حالى فى هواها عجب) ونجحت منيرة فى إنشادها نجاحا لم تنجحه المطربة التى نظمت ولحنت هذه الأنشودة خصيصا لها . »

وعن المجلة الموسيقية جاء :

« . . ظلت منيرة تتربع على عرش الطرب، إلى أن ظهرت أم كلثوم التى كانت المؤهلة الوحيدة لمنافستها من حيث الصوت القادر ـ القوى ، ومن حيث لون الغناء ،

وهو اللون الكلثومى الذى يتسم بالكلمة النظيفة، والغزل العفيف، والبعد لا عن الإباحية، بل عن كل ما ينافى الذوق السليم . »

وبدأ القراء يشمون ريح فشل منيرة الفنى، حتى لتقول مجلة المسرح فى وقت مبكر (١٩٢٦) :

« . . لم يتوقع أحد لمنيرة المهدية، يوم كوّنت فرقتها فى العام الماضى، أن تفشل هذا الفشل الذى لا تعرف كيف الخلاص منه . . »

ويقول أحمد رامى :

« . . مطرب القصائد الأصيل لابد أن يكون فقيها ابن فقيه . ومن هنا تفوقت أم كلثوم . فقد حفظت القرآن . . وهى طفلة، ثم أنشدت المدائح والموشحات وقصائد « أبو العلا » . وقد قوّم هذا لسانها تقويما لم يتيسر لغيرها . لأن أهم ركن فى القصائد سلامة النطق ونماذج الحروف وإخراج المعانى . وقد برعت أم كلثوم فى هذا كله براعة فائقة . . . ـ حين يقول الذين سمعوا منيرة المهدية إنها صوت فائق، ولكنها كانت عامية النطق والإشارة، أمية المفاهيم . فضلا عن أن منيرة ليس عندها «القفلة» التى هى ألزم الأشياء للمطرب» .

ويقول سامى الشوا :

« . . إن منيرة المهدية صوت جميل بلا فن، ولكن أم كلثوم صوت تسانده أذن موسيقية مرهفة ذواقه ناقدة وعالمة بأصول فن الموسيقى » .

ويقول رياض السنباطى :

« إن منيرة المهدية صوت قوى بلا فرامل » .

وكان متعهد حفلات أم كلثوم هو يوسف حسين (الفتوة البورسعيدى) الذى كان لا يقيم حفلة إلا بعد أن يحضر عددا من الفتوات لحراسة الساهرين فيها من أى مشاغب .

وذات حفلـة ، كانـت أم كلثـوم فى « كازينـو الكوبـرى الأعمـى » (مكان فنـدق شيراتون القاهـرة اليوم) . انتشرت الملصقات على كل جـدران الأحياء الراقية ، تـدعو الجمهور لسماع الصوت الساحر . وهو الأمر الـذى أزعج سلطانة الطرب . فأرسلت مجمـوعة مـن عمالها لتخـريب السهـرة . وحمل العمال معهم مسحـوقـا كيمائيا يسبـب الحكاك (بودرة العفريت) . وكانت مهمة عمال منيرة أن يرشوا هذه البودرة على جمهور أم كلثوم . وهكذا كان . . وتحولت سهرة الطرب إلى سهرة هرش .

ولكـن أم كلثـوم استمــرت فى التـألق . وكـذلك استمــرت سلطـانة الطـرب فى محاربتها بمختلـف الوسائـل المشروعـة واللامشروعــة . ولكـن ذلك العـداء لم يدم . فقد شعــرت منيـرة بأن فــن أم كلثوم لا يقـاوم . فكانــت الهدنة ، ثم الصلـح الذى توّج بلقاء فى عوامة منيرة . . ثم تكررت اللقاءات .

. . مضت الأيام وانقطعت منيرة المهدية عشرين سنة عن الغناء . وفى عام ١٩٤٨ قررت العـودة ثانيا إلى المسرح لتمارس نشـاطها الفنى من جـديد . فاستـأجرت مسرح كازينو أوبرا وقدمت أعمالها الفنية من مسرحيات قديمة لمدة ثلاثة شهور . »

وقد قوبلت عودة منيرة بالدهشة والإشفاق . فعامل السن والتطور الذى حدث فى فترة انقطاعها أثرا على الأعمال التى قدمت . وبذلك لم تحقق النجاح الذى كانت تهفو إليه . وكتب محرر مجلة دنيا الفن (العدد ٨١ فى ١٣ / ٤ / ١٩٤٨ : لا أدرى الباعث الذى حدا بها مـن التبتل والعبادة إلى العودة إلى المسرح . فـإن كانت تنشد المجـد فقد توجها على مدى نصف قرن أو يزيد . وان كانت تبغى الثروة فقد فاتها القطار » .

ويقول مصطفى أمين :

« . . ذات مساء اتصلت بـى أم كلثوم تليفونيا ، وقالت لى : إننـى أدعوك معى فى حفل سـاهر . اشتريت بنـوار فى حفل منيرة المهديـة . وأنا أريد أن أشجعهـا وأصفق لها .

وألحت أم كلثوم إلحاحا عجيبا أن أصحبها . وذهبنا . . وغنت منيرة المهدية وياليتها

ما غنت . كان صوتها أشبه بالاسطوانة المشروخة . فقد صوتها حلاوته وبحته ورخامته وجاذبيته . كانت أقرب إلى ملكة محنطـة فى تابوت ترى فيها الماضى الخالد . . ولا تجد من أثر الحاضر سوى التراب .

وكـانـت أم كلثوم تلهـب يـديها بـالتصفيق ، وتـزغـدنـى فى كتفى لأشـاركهـا فى التصفيق . وخيّل إلىّ أننا وحدنا الذين كنا نصفق . وأن الجالسين فى الصالة انهمكوا فى الحديث عن ذكريات سلطـانة الطرب التى مكثت مصر تردد أناشيدهـا وأغانيها أكثر من خمسة عشر عاما . فقدت عيناها بـريقها الفتان . . وظهرت التجاعيد تملأ وجهها بقسوة ووحشية . وانطفأت روحها التى كانت تملأ المسرح حيوية .

لم تكن منيرة المهدية . . بل كانت شبح منيرة المهدية . »

وجاءت نفـس القصة بأسلـوب روائى مختلف فى حديث أدلـت به الفنانـة زينب صدقى لمجلة الكواكب :

« . . منيرة بعد ما اعتزلت ييجى (بخمستاشر سنة) . . طلع فى دماغها ما أعرفش إيه اللى طلّعه . . إنها ترجع للمجد ثانى ، ترجع لعرش السلطانة . . سلطانة الطرب وكان حقها راجعت نفسها فى العملة دى . . لكن ما حدش نصحها .

الحقيقة أم كلثـوم كانت حـزينة . . لأن السلطانـة فى القرار ده مسكينة ، ويـومها كتب محمد التابعى مقالا بعنوان « الذين أوتوا المجد وبددوه » . الحقيقة أن محمدًا كان قاسيا على منيرة اللى كـانت مهدية . وكـان نفسنا تفضل مهديـة . . وتتقبل نفسيا أن كل وقت وله أذان لكنها كانت عاوزة ترجع أمجاد الماضى (بالعافية) .

كانت منيرة فى سن السبعين ، طلعت على المسرح شهرين واتقفل سنين . أعادت (الغندورة) رواياتها ولكن بعد أن أصبحت لا (غندورة) ولا (سنيورة) .

دعتنا أم كلثـوم فى البنوار أنـا وأنور أحمد والتـابعى . .(اللى فى النقـد ما يعـرفش أبوه . . حتى لو وصوه) . وكان هذا فى الأربعينات .

كان هناك من يصطادون فى المياه العكـرة ، أوعزوا إلى منيرة (الغلبانة) أن أم كلثوم تخاف على عرشها من أن تخطفه السلطانة منها ، وأنها تغار منها وتخشى رجوع فنها مرة أخرى .

واتصلـت بها أم كلثوم تليفـونيـا وقالـت لها : أنـا أتمنى لـك الـرجوع لمجـدك . . متصدقيش اللى يتقـال ، وكلنا ولادك . ردت منيرة وهى مرتبكة : خلاص يـاثومه . . العداوة بيننا بقت معدومة . البنوار باسمك وأنا مصممة على العزومة .

ليلتهـا ذهبنا . ثـومه والقصبجـى وأنـور أحمد وأنا ، وإذا بمنيرة تغنـى بصوت فيـه حشرجة . راح الجمال وراح الطـرب . . وانفجـرت أم كلثـوم فى بكـاء ونـواح . حاولت إسكاتها . طلب منى القصبجى تركها حتى ترتاح ، وعندما مسحت دموعها ، قلت لها هامسة :ـ

« كلنا حنعجـز . . دوام الحال من المحـال . . لكن لما نعجـز بإذن الله بعـد عمر طويـل . . ربنا يديم علينـا نعمة التمييز والتقـدير . . ما نعملش فى روحنـا كده . . نقعد فى بيوتنا وكرامتنا مصانة » .

وشعرت سلطانة الطرب بأنه بات عليها أن تترك الساحة لأم كلثوم . وتفرغت منيرة لهواياتها ، وفى مقدمتهـا تربية الحيوانات الأليفـة ، كالقطط والكلاب . كـان يشاركها هذه الهواية الرجل الذى عاش معها قرابة ربع قرن من الزمن . . وهو إبراهيم كمال . . آخر أزواجها ، والذى كان يعمل سكرتيرا للنحاس باشا .

وفى حديـث بمجلة الكواكب أجـراه الفنان عبد الحليـم حافظ مع منيرة المهـدية ، قالت عن أم كلثوم :

« أم كلثوم كـانت بتعجبنى خـالص أيام كـانت بتغنى حـاجات الشيخ أبـو العلا محمد . لكن لما بقت تغنى الحاجات بتاعة اليومين دول ما عجبتنيش » .

والمعـروف أنه عنـدمـا اشتـد التنافـس بين منيرة وأم كلثـوم ، حـاولت منيرة إغـراء القصبجى للتلحين لها . . فلم يمتنع ؛ فقـد كانت المهدية آنذاك سلطـانة الطرب . غير

أن فشلها فى أداء ألحانه المتقدمة على صوتها جعله ينصرف إلى التلحين لأم كلثوم .

وعودة لحديث عبد الحليم حافظ مع منيرة المهدية :

« حكت منيرة . . أن الست أم كلثوم جاءت لزيارتها مع القصبجى . ولما قدمت لهم الكازوزه قامت أم كلثوم سابت القزازه اللى قدامها . . وشربت من القزازة اللى قدام القصبجى . فأنا ساعتها اتضايقت وحبيت أوريها أن الدار أمان . . فأخذت القزازة اللى قدامها وشربت منها ، عملت نفسى أنى أخذتها غلط . »

وجاء حديث للأستاذ حسين عثمان ، فى مجلة الكواكب ٢٥ فبراير سنة ١٩٧٥ تحت عنوان :ـ

« حديث عن أم كلثوم ـ ومنيرة المهدية » :

وقف والد أم كلثوم عقبة فى طريق تحول ابنته ، من منشدة تنشد المدائح النبوية ـ إلى مطربة تغنى الأغانى العاطفية . وذات يوم ، اتفق الأديب يونس القاضى على أن يتولى مهمة إقناع والدها بأن تتحول إلى مطربة ، ويرجع سر تحمسه لهذه الفكرة إلى أنه اختلف مع السيدة منيرة المهدية . وقرر على أن يعمل على إظهار مطربة جديدة تنافسها على عرش الطرب . كان يعرف مدى خوف منيرة من هذه الصبية الصغيرة التى تملك من المواهب الفنية ما يجعلها ـ أى منيرة . تعمل لها ألف حساب .

وفعلا ، سافر يونس القاضى إلى بلدتها « طماى الزهايرة » بصحبة بعض الأصدقاء الصحفيين الذين ناصبوا منيرة المهدية العداء بسبب غرورها الشديد ، وقابلوا والدها ، وتولى الشيخ يونس القاضى الحديث حول تحول ابنته أم كلثوم إلى الغناء . ولكن الشيخ إبراهيم ثار وغضب ، ورفض بشدة ، مؤكدا أنه وهب أم كلثوم لتلاوة القرآن وإنشاد السيرة النبوية فقط .

لكن الشيخ يونس القاضى لم ييأس . ولما عاد إلى القاهرة راح يتحيَّن الفرصة لمعاودة إقناع الأب . وتصادف أن جاءت أم كلثوم مع والدها إلى القاهرة فى مولد سيدنا

الحسين ، فذهب الشيخ يونس القاضى مع سيد درويش ، الذى كان قد سبق أن سمعها عدة مرات. وحاول الاثنان إقناع الأب ، وعرض سيد درويش أن يقدم لها الألحان مجانا ، ولكن الأب رفض مجرد مناقشة الفكرة . وطلب من سيد درويش ألايعاود زيارتهم مرة أخرى .

وتألم سيد درويش غاية الألم من سوء معاملة والد أم كلثوم له ، وهو الملحن الذى يخطب وده كبار الفنانين والمطربات والمطربين .

وظل يونس القاضى يلح على والد أم كلثوم ، حتى وافق على أن تغنى قصائد عبده الحامولى. فغنت أغنيتها المشهورة « وحقك أنت المنى والطلب ». وكانت بداية موفقة. فسرعان ما تقدمت أم كلثوم واشتهرت ، وطغت شهرتها على منيرة المهدية سلطانة الطرب . فقد كانت أم كلثوم تتمتع بذكاء نادر، واستعداد طيب للعلم ، فزودت نفسها بثقافة أدبية وفنية واسعة . فى حين بقيت منيرة تعتمد على حلاوة صوتها وروعة جمالها . وعشاق فن أم كلثوم ، الذين كانوا يحرصون على حضور حفلاتها الشهرية فى المسرح الذى تغنى فيه، كانوا يتمنون معرفة ماذا يحدث وراء الستار وبين الكواليس. ذلك أن أم كلثوم كانت تضرب حصارا من حديد حول الكواليس، ولا تسمح إلا لقلة قليلة من الأصدقاء المقربين بالدخول إلى هذه الكواليس .

. . . كان يحلو لأم كلثوم أن تجعل الأغنية سرا لا تذيعه إلا قبل رفع الستار ببضع دقائق ـ وكان المذيع المنوط به وصف الحفلة يقف قريبا منها ، وعلى وجهه علامات اللهفة على معرفة هذا السر . وعندما يقرب الوقت، يتقدم المذيع نحو أم كلثوم . فتلقاه باسمة ، وتهمس فى أذنة باسم الأغنية التى تنوى إنشادها ـ فيجرى بسرعة نحو الميكروفون ليذيع هذا الخبر على جمهور المستمعين فى البيوت والأندية . ويبقى جمهور الصالة فى لهفة لمعرفة اسم الأغنية ، حتى تبدأ الفرقة الموسيقية فى عزف المقدمة الموسيقية للأغنية . فيتعالى هتاف الجمهور وتصفيقه . وكانت أم كلثوم تسعد جدا عندما ترى وقع المفاجأة على جمهور الصالة ، وتشرق على وجهها ابتسامة رائعة .

. . . . . وعندما لمع اسم أم كلثوم فى منتصف العشرينات ، كان متعهد حفلاتها يبحث لها عن لقب تتميز به عن باقى المطربات ، وخاصة ، بعد أن قدمت منيرة المهدية مطربة ناشئة سمتها أم كلثوم . وكان المتعهدون يكتبون اسم أم كلثوم مصحوبا بكلمة « الأصلية » . . لكن متعهد حفلاتها فى ذلك الوقت واسمه يوسف حسنين ، رأى بأن يكتب اسمها فى الإعلانات . . « الأسطى أم كلثوم » . وكان لقب «أسطى » فى ذلك الوقت ، هو أقصى ما يطمع فى الوصول إليه فنانة أو فنان . وهو لقب مشتق من لقب أستاذ . وكان سلاطين آل عثمان ينعمون به على الفنانين والأدباء . فلما ظهرت الإعلانات باسم الأسطى أم كلثوم ، غضبت منيرة المهدية ، وأوعزت إلى أحد المؤلفين بأن يضع لها أغنية تقول فيها « أنا الأسطى والأسطى أنا » . وكانت تغنيها كلما اجتمعت فى حفلة تعلم أن أم كلثوم موجودة فيها .

ومن الطريف ، أنه حدث بعد ذلك أن سجلت إحدى شركات الأسطوانات بعض أغنيات أم كلثوم ، وقدمتها على أنها « الست أم كلثوم » ، فغضبت أم كلثوم ، واتهمت الشركة بأنها حرمتها من لقب « الأسطى » إرضاء لمنيرة المهدية .

وظلت أم كلثوم متمسكة بلقب « الأسطى » عدة سنوات ، إلى أن جاء وقت اقتنعت فيه بأن اسمها ومكانتها لاتحتاجان لأى لقب من الألقاب .

فتحية أحمد وأم كلثوم :

كانت فتحية أحمد من أكبر الأصوات الغنائية التى عاصرت أم كلثوم . وكانت تعرف « بمطربة القطرين » ، لقضائها بعض الوقت فى مصر ، والجزء الآخر كانت تقضيه فى الشام . وصفت بأنها مطربة إدارية . . بمعنى أنها تطوّع صوتها كيفما تشاء . وكان صوتها يجمع الكثير من الدرجات التى يمكن أن تشكلها كما تريد . كانت فتحية أحمد تمتاز بفنها الذى أدخلت عليه الكثير من الفن التركى . . هذا الفن الواسع الأطراف ، البعيد المدى . .

جاء فى تعبير عنـه (أنه بحر . . لا تستطيـع أن تسير سفينة فيه إلا إذا كـان ربانها مـاهرا . .) . والعجيـب أن فتحية أحمد لم تكـن تفهـم قليلا أو كثيرا مـن هذا الفـن التركى ، وإنما كـانت تدخـل فى بعض ألحانها نغمة بسيطة مـأخوذة عن لحن تـركى . وفتحية أحمد كانت تمتاز بجمال وقوة صوتها وشهرتها الكبيرة فى عالم الغناء . . .

وعندما جاءت أم كلثوم إلى مصر . . ذاع صيتها وأصبحـت منافسة لمنيرة المهدية ، التى كانـت تعتلى عرش الغناء ، وكانـت أم كلثوم لا تحيى ليلة تنشـد فيها إلا ويمتلئ المكان بالناس . .

وجـاء فى مقـال بمجلة المسرح (١٤ يـونيـه ١٩٢٦) بقلـم جمال الـدين حـافـظ عوض . . بعنوان « أم كلثوم وفتحية أحمد » :

« لعـل أهم مشـاغـل النـاس ، طوال هـذه المدة ، الضجـة القـائمة بين المغنيـات والمفاضلة بينهن . ولعل أبرز المغنيات وأولهن فى هذا الميدان ثلاث : منيرة المهدية ، أم كلثوم ، فتحية أحمد . ونحن فى كلماتنا هـذه سنترك منيرة جانبا ، داعين الله أن يلبسها ثوب العافية ، وأن يحفظ لمصر البلبل الغريد . أما أم كلثوم وفتحية أحمد ، فهما موضوع حديثنا ، والحديث عنهما يطول . والمسألة فى عرفى تنحصر فى أمر واحد بسيط »

كانت أم كلثوم ومازالت إلى اليوم ، موضوع إعجاب الناس من الفنانين والموسيقيين وأصحاب الآذان السليمة . . أما فتحية أحمد ، فجـاءت من الشام ، واشتغلت فى أول أمـرها بـالتمثيـل والإنشاد المسرحـى ، فنجحت نجـاحـا باهـرا . ثـم انتهى عملهـا المسرحـى ، ودخلـت ميدان التخـوت والآلات الموسيقيـة . ففتحيـة لها أصدقـاؤهـا ـ وأصدقاء زوجها أيضا . . أصدقاء يملئـون الدنيا صراخا وضجيجا ، مسبحين باسم فتحية أحمد ، ورقـة صوتها . وهم لا يكتفـون بأن تكـون هذه فكرتهم وحـدهـم ، وإنما الغريب أنـك إذا ناقشت واحدا مـن هؤلاء الأنصار ، وأوشكت أن تقنعهـم بالبراهين والأدلة الملموسة المحسومة ، صاح بك قائلا : المسألة مسألة مزاج .

أين هذا الصوت من صوت أم كلثوم ، الذى إذا مـا سمعه شخص له قلب ، فإنه يخفق خفقـانا . . ؟ أين هـذا من صوت أم كلثوم ، الـذى ما استمع إليـه بائس ، إلا وانفتحت أمامه أبواب الرجاء ؟

إن كان لمصر أن تفخر يوما بأن فيها موسيقى ، وأن فيها غناء، فلن تفخر إلا بفتى وفتاة . . صالح عبد الحى وأم كلثوم . إن الحرام ظاهر، والحلال ظاهر . . ومن كانت له أذنان للسمع فليسمع . وروى المخرج الكبير « حسن الإمام » :

« استمرت الأحزاب تاريخا طويلا، شاهـدته بنفسى . . قصة معهد الموسيقى مثلا تبدأ عندما ذهبت أم كلثوم إلى الولايات المتحـدة لتعالج عينيها ، ثم عادت إلى الوطن عام ١٩٤٩ ، وأراد المعهد أن يكرمها . . فأقاموا لها حفلاً كبيرا . . وكانت عروس الحفل فتحية أحمد. وأرادت فتحيـة أن تتحدى أم كلثـوم . . ليس بالكـلام ولكن بـالفعل . فاختارت لحنـا للشيخ زكريا أحمد ، كـان حديث القاهـرة فى هذا الوقت . . وهـو من أوبريت « يوم القيـامة » . . وهذا اللحن من مقام « الزنجران » . ومقـام الزنجران هذا قليل التعامـل معه . . لماذا ؟؟ أنا لا أفهـم كثيرا فى الموسيقى . إن زكـريا لحن لأم كلثوم أغنية فى هذا المقام ، وهى « هو ده يخلص من الله » (بديع خيرى) . وفى أوبريت يوم القيامـة، أعاد زكـريا عشقـه لمقام الـزنجران . . ولحن أغنيـة كان لها دوى . . هـى « يا حلاوة الدنيا ياحلاوة . وقفت فتحية على المسرح ، وكأنها فى حلبة مصارعة أو بوكس . وغنت هذا اللحن . واستمرت فى كلمة يا حلاوة . . وللمرة الأولى، خرجت مطربات الدرجة الأولى عن الشعور، فقد كـان الجمهور دائما يستمع فى صمت واحترام . لكن فتحيـة أحمد أرادت أن تظهـر لأم كلثـوم أنها « أسطة » . ففـى اللحـن كـلام يقـول : «خلوهـا حلوة» . . فشاورت فتحيـة للمستمعين لكى يـرددوا « يا جدعـان » . يعنى حولـت المتفرجين إلى كـورس . كل ذلـك وهى تنظـر لأم كلثوم ،وكـأنها تقول : هـل رأيت؟ إننى مازلت متربعة على عرش الغناء » .

وللحق فـإن فتحية أحمد كـانت طيبة القلـب ، لا تتقن إعـلان الحرب واستخدام

الأسلحة كزميلتها منيرة المهدية .

وفى هذا الحفل نفسه ، غنت فتحية أحمد أحد المواويـل تحيى به أم كلثوم نيابة عن أسرة الفن . . جاء فى كلماته :

النــاس تقـدم تهانيهــا وأنــا جـايــة
جــايـة أبيــع الأزاهــر للجنــاينيــة
أهـدى الطـرب للطرب والـرك ع النيّه
طبع الكريم السماح أمـا القليل يرضيه
لو كنت أفدى يا ثومه الروح داشويه

اشتهرت فتحيـة أحمد بالعقـد اللولى الذى كـانت تحركه بين أصـابعها أثنـاء الغناء (وكأنها تسبح) بينما أم كلثوم اشتهـرت بمنديلها الطويل . فتحية أحمد كـانت قمة فى فن الموال . . كما غنت من ألوان الغناء المونولوج والقصيدة والطقطوقة . وفتحية قامت بدور كليـوباترا أمـام منيرة المهدية ، بعـد استغناء منيرة عـن محمد عبد الـوهاب . كما اشتركـت فتحية بصـوتها مـع أم كلثوم فى أوبـرا عـايدة ، حيـث قـامت بـدور الأميرة «أمنيريس» ، وذلك فى فيلم عايدة (عام ١٩٤٣) .

والمعروف أن فتحيـة أحمد كانـت من أقرب المطـربات إلى قلـب أم كلثوم ، وأنها فى مرضها الأخير لم تجد أكثر حنانا من قلـب أم كلثوم عليها . . فهى التى أمدتها بالمال ، وتابعت علاجها حتى وفاتها .

تقول د . نعمات فؤاد(٦) :

« كانـت مقالات الصحـف واستفتاءات الجمهور ، تـرجح كفـة فتحية التـى كثر القول سنه ١٩٢٦ عن جمعها بين (حلاوة الصوت) و (إحكام القفلة) ، مضافا إليها (قدرة التلحين) . . هكذا ! ولـو أن الصحف كانت لا تثبت على حـال . فإن تهليل الصحف لفتحية لم يمنع الكاميرا ، وفى سنـة ١٩٢٦ أيضا ، أن تلهث وراء أم كلثوم .

فهـى صورة الغـلاف فى روزا اليوسـف التـى نقلت (١ / ١٢/ ١٩٢٦) عـن جريـدة السائح التى تصدر فى مدينة « نيويورك » ، تحت عنوان (أم كلثوم فى صحف أمريكا) : (أم كلثوم المغنية الذائعة الصيت ، ما زالت تتقدم فى عالم الغناء منذ هبطت مصر وهى فتاة ساذجة حتى أصبحت اليوم سيدة المغنيات وأميرة المطربات بلا منازع) .

واستمرت المنافسـة بين الثلاث مطربات . . منيرة - فتحية - أم كلثوم . . وانتهت باعتلاء أم كلثوم عرش الغناء .

التنافس بين أم كلثوم وعبد الوهاب

روى حسن لاشين (١):

« كان التنـافس قـائما دائما بين أم كلثوم وعبد الـوهاب . وعنـدما لحن زكـريا أحمد أغنية « اللى حبـك يا هنـاه » ، وشاع فى الـوسط الفنـى أن هذه الأغنيـة ستكون قنبلـة الموسم ، وأن زكـريا أحمد قد بذل المستحيـل لتكون هـذه الاغنيـة حدثا فنيا جـديدا ، حـاول محمد عبد الوهاب أن يتعرف على اللحـن الجديد قبل أن يظهر فى الجو الفنى . ودعا عبد الوهاب ثلاثة من أصدقاء الشيـخ زكريا إلى تناول الشاى فى محل « سولت» ، ودفع هو الحساب . . وعندما خرجت الشلة مـن المحل طالبها عبد الوهاب بأن تغنى اللحن الجديد ، وغنـت الشلة اللحـــن مأخوذة بدعـوة الشاى من عبد الـوهاب . وقـال عبد الـوهـاب بعد أن سمـع الجـزء الأول مـن اللحـن : « اللحـن درويشـى خالص» . . وقال حسن لاشين ضاحكا : « ما احنا كلنا دراويش ياسى محمد » .

أعطى الشاعر أحمد رامى كلمات مونولوج « سهران لوحدى» إلى محمد عبد الوهاب الذى أبدى رغبتـه فى تلحينه . . وكان ذلك عـام ١٩٤٤ . وقيل إن عبد الوهـاب لحنه فعلا . . ولكنه لم يغنـه لجمهوره . كانت المنافسة خـلال هذه الفترة كبيرة بين أم كلثوم وعبد الوهاب ، كل منهما يرغب فى الزعامة الفنية .

استطاعت أم كلثوم ، بما لها من دلال على أحمد رامى ، أن تستحوذ على كلمات هذا

المونولوج . . وقدمتها إلى رياض السنباطى كى يلحنها . وكان رياض على علم بأن عبد الوهاب يلحن هذا المونولوج ، وخاف المنافسة والمقارنة .

يقول رياض :

« لحنت هذا المونولوج عشر مرات . . كل مرة فى مقام شكل . . أبحث عن المقام الملائم للمعنى . . إلى أن استقررت على المقام المناسب . وخرج اللحن بديعا . غنت أم كلثوم مونولوج « سهران لوحدى » الذى يعتبرمن روائع ما غنت أم كلثوم من ألحانى عام ١٩٥٠ »

وعلى الرغم من هذا النجاح . . ظل رياض متخوفا من عبد الوهاب ، ومن مفاجآته . . كان يخشى أن يخرج عبد الوهاب بلحنه يغنيه لجمهوره . . وربما يتفوق فى تلحينه عليه . لكن عبد الوهاب حتى وفاته لم يغن هذا المونولوج . . وأسدل عليه النسيان .

ومن الروايات التى رويت عن التنافس الفنى الذى كان موجودا بين أم كلثوم وعبد الوهاب ، أنه فى أوائل الثلاثينيات ، كان المسرح هو أعلى الفنون ، وأكثرها بريقا . وكان يوسف وهبى يؤجر مسرحه مرتين شهريا ، مرة لأم كلثوم وأخرى لعبد الوهاب .

محاولة للجمع بين أم كلثوم وعبد الوهاب فى عمل فنى واحد .

روى الصحفى والكاتب الكبير مصطفى أمين :

« تم لقاء فى بيتى بين أم كلثوم وعبد الوهاب ، للاتفاق على تمثيل فيلم عن ألمظ وعبده الحامولى . على أن يمثل عبد الوهاب دور « عبده » ، وأم كلثوم دور « ألمظ » . وكان رأيها الذى أصرت عليه أن يلحن أغانى الفيلم الملحنون السنباطى ـ وزكريا والقصبجى . ولكن عبد الوهاب طلب أن يلحن كل أغانى الفيلم . ولم توافق أم كلثوم إلا على أغنية واحدة يلحنها لها عبد الوهاب . ولم يقدر لمشروع الفيلم بعد هذا أن يخرج إلى حيز الوجود بسبب إصرار عبد الوهاب على موقفه » .

محاولة أخرى قام بها طلعت حرب ، للجمع بين القطبين أم كلثوم وعبد الوهاب فى عمل فنى واحد :

دعا طلعت حرب (باشا) أم كلثوم وعبـد الوهاب أيضا ومعهما الشاعر أحمد رامى إلى لقائه . . ونـاشدهما بحـب الوطـن والفن أن يقبـلا الاشتراك معا فى فيلـم سينمائى غنائى ينتجه ستوديو مصر . وطلب منهما تحديد الأجر الذى يرونه مناسبا لهما .

وأجـاب الطرفـان أن الأجر لا يلعـب دورا هـاما فى هـذا المشروع . فقط طلبـا أن يتساويا فى الأجر بالنسبة للتمثيل . أما ألحان الأغانى فلعبد الوهاب أجر خاص له .

أصر عبد الوهاب على تلحينـه جميع الأغانى . . وعارضت أم كلثـوم هذا الرأى ، وطلبت أن يلحن أغانيها ملحنوها ـ القصبجى ـ زكريا ـ والسنباطى . . مع احترامها لألحان عبد الوهاب . . وأخيرا وافق عبد الوهاب .

وتنبه أحمد رامى لوجـود أغان مشتركة بين البطلة والبطل « الديـالوج » ، وسأل من الذى سيقوم بتلحينه ؟

وبروح ودودة ، قالت أم كلثوم : بالطبع عبد الوهاب إذا كان ديالوج واحد . أما إن زاد . . فيكون الديالوج الثانى لأحـد ملحنيها . وعاد عبد الوهاب يعترض ، فقد رأى فى ذلك مساسا بفنه . وتأزمـت الأمور ، وألغى طلعت حرب فكرة اشتراك القطبين فى عمل فنى واحد .

والمعروف عن طلعت حرب أنه كان يساند الفنانين ، كما كان صديقا لهم .

روى لى أحد المسئولين الكبار لشركة الغـزل والنسيج بالمحلة الكبرى ، أن لأم كلثوم الفضل فى استمرار وجود هذه الشركة . قال المسئول :

«إنه فى عـام ١٩٢٧ دخلت أم كلثـوم على طلعت حرب (بـاشا) فى مكتبـه ببنك مصر، فوجدته حزينا بائسا . سألته :

ـ خير يا باشا . .

فأجابها :

ـ أنا حزين للغاية . . . فاليوم سأدفن بنفسى أحد أبنائى .

ارتبكت أم كلثوم عند سماعها لهذا الخبر . . وأرادت أن تستفسر عن تفاصيل هذا الحادث . .

واستطرد طلعت حرب حديثه قائلا :

حدث إفلاس لشركة الغزل والنسيج بالمحلة . . ومطلوب منى دفع الدين أو حتى جزء منه . . وللأسف ليس لدى من المال ما يمكن به إنقاذ هذا المشروع القيم من الإفلاس .

طلبت أم كلثوم معرفة رصيدها بالبنك . . وعلى الفور أخرجت دفتر الشيكات ، وكتبت شيكا بالمبلغ كله الموجود برصيدها . وبهذا المبلغ ، استطاع طلعت حرب (باشا) إنقاذ الشركة التى تعتبر اليوم علامة حضارية لمصر العظيمة » .

وعلى الرغم من عدم اتفاق الطرفين ، أم كلثوم وعبد الوهاب ، على الاشتراك فى عمل واحد ، إلا أن لقاءاتهما فى المجتمع كانت تجمع بينهما فى آداء بعض الأغانى .

فكثيرا ما كان يطلب منهما الغناء فى المناسبات الخاصة . ومن بين ما روى عن هذه اللقاءات ، أنه فى عام ١٩٤٥ احتفل بعيد ميلاد الأستاذ حسن الأعور . وكان من بين المدعوين : أم كلثوم ، وعبد الوهاب ، وتوفيق الحكيم ، وفكرى أباظة ، والدكتور عبدالوهاب مورو ، وكامل الشناوى ، وصديقته كاميليا ، التى اشتركت بالتمثيل فى س الأفلام السينمائية ، والتى توفيت فى حادث سقوط طائرة . كانت كاميليا رائعة بال ، وكان الملك فاروق ينافس كامل الشناوى على حبها آنذاك . وبدأت أم كلثوم يلها للدعابة فى هجوم تداعب به كامل الشناوى الذى اتهمته بتحيزه للفنانه ميليا . واعترف كامل الشناوى بهذا التحيز . فطالبته أم كلثوم بإلقاء شعر يصف فيه مال كاميليا .

وفعلا نظم كامل الشناوى أبياتا من وحى اللحظة ، قال فيها :

لست أقوى على هواك ومالى
آمل فيك . . فارفقى بخيالى
إن بعض الجمال يذهل عقلى
عن ضلوعى . . فكيف كل الجمال .

وأمسك عبد الوهاب بعوده وبدأ فى تلحين هذه الأبيات الشعرية . . وأم كلثوم بدورها ، أخذت عن عبد الوهاب اللحن وغنته ، واستعاد الحاضرون هذا اللحن مرات حتى مطلع الفجر .

كما جاء فى الروايات أخبار عن لقاء أم كلثوم وعبد الوهاب فى منزل والد الفنان الدكتور أبو بكر خيرت ، الذى اشتهر بإقامة أمسيات يجمع فيها الفنانين والأدباء . وفى إحدى هذه الجلسات غنت أم كلثوم وعبد الوهاب معاً ثنائية سيد درويش « على قد الليل ما يطوّل . »

أم كلثوم نقيبة للموسيقيين :

كانت أم كلثوم تتوق إلى إقامة نقابة . . وكذلك رغبة محمد عبد الوهاب . وقد كان من أصدقائها الدكتور محمود أحمد الحفنى (رائد التعليم الموسيقى فى مصر) وعبد الله بك أباظة (وكيل وزارة الاقتصاد) . وكانت وزارة الشئون الاجتماعية لا تجيز إقامة نقابتين . وقد ساعدوها فى إقامة النقابة . وكان بالطبع بعض من العازفين ينضمون إلى عبد الوهاب ، وبذلك لم ينضموا إلى النقابة . .

يروى الفنان أحمد الحفناوى :

« . . قررنا إقامة حفل لزيادة موارد النقابة المالية . . فكنا نمر أنا والقصبجى ومحمد بخيت (سكرتير النقابة) لتوزيع تذاكر الحفل . فمررنا مثلا على نادى محمد على وجروبى . وعرضنا على محمد عبد الوهاب أن يغنى ، كما ستغنى أم كلثوم ، فوافق . . ولكن عندما أردنا تحديد ميعاد الحفل تراجع عبد الوهاب عن موافقته

للغنـاء . وعليه فقـد اجتمعـت أم كلثوم بمجلـس إدارة النقابـة ، وقـرر المجلس عـدم التعامـل مع عبد الـوهاب ، إلا إذا حدد ميعـادا للحفلة وأعلن مـوافقته على الاشتراك فيها .

وعندما أصر عبد الوهاب على عدم الغناء ، قالت له أم كلثوم :

ـ طالما أنك مش عايز صوتك يغنى . . ادفع فلوس . .

فوافق ودفع ألفى جنيه . . قالت أم كلثوم لمحمد بخيت سكرتير النقابة :

روح اصرف الشيك فى الصباح الباكر بسرعة . . قبل ما يرجع فى كلامه . واجتمع مجلس الإدارة مرة أخرى ، وألغى القرار السابق بعدم التعامل مع محمد عبد الوهاب .

أقيمت الحفلة فى مسرح ليتروريا ، وكان دخلها كبيرا . . فقد كانت النقابة فى هذه الفترة عام ١٩٤٨ أغنى نقابة موجودة . . .

ولكن بعد قيـام الثورة ، فوجئنا بأحد رجـال الثورة يسألها عن الأجر الـذى تتقاضاه فرقتها منها . ولما عرف هذا الرجل المبلغ . . قال للفرقة : لابد أن تثوروا على أم كلثوم . .

وأثناء اجتماع الجمعيـة العموميـة للنقابـة . . احتد أحـد العازفين مـع أم كلثوم فى الحديث . فـأمرت بخروجه مـن الاجتماع . ومن هنا بـدأ الأعضاء يتضايقون مـن قوة شخصيتها .

اجتمعت الجمعية العمـومية ليقيلوا أم كلثوم مـن منصب النقيب . وقد بلـغ ذلك أنور السادات المشرف على الإذاعـة وقتذاك ، فجاء السادات والتقى بعـدد من أعضاء مجلس الادارة . . فشكوا إليه من معاملتها مع الأعضـاء بقسوة . فطيب خاطرهم وقال لهم .

ـ من حقكم أن تعملوا أى حاجـة تجاهها . . ولكن لاتنسوا أنها كان لها الفضل فى تأسيس و إقامة النقابة ، فيجب أن تنصبوها رئيسة شرفية للنقابة .

وأثناء اجتماع المجلس للنظر فى موضوع خروجها أو التمرد عليها . قدمت أم كلثوم استقالتها من منصب النقيب .

الفصـل الثـانى

ملحنو أغانى أم كلثوم

فى بدايـة حياة أم كلثـوم الفنية لم يكن لها ألحان خـاصة بها . . كـانت وهـى طفلة صغيرة ، تغنى مـن ألحان والدها الشيـخ إبراهيم ، كما كانـت تؤدى القصائد الـدينية والتواشيـح التى كـانت تحفظهـا كما هى بكلماتها ولحنهـا وطريقـة تقديمهـا . . والتى أخذتها عن المقرئين والمرتلين فى الموالد .

تتلمذت على يد المطرب الكبير الشيخ **أبو العلا محمد** . . وحفظت أغانيه، وأدتها فى حفلات عـديدة ، كما سجلتهـا على أسطوانـات . وبرعـت أم كلثوم فى أداء ألحان الشيخ أبو العلا محمد ، كعادتها منذ أن بدأت تغنى . وقد سبق الكلام فى هذا الصدد .

وتعرفـت أم كلثوم على ملحن آخر، هـو الدكتور أحمد صبرى النجريـدى ، وكان طبيباً للأسنـان فى طنطا . وكان أول من لحن لها أغـانى خاصة بها . وقـد سبق عرض للألحان التى تغنت بها أم كلثوم .

ثم جاء **محمد القصبجى** الذى أخذ بيـد تلميذته . . فمهد لها طـريق النجاح . . أخذت أم كلثوم عنه الكثير . . ولازمها القصبجى فى فرقتها حتى وفاته .

ومن ملحنى أم كلثوم داود حسنى الذى غنـت له ، فى الفترة ما بين عامى ١٩٢٧ - ١٩٣٤ العديد من الألحان ، منها عشر أدوار .

أما الشيـخ زكريـا أحمد ، فكـان قـد تعـرف إلى أم كلثـوم فى قريتهـا ، فى بـدايـة حياتهـا الفنيـة . . ولازمها فى حفـلاتها . . وقدم لها العـديد مـن ألحانه ، اختتمهـا بأغنية « هوه صحيح الهوى غلاب » .

ومن ملحنـى أم كلثوم فـريد غصن الـذى غنت له لحنـا واحدا هـو « وقفت أودع حبيبى» من كلمات أحمد رامى ، وذلك عام ١٩٤٤ .

ومنذ عام ١٩٤٥ ، انضم رياض السنباطى إلى ملحنـى أم كلثوم . ثم بدأت فنانتنا تتعامل مـع الملحنين الشبان ، أمثال : محمد الموجى ، وكمال الطويل ، وبليغ حمدى ، والشيخ سيد مكاوى .

وفى نهايـة حيـاة أم كلثـوم الفنيـة ، تـم اللقـاء بين القمتين ، أم كلثـوم ، ومحمـد عبدالوهاب . . .

لقاء أم كلثوم ومحمد القصبجى :

يقول القصبجى :

« أول مرة سمعـت فيها أم كلثوم ـ ولم أكـن أعرفها من قبـل ـ كانت فى أواخـر عام ١٩٢٣ . وكانت تغنـى قصائد وطقطوقة لإبراهيـم فوزى مطلعها : « فى غرامـك ياما شفت عجايب » .

وتعرفت على أم كلثوم بعد ذلك بسنة ، (أى عام ١٩٢٤) . ومنذ ذلك التاريخ لم أفترق عنها . وقـد عرفنـى بها أبى . فقد كـان من أصدقـائه ، متعهد حفـلات الغناء «الشيـخ محمد أبـو زيد » . فصحبنـى لأسمعها ، وأعجبـت بصوتها . وصعـدت إلى خشبة المسرح لأرى عن قرب صاحبة هـذا الصوت الجميل . وحييتها فردت التحية ، دون أن تعرف من أنا .

وفى منتصـف عـام ١٩٢٤ ، وكنـت فى هـذا الـوقـت ألحن لجميـع شركـات الأسطوانات ، ومن بينها شركة أوديون ، كـانت أم كلثوم تسجل فيها بعض أدوارها ، ومعظمها مـن تلحين الدكتور « أحمد صبرى النجـريدى » ، وكـان موسيقيا هـاويا . وكـان مـن بين الأدوار التى سجلتهـا لـه : « أنـا على كيفك » ، و « الفـل واليـاسمين والورد» ، و « مـالى فتنت» ، وغيرهـا . وفى هذا الـوقت ، سجلـت أم كلثوم أغنيـة من تلحينى ، دون أن تعـرف أنها من ألحان مـوسيقى يدعـى القصبجى . وهـى « آل إيه

حلف ما يكلمنيش » . وكنت قد لحنتها للسيدة «نعيمة المصرية » . شعر السيد « ألبير ليفى »، مدير شركة أوديون ، بأن الأمور سوف تتعقد ، فصحبنى إلى منزل الآنسة أم كلثوم فى شارع قوله بعابدين ، وقام بتعريفى إليها قائلا :

« الشيخ محمد صاحب لحن « آل إيه حلف » .

وأسمعتها اللحن على أصوله ، وأعيد تسجيله . وبدأت علاقتى بها ، وتعرفت إلى أحمد رامى . . وألف لها : « إن حالى فى هواها عجب أى عجب » و « إن كنت أسامح» ، وقمت أنا بالتلحين» .

وأخذت أم كلثوم عن القصبجى لحنين ، غنتهما فى حفلاتها ، بالاشتراك مع بطانتها من المشايخ . واللحنان هما : « أنا عندى أمل تنسى اللى حصل » (مقام بياتى) و « م السنة للسنة يا حلو لما أنظرك » (مقام عجم) . ثم خصها محمد القصبجى ببعض ألحانه . . وعهد إلى الشاعر أحمد رامى بنظم أغانيها ، وهى :

- إن حالى فى هواها عجب
- ياريتنى كنت النسيم
- ولحد إمتى حتدارى حبك
- صدق وحبك مين يقول
- أيقظت فى عواطفى وخيالى
- أخذت صوتك من روحى
- صحيح خصامك ولاّ هزار
- متنا فى حبك يا نور العين وجينا
- بحبك وأنت مش دارى
- قلبك غدر بى ورمانى

وسجلت أم كلثوم هذه الأغانى العشر على أسطوانات ، وارتفع أجر القصبجى فى

هذه الألحان عند شركة الأسطوانات ، فزادت من ثمانية جنيهات إلى خمسة عشر جنيها عن اللحن الواحد .

وكان محمد القصبجى قد كوّن لها أول تخت (فرقة موسيقية صغيرة) لتصاحبها فى الغناء ، بدلا من فرقة المنشدين التى كانت ترافقها . وكان هذا التخت يضم أعلام العازفين آنذاك :

محمد العقاد (قانون) ـ سامى الشوا (كمان) ـ محمد القصبجى (عود) محمود رحمى (إيقاع) . واختار القصبجى لها مسرح « دار التمثيل العربى » لتقدم فيه حفلاتها الغنائية ، بدلا من الصالات العادية . . مثال « البوسفور » ـ « وسانتى » . وكان المعروف أن منيرة المهدية تقدم حفلاتها على هذا المسرح . وخشى مدير المسرح من غضب منيرة ، إذا ما سمح لأم كلثوم بالغناء فى مسرحه . ولكن القصبجى استطاع إقناعه . ووقع عقدا طويل المدى بينه وبين أم كلثوم . ومنذ عام ١٩٢٦ و حفلات أم كلثوم تستقطب الجمهور ، رغم ظهور حملات صحفية مغرضة ، قامت بها منيرة المهدية ، عندما أحست الخطر الذى يهدد فنها ، بعد ظهور المطربة الشابة التى بدأت تصعد نحو قمة الغناء . أحست أم كلثوم مدى إخلاص محمد القصبجى لها ولفنها . . فاستسلمت لرأيه . . ونفذت له ما طلب . . واستمر محمد القصبجى يشترك بعوده فى تخت أم كلثوم . . ولم يفارق أغنياتها حتى آخر أيام حياته . كان القصبجى فى هذه الفترة يعتبر ملحن أم كلثوم الأول . . يرافقها فى أسفارها ، ويصاحبها فى جميع حفلاتها التى أحيتها فى سوريا والعراق وفلسطين والكويت وبيروت ، إلى غير ذلك .

القصبجى ودوره فى المونولوج :

وكانت الأغانى التى تؤدى من كبار المطربين والمطربات ، حتى عام ١٩٢٨ ، لاتخرج عن القوالب الغنائية : الموشح ـ الدور ـ القصيدة ـ الموال ـ والطقطوقة .

عاد أحمد رامى من بعثته فى فرنسا . . وجاء بلون جديد من القوالب الغنائية . .

وهو المونـولوج . . وهـو لون من الغنـاء الفردى الرومـانسى ، أعجـب القصبجى بهذا القالب الغنائى الجديد ، ولحن تحفته الفنية التى أصبحت نقطة تحول فى تاريخ الغناء العربى . . وهو مونولوج « إن كنت أسامح وأنسى الأسية » (أحمد رامى) ، وسجلتها أم كلثـوم على أسطوانـات (صوت سيـده) " His Master's Voice " ، بيع منهـا مليون نسخة . . ومنحت الشركة أم كلثـوم ثمانين جنيها ،نظير الغناء . . بينما تقاضى القصبجى خمسة عشر جنيها، مقابل التلحين .

ومما يـذكر، أن شركة الأسطـوانات كانت قـد عرضت على أم كلثـوم أن تحصل على خمسة قروش على كل أسطوانة مباعة . . لكنها رفضت هذا العرض، وفضلت الحصول على الثمانين جنيها . ولو أنها قبلت عرض الشركة لكان مكسبها خمسين ألف جنيها .

يقول المؤرخ الموسيقى محمود كامل [٣] :

لم تكن « إن كنت أسامح » أول محاولـة فى تلحين المونولوج . . فإن لبعض الملحنين محاولات سبقت فى هذا المجال . فقد كان المرحوم الشيـخ سلامة حجازى يقدم ألحانا من هذا اللون خلال فصول رواياته المسرحيـة ، مثل « أتيت فألفيتها ساهرة » و « أتيت الحبيبة فى ليلة وبعد اللتيا وبعد التى » ، وأيضا فى ثنـايا مسرحياته مثل : « أحبابنا زار طيف منكمو ومضـى » فى رواية (تسبا) ، و « شهيدة الـوفاء » و « يا غزالاصـاد قلبى جفنه » من رواية (روميو وجولييت) . ولكـن هذه الألحان كانت أميل فى صياغتها إلى القصيدة .

كما قدم الشيخ سيد درويـش نموذجا للمونولوج فى أوبـريت (راحت عليك) أو (بنت الحاوى) ، وهـو لحن « والله تستاهـل يا قلبـى » ، ولحن الدكتـور أحمد صبرى النجريدى ثلاثة مونولوجات غنائية لأم كلثوم :

- خايف يكون حبك لى شفقه علىّ (أحمد رامى)
- الحب كان من سنين (أحمد رامى)
- والله ما حدش جنى غير قلبى ده علىّ

كما غنى المطرب عبد الوهاب ثلاثة مونولوجات أخرى :

- عايزك تصد وتهجرنى
- شبكتى قلبى يا عينى (أحمد شوقى)
- الصد طال وانت مش راضيه تحنى

ولم يكن «إن كنت أسامح » أول ألحان القصبجى لأم كلثوم من قالب المونولوج . . ولكنه سبق أن لحن لها مونولوجين هما :

« أخــــذت صوتك من روحى وحـزن لحنـك مــن نـوحـى »
و « يـــــاريتنى كنـت النسيـم اللى يــــداعــب شعـــورك »

وكانـت هذه المونولـوجات التى سبقت « إن كنـت أسامح » صـورة بدائية لقـالب المونولوج » .

ابتكر القصبجى أسلوبا فنيا جديدا فى تلحينـه لمونولوج « إن كنت أسامح » جعله نموذجا للتأليف الموسيقى . . ففيه أعطى القصبجى انطلاقة جديدة للآلات الموسيقية التى أصبح لها دور ظاهر بجانب الغناء .

ومن أشهر ما لحن القصبجى لأم كلثوم من لون المونولوج :

- خلىّ الدموع دى لغتى
- الشك يحيى الغرام
- سكت والدمع اتكلم
- خيالك فى المنام حلمى
- خاصمتنى وأنا حيران من أمر الخصام
- انظرى هذى دموع الفرح حالت
- يا غائبا عن عيونى
- ياعشرة الماضى الجميل

وكانت كلها من كلمات الشاعر أحمد رامى . وقد أعجب عبد الوهاب بهذا اللون الجديد ، فنحا منحاه فى التلحين . . . كما أخذه السنباطى أيضا عن القصبجى ، فبدأ فى تلحين المونولوج .

ولما نجح القصبجى فى تلحينه للمونولوج ، أقبلت عليه المطربات يطلبن ألحانا من طرازه . . فلحن لمنيرة المهدية ، وفتحية أحمد وغيرهما . وروى المرحوم « عبده قطر » أستاذ الغناء العربى . . أنه قد بلغ من إعجاب المطربة المهدية بمونولوج « إن كنت أسامح » — وهى فى قمة تألقها وازدهارها ـ أنها كانت تغنيه فى حفلاتها العامة . وأن منصور عوض ـ المدير الفنى لشركة أسطوانات (صوت سيده) أقام دعوى ضد منيرة بسبب غنائها هذا المونولوج . . فاضطرت إلى التوقف عن غنائه .

اهتز الوسط الفنى عندما غنت أم كلثوم مونولوج « إن كنت أسامح وأنسى الأسية » من كلمات أحمد رامى ولحن محمد القصبجى فى موسمها الغنائى لعام ١٩٢٨ . وبالرغم من أن أم كلثوم غنت فى نفس هذا الحفل أغنية « سكت والدمع اتكلم » و«تبيعينى ليه كان ذنبى إيه » وهما أيضا من ألحان محمد القصبجى ، إلا أن مونولوج « إن كنت أسامح » اعتبر فتحا جديدا فى مجال الأغنية العربية ، بفضل الأسلوب الجديد الذى اتبعه القصبجى فى تلحينه . . بإظهار معانى الأغنية ، وترجمة الأحاسيس المؤدية لكلام الأغنية .

دفع هذا الأسلوب الجديد فى التلحين الملحنين المعاصرين ، ومن بينهم كل من محمد عبد الوهاب ورياض السنباطى ، للوقوف ، وتأمل هذا الأسلوب الحديث . . وظهرت ألحان عديدة فى قالب المونولوج من صنع عبد الوهاب والسنباطى ، الذى كان أكثر تأثرا من غيره . فغنى له عبد الغنى السيد مونولوج « شكيت يا قلبى » وأحمد عبد القادر « آه يا قمر وإنت شايف ذلى » (مناجاة عاشق) .

وغنت أم كلثوم روائع من ألحان محمد القصبجى فى أفلامها الخمسة . أما فيلمها السادس (سلاّمة) ، فقد خلا من ألحان القصبجى .

واقترن اسـم القصبجـى باسم أم كلثوم نحـو أربعين عاما . . كـان مخلصا لها . . غيورا على فنهـا . . كان يتلـو بعض الآيات القـرآنية ، وهـى تغنى أمـام الجمهور على خشبة المسرح . . ويدعو لها بالتوفيق . وكان القصبجى يقوم بإدارة فرقتهـا الموسيقية . وهو يعتبر أكثر الفنـانين الذين شاركوا أم كلثـوم فى كثير من الميادين الفنيـة : فى نقابة الموسيقيين ـ وفى أول لجنة استماع بالإذاعة ـ واللجنة الموسيقية العليا (١٩٥٢) ـ ولجنة الموسيقـى بالمجلـس الأعلى لرعـايـة الفنون والآداب ــ وكـان ، وهو فى فـرقة أم كلثـوم الموسيقية ، يؤدى ألحان غيره من الملحنين الذين لحنوا لها بنفس الإتقان الذى كان يؤدى به ألحانه .

وآخـر ما غنتـه أم كلثـوم للقصبجـى « رق الحبيب» (١٩٤٦) . . وحتـى الآن لم يعرف سبـب إقلاع أم كلثوم عن غنـاء ألحان القصبجى ، رغم اعترافها طـوال حياتها بفنه وإمكاناتـه . . كما كانت تشجعه على التلحين للأصوات الأخـرى . . وتطلب منه عرض هذه الأغانـى عليها ، قبل عرضها على هؤلاء المطربـات والمطربين . وكـانت دائما تبدى رأيها فى اللحن . . ومع ذلك ، لم تغن للقصبجـى لحنا بعد « رق الحبيب » رغم محاولات عديدة مـن جهته . . ومن المقربين إليـه ومحبى فنه محمود كـامل الذى روى مايلى :

« عهدت أم كلثوم إلى القصبجى تلحين بعض أغانيها بعد « رق الحبيب » ، ولكن هذه الألحان لم تغنها أم كلثوم . فقد حدث فى عام ١٩٥٤ . أن اختارت أم كلثوم أغنية وطنية من شعر أحمد رامى مطلعها :

« يا دعاة الحق هـذا يومنا » لكى تسجلها بالإذاعة بمنـاسبة أعياد الثورة . وطلبت من القصبجى تلحينها ، وعاد الأمل مـن جديد إلى قلب القصبجـى . . وأحس بأن أبـواب السماء بدأت تتفتـح لـه مرة أخـرى . وتـوجه بقلبـه إلى الله أن يلهمـه التوفيـق والسداد ، وأن تـرضى أم كلثـوم عن هـذا اللحن وتقبـل غناءه ، وبـدأ يلحن كلمات الأغنية . . وكـان من فرط فـرحته ونشوتـه ، كلما انتهى من تلحين مقطـع منها ، حمل عوده وأسرع إلى فيلا أم كلثوم بالزمالك ، يسمعها مـا لحنه . وكانت تبدى له علامات

الرضـا ، فيعود إلى منـزله منشرح الصـدر قريـر العين . وظل هكـذا إلى أن انتهى مـن تلحين نصف الأغنية . وجـاءت أم كلثوم إلى منزل القصبجى لسماع اللحـن ، ومعها الشاعر أحمد رامى . . وكنت رابعهم . وأمسك القصبجى بعوده وراح يغنى اللحن . . وهو يدعو الله فى قرارة نفسه أن يلقى إعجاب أم كلثوم ورضاءها . ولكن أمله خاب ، ولم تقتنع أم كلثوم بلحن الأغنية ، وأشارت عليه بأن يعيد تلحينها من جديد . وحاول القصبجى أن يؤكد لها أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، ولكن دون جدوى . . وعلى ذلك لم تغن أم كلثوم الأغنية .

لم تعهد أم كلثوم بالأغنية إلى ملحن آخر . وإنما اعتذرت عن الغناء كلية . واكتفت بأغنيتها المعروفة « مصر التى فى خاطـرى وفى فمى » التى سجلتها فى العام السابق . . وسـافرت إلى الإسكنـدرية لتقضـى فترة الصيف ، وشـاء القدر أن تكـون الأغنية مـن نصيب المطربة فايدة كامل . »

ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى يحاول فيهـا محمد القصبجى أن يلحن لأم كلثوم بعد أغنية « رق الحبـيب » ، ولا يكتـب له التوفيق . فقد كان مـن المقرر أن نسمع تحفة السنبـاطى « سهـران لـوحدى أنـاجـى طيفـك السارى » بـأنغـام القصبجى . وبـدأ القصبجى فى تلحين الأغنيـة من نغمة جديـدة ، أطلق عليها (ما وراء النهـرين) (*) ، وهى تشبـه إلى حد كبير نغمـة « النكريـز » ، مع تغيير طفيـف فى تسلسل الـدرجات الصوتيـة . ولكن أم كلثوم لم ترض عـن لحن الأغنية . . فسحبت كلماتها مـن القصبجى وعهدت بها إلى رياض السنبـاطى . كما كان منتظرا أن ننعـم بسماع أغنيتين أخريين من الأغانى التى شدت بها أم كلثوم فى السنوات الأخيرة من تلحين القصبجى ، وهما :

نشيد الجلاء « يا مصر إن الحق جاء » شعر أحمد رامـى ، و « للصبر حدود » تأليف عبد الوهاب محمد ، ولكنهما كانتا من نصيب الملحن محمد الموجى .

كان القصبجى متعلقا بأم كلثوم فنيا وروحيا . وقبل وفاته بعامين ، ساءت العلاقة

(*) ودرجاتها صعودا وهبوطا : راست زركوله ـ كرد حجـاز ـ نواه ـ ماهور وتتكون من جنس حجاز نواه وجنس هما يون .

بينهما . . وأضحت علاقة عمل فقط . . ولم يكـن القصبجى يدرى سر هذا الفتور .

ويرجح صديقه محمود كامل أن هذا الفتور جاء لثلاثة أسباب :

أولا: سـوء الحالة الصحيـة للقصبجى فى السنـوات الأخيرة . . وعـدم استطاعتـه حفظ الألحان بدرجة الإتقان التى كان يحفظ بها من قبل .

ثانيا : كثرة شكواه لـزملائه من سوء معـاملة أم كلثوم له . . ويبـدو أن واحدا من هؤلاء الزملاء حمل إلى أم كلثوم صورة غير حقيقيـة ، فصعب عليها أن تسمع مثل هذه الألفاظ ، وهى التى تكن له كل تقدير .

ثالثا : كان القصبجى يصر دائما على الحصول على أجره كـاملا عن الحفلات التى تتبرع بإحيائهـا أم كلثوم ولا تتقاضى عنهـا أجرًا، وتقوم بدفـع أجور الفرقة مـن جيبها الخاص .

يقول المؤرخ كمال النجمى :

« ماذا حدث للقصبجى فى هذه المرحلة الطويلة التى بلغت عشرين عاما تقريبا؟ ! قيل إنه كان فى تلك المرحلة يهمس لأصدقائه بأن أم كلثوم قد أصابته « بعقدة نفسية» ، فلم يعد قادرا على التلحين ، فقد كانت ترفض ما يلحن لها . . لحنا بعد لحن، وتعطى الكلمات التى فرغ من تلحينها لغيره من الملحنين، ليصوغوا لها ألحاناأخرى .

وقالت أم كلثوم للقصبجى :

ـ يبدو يا « قصب » أنك تحتاج إلى راحة طويلة ! !

وارتـاح القصبجـى عشر سنوات كـاملـة . . ثـم أعطته أم كلثـوم كلمات أغنيتهـا «للصبر حدود »، ولكنها لم تقبل اللحن ، وأخـذت الكلمات فأعطتها لمحمد الموجى الذى صاغ منها لحنه المشهور .

ومع ذلـك لم تتخل أم كلثوم عـن القصبجى كملحن ، بـل شجعته على استرداد

قدرته على التلحين لها ، ولكنه لم يستطع استردادها ، وكانت آخر محاولة فى هذا السبيل حين سمعت أم كلثوم لحنا للقصبجى تغنيه سعاد محمد فى حفلة أقيمت تكريما لأم كلثوم، فأعجبها اللحن ، وظنت أن أخاها القديم محمد القصبجى قد استرد موهبته ، فكلفته بتقديم لحن لها يختار كلماته بنفسه . ووجد القصبجى الكلمات الجميلة التى أعجبته ، وسهر الليالى فى تلحنيها، ولكن اللحن لم يعجب أم كلثوم . . وردته إليه » .

وكانت هذه آخر محاولات أم كلثوم مع القصبجى ، وآخر محاولات القصبجى مع أم كلثوم ! !

وبدأ اليأس يدب إلى قلب الملحن الكبير الذى امتنعت مواهبه عن العطاء، بعدما تدفقت طويلا بالعطاء الغزير. فكف عن محاولات التلحين ، ولم يعد يعنيه إلا ملازمة أم كلثوم كرئيس لفرقتها الموسيقية ، يتقاضى عن كل حفلة عشرين جنيها ! ! ولكن حتى رئاسته للفرقة لم تدم له . وبدا بعد ذلك العمر الطويل فى رئاستها كأنه لم يعد قادرا على ضبط أدائها ، وقيادة آلاتها الموسيقية ، وأصابته بلبلة جعلته ينسى بعض أجزاء من اللوازم والجمل اللحنية والكلمات فى هذه الأغنية أو تلك ، فترتبك الفرقة ، وترتبك أم كلثوم على مرأى ومسمع من جمهور حفلاتها .

ولم يكن بد ، فى آخر الأمر ، من أن تعهد أم كلثوم بقيادة فرقتها إلى أعظم عازفى القانون، محمد عبده صالح ، الذى كان أشبه بالكومبيوتر فى حفظ جميع الألحان الكلثومية . . .

وبعد تلك المحاولات الطويلة غير المجدية فى العودة إلى التلحين، ثم بعد عزله عن رئاسة الفرقة الموسيقية ، وتحوله إلى مجرد عازف فى الفرقة ، وهو الملحن ذو التاريخ العريق، واضطراره إلى قبول هذا الوضع غير اللائق لكيلا ينقطع عن مورد رزقه الوحيد. .

بعد هذه التحـولات الأليمة فى حياته، استسلم محمد القصبجـى لليأس ، ووجد فيه راحة مـن النضال العقيم من أجـل العودة للتلحين ، وكان استسلامـه لليأس هو الباب الذى دخـل منه المرض إليه ، فى السنوات الأخيرة من حيـاته . فأصابتـه الذبحة الصدرية، وقرحة الأمعاء ، والصداع الدائم الـذى لا علاج له . وكان فى أخرياته لا يخرج من بيتـه خشية أن يصيبه الإغماء فى الطـريق . ومـع ذلك ، كان لا يتخلـف عن حفلات أم كلثوم، فيراه جمهورها جاثما بعـوده إلى يسارها ، صامتا واجما ، لا يبدو على وجهه تعبير الألم ، ولا تعبير السرور ، كأنه لا يشعر بما يجرى حوله . .

ولم يعد له دور حقيقى فى الفرقـة الموسيقية . فهو إذا شاء، هـز أوتار عوده متابعا أم كلثوم ، وإذا شاء تـرك أوتار عوده صامتـه بلا حراك . وإذا شاء الحالتين لا تعـاتبه ولاتكلفه مالا طاقة له به ، حتى قالت له وقد ملأها الإشفاق عليه :

ـ اسمع يا « قصب » . . إنت تستريح فى بيتـك وتهتم بصحتك ، وأنا أرسل إليك أجرك عن كل حفلة عامة أو خاصة ! . .

استاء القصبجى من هـذه الدعوة الكلثومية إلى تقاعـده ، وقال لها : بـل أعمل معك إلى آخر يوم فى حياتى !! . .

وتركته أم كلثوم يحضر حفلاتها ، ويتخذ مكـانه فى الصف الأول من « التخت » ، لأن أم كلثوم كانت تعتبره أخا لها . ولم تكن تسمح لنفسها بالخروج إلى السينما ، مثلا، مع أحـد سواه . فـالناس إذا رأوهما معـا ، لا يتطرق الشـك إلى أى أحد فى أخـوتهما . وكان ذلك شأنهما حتى بعد زواج أم كلثـوم فى أوائل الخمسينيات ، واستمرا كذلك إلى آخر حياة القصبجى .

ومات القصبجـى فى سنة ١٩٦٦ فى أعقاب عملية جـراحية ، ولكن أعمالـه الفنية الكبيرة بقيت حية لم تمت .

من أشهر ألحان محمد القصبجى لصوت أم كلثوم :

قصيدة	إن يغب عن مصر سعد (رثاء)	أحمد رامى
قصيدة	أيقظت فى عواطفى وخيالى	أحمد رامى
قصيدة	أخذت صوتك من روحى	أحمد رامى
قصيدة	الشك يحيى الغرام	أحمد رامى
مونولوج	إن كنت أسامح وأنسى الأسيه	أحمد رامى
مونولوج	انظرى هذه دموع الفرح جالت فى عيونى	أحمد رامى
مونولوج	أيها الفلك على وشك الرحيل	أحمد رامى
مونولوج	جفاك الحبيب	أحمد رامى
مونولوج	حيرانة ليه يا دموعى	أحمد رامى
مونولوج	خاصمتنى وأنا حيران فى أنه الخصام	أحمد رامى
مونولوج	خلى الدموع دى لعينى	أحمد رامى
مونولوج	خيالك فى المنام حلمى	أحمد رامى
مونولوج	رق الحبيب وواعدنى يوم	أحمد رامى
مونولوج	زارنى طيفك فى منامى	أحمد رامى
مونولوج	سكت والدمع اتكلم	أحمد رامى
مونولوج	عينى فيها الدموع	أحمد رامى
مونولوج	فين العيون اللى سابتنى	أحمد رامى
مونولوج	يا ريتنى كنت النسيم يداعب شعورك	أحمد رامى
مونولوج	يا ما ناديت من أسايا	أحمد رامى
مونولوج	أحب أقول اللى فى بالى	أحمد رامى
طقطوقة	البعد طال والله على	أحمد رامى
طقطوقة	بعدت عنك بخاطرى	أحمد رامى
مونولوج	هايم فى بحر الخيال	أحمد رامى
مونولوج		أحمد رامى

طقطوقة	إنت فاكرانى والا نسيانى	أحمد رامى
طقطوقة	بحبك وانت مش دارى	حسين المانسترلى
طقطوقة	تبعينى ليه كان ذنبى إيه	أحمد رامى
طقطوقة	تراعى غيرى وتتبسم	أحمد رامى
طقطوقة	تشوف أمورى وتتحقق	أحمد رامى
طقطوقة	حبيت ولا بانش على	أحمد رامى
طقطوقة	حرمت أقول بتحبينى	أحمد رامى
طقطوقة	صحيح خصامك والا هزار	أحمد رامى
طقطوقة	صدق وحبك مين يقول	. أحمد رامى
طقطوقة	قال إيه حلف ما يكلمنيش (*)	أحمد رامى
طقطوقة	ليه تلاوعينى وانت نور عينى	أحمد رامى
طقطوقة	ما تروق دمك مين حيهمك	أحمد رامى
طقطوقة	متنا فى حبك يا نور العين	أحمد رامى
طقطوقة	محتار يا ناس فى دى الغرام	أحمد رامى
طقطوقة	ما دام تحب بتنكر ليه	أحمد رامى
طقطوقة	ولحد إمتى حتدارى حبك	أحمد رامى
مونولوج	يا فايتنى وأنا روحى معاك	أحمد رامى
مونولوج	ياللى انت حبتنى وانت بعيد	أحمد رامى
طقطوقة	ياللى جفاك المنام	أحمد رامى
طقطوقة	يا للى جفيت ارحم حالى	أحمد رامى
طقطوقة	ياللى شغلت البال	أحمد رامى
مونولوج	ينوبك إيه من تعذيبى	أحمد رامى
مونولوج	يا عشرة الماضى الجميل يا ريت تعودى	أحمد رامى
موال	يا غائبا عن عيونى وحاضرا فى خيالى	أحمد رامى
طقطوقة	الليل أهوه طال	أحمد رامى

(*) مذهب الطقطوقة لمحمد يونس القاضى ـ والأغصان لأحمد رامى .

وشارك القصبجى فى ألحان أفلام أم كلثوم :

فيلم وداد : (١٩٣٥)	ياللى ودادى صفا لك	أحمد رامى
	ليه يازمان كان هوايا	أحمد رامى
	يا طير يا عايش أسير	أحمد رامى
فيلم نشيد الأمل : (١٩٣٧)	منيت شبابى النعيم	أحمد رامى
	يا بهجة العيد السعيد	أحمد رامى
	يا مجد يا ما اشتهيتك	أحمد رامى
	ياللى صنعت الجميل	أحمد رامى
	نامى يا ملاكى	أحمد رامى
فيلم دنانير : (١٩٣٩)	طاب النسيم العليل	أحمد رامى
	الزهر فى الروض ابتسم	أحمد رامى
	يا فؤادى غن ألحان الوفاء	أحمد رامى

فيلم عايدة : (١٩٤٢)

الفصل الأول من أوبرا عايدة	أحمد رامى
ياقلبى بكره السفر	أحمد رامى
عطف حبيبى وهنانى	أحمد رامى
ياقلبى بكره السفر	أحمد رامى
إحنا وحدنا (محاورة مع إبراهيم حمودة)	أحمد رامى

فيلم فاطمة : (١٩٤٨)

يا صباح الخير ياللى معانا	بيرم التونسى
نورك يا ست الكل	بيرم التونسى
ياللى انحرمت الحنان	أحمد رامى

والقصبجى هو المعلم ـ والأستاذ المعجب والمتيم بتلميذته . « أخذ بيد أم كلثوم إلى أن أوصلها إلى الشهرة والنجاح . وكان أيضا أستاذها فى العزف على آلة العود .

زكريا أحمد وأم كلثوم :

فى عام ١٩٢٠ . . وفى السنبلاوين . . دعا التاجر « على أبو العينين » زكريا أحمد لإحياء ليلة رمضانية ـ وخلال إقامته بالسنبلاوين ، سمع عن جمال صوت الطفلة أم كلثوم . . فسعى للتعرف عليها . وبعد أن التقى بها واستمع إلى أحاديثها الذكية . . ثم إلى صوتها الذى كان له أثر كبير فى نفسه قال :

« منذ ليلتها ، وأنا كالأصم لا أسمع إلا صوتها . . كالأبكم ، لا أتحدث إلا باسمها . . فقد أصبحت مفتونا بها . . أحببتها حب الفنان للحن خالد ـ تمنى العثور عليه دهرا طويلا . »

دعته أم كلثوم لزيارتها وأسرتها بقرية « طماى الزهايرة » ، وقبل زكريا الدعوة . . وعن هذه الزيارة روى :

« لبيت الدعوة . . وتناولت الطعام على طبلية . . وجلسنا حولها على كليم . . لاأزال أذكر لونه الأحمر على أسود . وابتلعنا إوزة كاملة . . ثم لعبنا عشرة كوتشينة . ومنذ هذا اليوم ، وأم كلثوم ووالدها وشقيقها خالد ، يحضرون كل يوم لسماع غنائى فى سراى أبى العينين » .

وكثيرا ما كان زكريا بخفة دمه يردد :

« أم كلثوم لها عندى وزة ، ولى عندها ٠٠٠ , ٤٠ جنيه » . وهذا المبلغ كان محور القضية التى رفعها زكريا أحمد على أم كلثوم ، يطالب فيها بمستحقاته المالية والتى تقدر بهذا المبلغ .

وعندما عاد إلى القاهرة . . استمرت الصداقة بين الأسرتين ، وكثيرا ما تلقى خطابات

(*) مذهب الطقطوقة لمحمد يونس القاضى والأغصان لأحمد رامى .

من أم كلثوم . . علق عليها . . بأنها كانت تحمل عبارات ساذجة مكتوبة بالحبر الأخضر . . وكانت هذه الخطابات تذكره بالربيع والصوت الحسن .

كان زكريا أحمد، قبل لقائه بصوت أم كلثوم ، غارقا فى لونين من ألوان التلحين :

ـ الأغانى الهابطة التى كانت منتشرة تلك الفترة، والتى لحن منها « إرخى الستارة اللى فى ريحنا » التى اشتهرت بها منيرة المهدية ، والمسرحيات الغنائية .

ومنذ أن اختطف صوت أم كلثوم هذا الملحن الكبير، وهما يعملان معا ويقدمان أجمل الألحان . . إلى آخر يوم فى حياة الملحن زكريا أحمد . ومن أشهر أعماله لصوت أم كلثوم :

« أهل الهوى » ـ « الأمل » ـ « حبيبى يسعد أوقاته » ـ « أنا فى انتظارك » . وآخر ألحانه « هو صحيح الهوى غلاب » .

عندما اشتركت أم كلثوم بالغناء ، فى فترة الاستراحة بين فصول روايات على الكسار . . كانت تؤدى ألحان الشيخ أبو العلا ومقطوعات غنائية لحنها لها د . أحمد صبرى النجريدى، ومحمد القصبجى .

يقول زكريا :

« كنت فى ذلك الوقت أقوم بتلحين روايات الكسار . . فدعتنى أم كلثوم إلى تلحين بعض أغانيها ، وذلك بمناسبة تسجيل عدة أسطوانات لها . وكان أول ما لحنت لها طقطوقة « اللى حبه يا هناه » (أحمد رامى) و « هو ده يخلص من الله » (بديع خيرى)، وكان ذلك عام ١٩٢٥ .

وهنا يطرح السؤال نفسه :

ما هو السر وراء اهتمام زكريا أحمد بصوت أم كلثوم ، وإصراره على الذهاب إليها فى طماى الزهايره ، وهى الفتاة الصغيرة غير المعروفة ، والتى لم يتعرف أحد بعد على موهبتها الفنية ؟

الإجابة هى أن زكريا حينما استمع إلى صوت أم كلثوم . . أعجب به وتنبأ لصاحبته بمستقبل عظيم .

واستطاع زكريـا أن يقنع أم كلثوم ووالدها أيضـا بالسفر إلى القاهـرة ، لكى تتعرف الفنانة الصغيرة على الحيـاة الفنية فى مصر ، ولتكون قريبـة من منابع الفـن والشهرة . ولمدة شهور طـويلة كـان زكريا ينظـم لها حفلات ، حتى يتعـرف جمهور القـاهرة على صوتها ، بداية مـن السيدة زينب والحسين والموسكى ، وبركة الـرطل . . إلى غير ذلك من المواقع . كما رافقها فى سفريات عديدة فى مدن مصر . سافر زكريا معها إلى المحلة الكبرى وقليـوب وطنطـا وغيرهـا . . وكـانت أم كلثـوم تنشـد القصـائد والموشحـات والمواويل .

بقى زكريا إلى جوار أم كلثوم ما يربو على الثـلاثين عاما ، يرعى موهبتها وفنها . . وكان لها نعـم الأخ والصديـق والزميل ، وكـان أول ما غنت لـه هو بعـض الموشحات والقصائد التـى غناهـا له من قبـل الشيخ على محمود . . مثـل موشحـة « كتبت رحمة الناس عليك » .

وغنت أم كلثوم من ألحان زكريا أحمد :

« جمالك ربنا يزيـده » ـ « ليه عزيز دمعى تذلـه » (لحسـن صبحـى) ـ « قالوا لى إمتى قلبـك يطيب » (أحمد رامى) . « الليـل يطول ويكيـدنى » (حسين المانسترلى) «اللى حبك يا هناه » (*) ـ « مالـك يا قلبى حزيـن » (أحمد رامى) ـ « العزول فـايق ورايق » (حسن صبحى) ـ « أكـون سعيدا » (حسن صبحى) . « هو ده يخلص من الله » (بديع خيرى) ـ « يا قلبى كان مالك » ـ ما كانش ظنى » ـ « إمتى الهوى ييجى

(*) جمع زكريـا فى هذه الطقطـوقة عـدة مقامات . . فـالأغنية تبـدأ وتنتهى بمقـام واحد . وفيما بين البداية والنهـاية ، تتعاقب المقامات بتعـدد الأغصان . ويعتبر هذا جديدا على الطقطـوقة التى كانت تسير على وتيرة واحدة فى لحنها من أوله إلى نهايتـه . غنتها أم كلثوم عام ١٩٣١ ، وهى أول لقاء بين أم كلثوم وزكريا أحمد .

سـوا » (يحيى محمد) ـ « يا للى تشكـى من الهوى » (أحمد رامى) و« ابتسام الـزهر » (عمـر عارف القـاضى) ـــ « مين اللى قال » (عبـد الرحمن فيـاض) . « آه يا سـلام » (حسن صبحى) ـ « عادت ليالى الهنا » « يا ما أمر الفراق » (لأحمد رامى) .

ومن كلمات بيرم التونسى ولحن زكريا ، غنت أم كلثوم :

« كل الأحبة اثنين اثنين » ـــ « آه من لقاك فى أول يوم » ـ « حبيبى يسعـد أوقاته » ـ «اكتب لى من غير تأخير » ـ « إيه أسمى الحب ما أعرفش » ـ « البدر أهو نور » ـ « أنا ليه أتجاسر وأعاتبك » ـــ « أنا فى انتظارك » ـ « الأوله فى الغرام » ـــ « فى أوان الورد ابتدا حبى » ـــ « أهل الهوى » ـ « يا قلـبى ياما تميل بنظـرة » ـ « الأمل » ـ «حبيـب القلب وافانى » .

هذا بـالاضافـة إلى أغانى أفـلام أم كلثوم : وداد (١٩٣٥) ـــ دنانير (١٩٣٩) ـ عايده (١٩٤٢) ـ سلامة (١٩٤٤) ـ فـاطمة (١٩٤٨)، والتى بلغ مجموعها ٩١ لحنا .

وجميع ألحان زكريا لأم كلثـوم تعتبر إضافات جديدة فى الموسيقى العـربية . أدخل زكريـا الجديد على الطقطـوقة ، وحطـم القيود التـى جعلت مـن هذه الأغنيـة الرتـابة والملل . . فكانـت تصاغ من نغمة واحدة . وجاء زكـريا فصاغها صياغـة جديدة . . جدد الأوزان وجعل لكل مقطع . نغمة خاصة تختلف عن نغمات المقاطع الأخرى . . وأضـاف إلى هذه التجـديـدات فى التلحين أداء أم كلثـوم . . بصوتها المتمكـن الـذى استطاع أن يعبر عن روح الملحن وأسلوبه الجديد وتطويره للأغنيات .

وكما أدخل زكريـا الجديد على الطقطوقة . . فـإنه جدد أيضا فى تلحينـه للقصيدة المنظومـة بالشعر العربـى الفصيح ـ وبلغ القمـة فى التجديد . فعندمـا لحن لأم كلثوم قصيدة « قولى لطيفك ينثنى » فى فيلم (دنانير) ، فإنه لحنها من نغمات عديدة مختلفة . جعل كل مقطع منها كلحن قائم بذاته مساير لتسلسل قصة الفيلم .

أيضا جدد زكريـا فى الغناء العربى، حيث أدخل « القصـة الملحنة » التى استمعنا إليها لأول مرة فى ألحان « أهل الهوى » و « حبيب قلبى وافانى » و « الأمل » وغيرها . . كـذلـك فى الألحان البـدويـه التـى اتسمت بها كـل ألحان زكـريـا لأم كلثـوم فى فيلـم «سلاّمة»، وكانت فتحا جديدا فى عالم الغناء .

كذلك أدخل الجمل الكلامية التـى تتخلل الأغنية. مثال ذلك أغنية « جو للى ولا تخبيش يازين » فى فيلم «سلاّمة » ، وفيه نسمـع أم كلثوم وهى تغنى مقطعا من الأغنية فى نغمة معينة و إيقـاع معين . ثم نسمع زكريا نفسـه يردد نفس المقطع بـإلقاء خاص منسجم كل الانسجام مع النغمة والإيقاع .

وفى آخر حياة زكـريا أحمد . . تم الصلح بين أم كلثـوم وزكريا . وكان مقـررا طبقا لاتفـاق الصلح القضـائى بين أم كلثوم والشيـخ زكريـا، أن تغنى لـه ثلاثـة ألحان فى العام. . وقد أتم رحمه الله لحنين من هذه الألحان الثلاثـة قبل وفاته. . وسعد جمهور أم كلثوم وزكريا بسماع أحد اللحنين وهو لحن « هـو صحيح الهوى غلاب » . أما اللحن الآخر فقد صرحت أم كلثوم بأنها سمعته منـه. . وأنها ستمتع به الناس عما قريب. ولم تخرج أم كلثوم بهذا اللحن حتى وفاتها .

يقول زكريا أحمد (١).

« إن المؤلفين الذين يكتبون لأم كلثوم يرون أن الفنانة العظيمة « لا يعجبها العجب ولا الصيام فى رجب » . والملحنـون الذين يلحنون للفنانـة العبقرية يعترفون بـأنها غالبا مُتعِبة ، بضـم الميم وكسر العين . . . وأم كلثوم فى الواقـع ينطبق عليها ما وصفهـا به المؤلفون والملحنون؛ فهى ذواقة للأدب، ذواقة للفن ، متمكنة كل التمكن من نفسها، ومن فنهـا، وهى عندما تختـار أغانيها أو ألحان هـذه الأغانى، تكون كـالصائغ الذى يستخدم دوما أصدق المعايير للكشف عن الجواهر الكريمة النادرة . ولهذا فإن مئات

من القصائد والأزجال ، والطقاطيق ترسل إلى أم كلثوم فتقرأها بأهمية ، وتختار ما يلائمها ، وما يلا ئم الجمهور ، وما يلائم الزمن الحالى والأزمان اللاحقة . وهى عندما تجلس إلى ملحن أغانيها أو يجلس إليها ، لا تكتفى بأن يقدم لها لحنا واحدا أو اثنين أو ثلاثة . . . وإنما هى تريد أكثر من ذلك . . وقد تطلب من الملحن أن يلحن الكوبليه الواحد مرات متعددة ، وتتظاهر بعدم قبول هذه الألحان ، كما تتظاهر أيضا ، بعد أن تختار واحدا من الألحان المقدمة ، بنسيان ما قدم للأغنية الواحدة من ألحان . . وتجدد فى معظم الأغانى بألحان جديدة ، تبدو للمستمع الجديد أنها وليدة الساعة ، وإن كانت مخزونة فى أعماق ذاكرتها من زمن بعيد .

وذات مرة قدمت لها أغنية بثمانية ألحان مختلفة ، وذلك لفتح فرصة الاختيار فى الوقت المناسب أو فى الأوقات المناسبة . إننى أعتبر أم كلثوم « أسطى » من خيرة «أسطوات » الفن ، وصائغة من أمهر صائغات الغناء ، فهى لا تختار إلا الجيد ، ولا تقدم إلا الجميل ، وهى أقدرُ الناس على تذوق الفن الجميل ، وعلى إمتاع الناس بالفن الجميل . ولهذا فقد خصصت لها أكثر من ستين لحنا ليس فيها لحنان يشبه أحدهما الآخر فى أسلوب تلحينه . »

وقد كوّن زكريا أحمد وبيرم التونسى ثنائيا فنيا . . وجاءت أغلب ألحان زكريا لأم كلثوم من نظم بيرم التونسى . وعن هذا الترابط بين الملحن والزجال ، قال كمال النجمى فى مجلة فن (مايو ١٩٩١) :

« ارتبط اسما زكريا وبيرم منذ بدأت أم كلثوم تغنى لهما فى الأربعينيات . وظل الاسمان جنبا إلى جنب فى عالم الغناء منذ ذلك الوقت حتى وقتنا هذا . وكان زكريا فى تلحينه لكلام بيرم يجمع شيئين يتناقضان عند بعض الملحنين من ذوى المواهب المحدودة والخبرة القليلة . ولكنهما لا يتناقضان عند الشيخ زكريا أحمد وأمثاله من الموهوبين . . هذان الأمران هما :

١ ـ الابتكار فى تصوير المعانى بصورة غير مسبوقة فى رقته وحلاوته ، وليس له شبيه فى

الغناء المصرى العربى المتقن المعاصر كله . فهو متفرد بطريقته ونسيج وحده . .

٢ ـ الوقوف عند الأصول الفنية الصحيحة . كأنه شاعر قديم يقف على أطلال أحبابه لا يسأم ولا يمل .

ومن تأليفه وتوفيقه بين هذين الأمرين ، جاء الشيخ زكريا بهذا الفن الممتع الذى صار جزءا مميزا من تراث الغناء العربى .

وأدت أم كلثوم ألحان زكريا أحمد منذ بداية حياتها الفنية . فمن أول كلمات غنتها أم كلثوم فى القاهرة ، الأنشودة الدينية « مولاى كتبت رحمة الناس عليك » ، وهى من ألحان زكريا أحمد . ولم يكن زكريا قد لحنها لصوت أم كلثوم . . وإنما حفظتها أم كلثوم من الشيخ على محمود . . وبعد ذلك لم تغن أم كلثوم من ألحان زكريا إلا فى عام ١٩٣١ » .

والسؤال يظل قائما :

لماذا تأخر غناء أم كلثوم لألحان زكريا أحمد ؟

والإجابة هى :

كان زكريا ، قبل هذا التاريخ ، يلحن لأصوات منيرة المهدية ، ونعيمة المصرية ، ونرجس شوقى ، وزكى مراد ، وحامد مرسى ، وعبد اللطيف البنا ، وعديله المنصورية ، وسمحة البغدادية ، ورتيبه أحمد ، وغيرهم . . وقد لحن خلال هذه الفترة أشهر الطقاطيق « إرخى الستارة اللى فى ريحنا » وغيرها . . . وفى المرحلة التى كان زكريا يلحن هذه الطقطوقة ، وأمثالها . . كانت أم كلثوم تغنى ألحان الشيخ أبو العلا محمد ، رغم أنه لم يلحن لها أى أغنية خصيصا ، إلا أنها كانت تحفظ ما تسمعه من أغنياته . وإليها يرجع الفضل فى حفظ تراثه طوال هذه المدة .

وردا على التساؤل لماذا تأخر زكريا أحمد فى تلحين أغانى لأم كلثوم ، يجيب كمال النجمى (مجلة فن ـ إبريل ١٩٩١) :

« إن المرحوم صبرى أبو المجد لم يجب عن هذا السؤال فى كتابه عن زكريا أحمد .

ولكن المعلومات الغزيرة فى كتاب صبرى أبو المجد، يمكن أن تهدينا إلى إجابة عن هذا السؤال . « لقد كان زكريا أحمد غارقا حتى أذنيه فى التلحين للمسرح الغنائى من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٣٠ . ففى سبتمبر عام ١٩٢٣ توفى سيد درويش الذى كان «يحتكر التلحين للمسرح الغنائى تقريبا ، وبحث أصحاب المسارح عن ملحن يخلفه، فلم يجدوا خيرا من صديقه زكريا أحمد . وانهمك زكريا من فوره فى التلحين لمسارح القاهرة . . فلم تمض أشهر قلائل ،حتى كان قد ملأ المكان الذى كان يشغله سيد درويش من قبل .

وكان إنتاج زكريا للمسرح الغنائى وللغناء الفردى ، إنتاجا وفيرا يستغرق الجهد والوقت . فقد لحن بين عام ١٩٢٤ ، ١٩٣٠ أكثر من ٤٦ مسرحية، آخرها مسرحية «عين البشاير » لمسرح صالح عبد الحى . وتفوق زكريا فى عدد ما لحنه من مسرحيات على صديقه الراحل سيد درويش . ففى ست سنوات (بين عام ١٩١٧ - ١٩٢٣) لحن سيد درويش ٢٨ مسرحية . . أى أكثر قليلا من نصف ما لحنه زكريا فى ست سنوات من (١٩٢٤ـ ١٩٣٠) .

وفى تلك السنوات الست ، لحن زكريا لنفسه وللمنشدين الدينيين والمطربين والمطربات أكثر من سبعمائة توشيح وقصيدة وطقطوقة ودور وديالوج ، ولا ندرى كيف استطاع جهده أن يتسع لكل هذا الفيض من الإنتاج . وكانت سنة ١٩٣٠ آخر سنوات هذا الجهد الكبير . ولم يعد زكريا بعد ذلك إلى التلحين للمسرح إلا قليلا فى سنوات متفرقة . . لأن السينما كانت قد بدأت تجتذب الجمهور . . فأفقرت المسارح ، ثم أغلقت أبوابها . وكان نجما الغناء الجديدان ـ أم كلثوم وعبد الوهاب ـــ قد اجتذبا جمهور الغناء بعيدا عن منيرة المهدية، ونعيمة المصرية ، وعبد اللطيف البنا ، وحامد مرسى وأمثالهم . وبلورت ثورة الغناء العربى المتقن أذواق الجماهير وصقلتها ، وفتحت لها أبواب عالم جديد من الغناء . ولهذا طرق زكريا أبواب أم كلثوم ، وانضم إلى زميليه محمد القصبجى وداود حسنى فى التلحين لها . »

وكتاب صبرى أبو المجد ، لايبين لنا ملابسـات هذا التطور الجديد فى الحياة الفنية لزكـريا أحمد، ولا يجيب لنـا عن السؤال الذى يخطـر على البال : هل دعـت أم كلثوم زكريا أحمد إلى التلحين لها ، أم أنه هو الذى عرض عليها أن يمدها بألحانه ؟

يبدو لن أن أم كلثـوم كانت هى الداعيـة لزكريا أن يمدهـا بالألحان ، لأنها وجدت نفسها تستند إلى ملحن وحيد هو محمد القصبجى . أما داود حسنى الذى كان قد بدأ يلحن لها منذ سنة ١٩٣٠ ، فلم يكن نشاطه فى هذا المجال يتعدى الأدوار التقليدية .

ولم يكد زكريا يدخل فى بلاط كوكب الشرق أم كلثوم حتى خرج منه داود حسنى ، لأن زكريا كـان ملحن أدوار أيضا ، فضلا عن كـونه ملحن طقاطيـق . وقد أثبت فى المجالين أنه مجدد متقـن لا يشق له غبار . إلا أن السبب الحقيقـى لابتعاد داود حسنى عن بـلاط أم كلثوم لم يكـن زكريـا ، بل كـان إحجام داود حسنـى عن مجاراة التطـور العـاصف الـذى تـريده أم كلثـوم ، لكى تنـافس التطور الـذى لاينقطـع فى أغانـى عبدالوهاب حينذاك .

وحدث أن اختلف زكريـا مع أم كلثوم حول الأجر الذى يتقـاضاه على اللحن . . هو يريد زيادة الأجر . . وأم كلثوم ترفض الزيادة .

يقول كمال النجمى :

« كان زكريـا يرى أن أم كلثوم تأخـذ منه اللحن رخيصا ، وتكسـب من ورائه كثيرا . . وكانـت أم كلثوم ترى أنها تدفـع الأجر المناسـب لقانون العرض والطلـب فى سوق الألحان . ولم تكن أم كلثـوم معروفـة على أية حـال بالتسـاهل فى الشئـون المالية . لقـد كابـدت الشقاء منذ كـانت فى الثـامنة من عمـرها ، لتكسب القـرش ونصف الـريال والجنيه ، فكان للمال عندها منزلة عظيمة ، أما زكـريا فكان ينفق ما يكسبه ولا يبالى ما تأتى به الأيام . فكان هو وأم كلثوم على طرفى النقيض ! »

ومن هنا بدأت المشكلة والخلاف بينهما . فرفع زكـريا ضد أم كلثوم قضيته المشهورة

عام ١٩٤٨ ، يطالب فيها بتعويضات وحقوق تبلغ عشرات الألوف من الجنيهات .

لم يكن زكريا أحمد يعترف بكلمة « مستحيل » . . كان دائم التفاؤل ، تجد الحلول دائما لديه . . يقف أمام الصعاب . . يبسطها ويجد لها الحل . »

وعن أغانيه لأم كلثوم يروى زكريا :

« عرض على أحمد رامى كلمات أغنية « بكره السفر » كى ألحنها . . وقال إنه كان قد أعطى هذه الكلمات لمحمد عبد الوهاب الذى رأى أن هذه الكلمات لا تلحن . . أخذت الكلمات ، وفى أيام قليلة عدت بلحن الأغنية إلى أم كلثوم وأحمد رامى . . وسجلتها أم كلثوم وظهرت فى فيلم دنانير . . وجاءت من أنجح ألحانى فى الفيلم . . وكان من أول المهنئين عبد الوهاب شخصيا » .

ومن ذكريات زكريا أحمد أيضا :

« عندما جاء عبد العزيز آل سعود إلى القاهرة ، طُلب من أم كلثوم أن تغنى فى عابدين . وكتب لها أحمد رامى قصيدة تخلى الملحنون عن تلحينها ، لضيق الوقت . وجاءت أم كلثوم تسألنى رأيى وإمكانية تلحين القصيدة .

لم أخذل أم كلثوم ، فلحنت لها القصيدة فى خمس ساعات ، وحفظتها للتخت فى ثلاث ساعات ، وغنتها أم كلثوم فى الليل بقصر عابدين . وكان من أثر ما بذلت من جهد شديد أن أصبت بالفالج » .

« ومرة أخرى جاءنى الأستاذ رامى ليقول لى إن أم كلثوم تريد أن تغنى قصيدة فى دار الأوبرا مطلعها :

بين ذل الهوى وعزة نفسى ضاع قلبى فما عرفت التأسى

وكنت قد قلت لأم كلثوم إن تلحين هذه القصيدة مستعصٍ . ولكنها صممت ، ورفض الملحنون كلهم إن يلحنوها . ومع هذا فقد عز علىّ أن أخذلها . ولحنت القصيدة وأنا فى فراش المرض ، وغنتها أم كلثوم فى الأوبرا . وعندما قرأت « بروجرام » الحفلة

وجدتهم قد نسبوا خطأ تلحين الأغنية إلى غيرى . »

وآخر أغانى زكريا أحمد لأم كلثوم كانت « هو صحيح الهوى غلاب » . لم يذهب زكريا إلى المسرح لمشاركة الجمهور مولد لحنه . . وإنما ذهب إلى درب المسمط . . وفيه استمع إلى أغنيته الجديدة . وجاء فى رواية كمال الجويلى (١) :

استمع زكريا أحمد إلى أغنيته الجديدة التى لحنها لأم كلثوم ، وهو فى فرح كان فى درب المسمط . . لنبوية قطة بنت صديق عمره عبد العزيز قطة ، أشهر كاتب دوبيا فى بلادنا .

قبل أن تغنى أم كلثوم فى حفلتها ، غنى زكريا أحمد فى الفرح « ليلتنا نادية » و« صلاة الزين على العروسين » .

وبعد أن غنى زكريا أحمد ، انتهى الفرح ، وخرج المدعوون ، وبقى زكريا أحمد والعريس والعروس . . كانت الساعة ١٢ . . وكان معنى ذلك أن الوصلة الأولى لأم كلثوم قد انتهت . لم يهتم أحد فى الفرح بسماعها . كانوا مشغولين عن سماعها بفرحهم . وكانوا قد عرفوا كلهم أن الأغنية قديمة . « هجرتك يمكن أنسى هواك » . وجاء موعد الأغنية الثانية . كانت « حب إيه اللى انت جاى تقول عليه » كانت أول أغنية يلحنها بليغ حمدى لأم كلثوم ، وبدأ الشيخ زكريا يهتم . كان يضع الكوفية التقليدية حول رقبته . . وفى عنقه ببيون بنى أنيق . وكان يجلس على « كنبة إستامبولى» . . . كان زكريا يسمع بكل حواسه .

وفى الواحدة ، انتهت الوصلة الثانية ، وسمع زكريا أحمد آخر نشرة للأخبار . وبدأ زكريا يقلق . . أصابع يديه تتحرك . . يمسك بعلبة الكبريت ليشعل أعوادها واحدا وراء الآخر دون مناسبة . ولا سيجارة واحدة عرفت طريقها إلى شفتيه فى لحظة الانتظار

وجاء صوت المذيع يعلن الأغنية الثالثة . . من كلمات بيرم وتلحين زكريا أحمد . . بدأ لحن زكريا ينساب فى سكون الليل . . ورأيت زكريا أحمد سعيدا . . كانت ترتسم

على وجهه ابتسـامات متواضعـه . . بلا غرور . . وتتحمـس الجماهير . . وتتحمس أم كلثوم . . وتعيد مرة ومرة . . « إزاى يا ترى . . أهو ده اللى جرى . . ما اعرفش أنا » . وفى هذه اللحظة تتغير الصورة . . قـام العريس والعروس من الكوشـه . . وقام زكريا أحمد فى هدوء وفى خجل من فوق الكنبة . . وذهـب إلى الكوشة . . جلس عليها . . كان كأنه يمشى وهو نائم . . وأصبح العريس والعروس والأهل مدعوين . . والشيخ زكريا هو العريس .

وتنتهى حفلة أم كلثوم . . وتضج الجماهير بالتصفيق . . ويقوم العريس والعروس ليهنئا زكريا أحمد . . وينـزل الشيخ زكريا من الكوشة . . ويخرج ليشق طريقه خارج درب المسمط . . الذى شهد فرحين» .

وبهذه الأغنية ، اختتم زكريا ألحانه لصوت أم كلثوم .

من أشهر ألحان زكريا أحمد التى أنشدتها أم كلثوم :

طقطوقة	اللى حبك يا هناه	أحمد رامى
	(وهو أول لقاء بين أم كلثوم وزكريا عام ١٩٣١)	
طقطوقة	غضبِ عنى	حسين حلمى المانسترلى
طقطوقة	جمالك ربنا يزيده	حسن صبحى
طقطوقة	قالولى إمتى قلبك يطيب	أحمد رامى
دور	هو ده يخلص من الله	بديع خيرى
دور	يا قلبى كان مالك	يحيى محمد
مونولوج	يا ما أمر الفراق	أحمد رامى
طقطوقة	أكون سعيد	حسن صبحى
طقطوقة	العزول فايق ورايق	حسن صبحى

موال	فين ياليالى الهنا	
طقطوقة	مالك يا قلبى حزين اليوم	أحمد رامى
دور	يا للى تشكى م الهوى	أحمد رامى
موشح	يا بعيد الدار	عباس بن الأحنف
أغنية	الشرفة	أحمد رامى (من فيلم وداد)
أغنية	إيه أسمى الحب	محمود بيرم التونسى
قصيدة	أيها الرائح المجد	الشريف الرضى (من فيلم وداد)
دور	ما كانش ظنى	يحيى محمد
قصيدة	يا بشير الأنس غنى	أحمد رامى (من فيلم وداد)
دور	ابتسام الزهر	عمر عارف القاضى
دور	إمتى الهوى	يحيى محمد
مونولوج	شجانى نوحى	أحمد رامى
دور	مين اللى قال إن القمر	عبد الرحمن فياض
دور	آه يا سلام	حسن صبحى
طقطوقة	ناسيه ودادى	أحمد رامى
دور	عادت ليالى الهنا	أحمد رامى
أغنية	بكره السفر	أحمد رامى (من فيلم دنانير)
قصيدة	القصر المهجور	أحمد رامى (من فيلم دنانير)
أغنية	أنا كنت أحب الشكوى إليك	أحمد رامى
أغنية	ورد ياللى الندى	أحمد رامى
أغنية	أنا وانت	محمود بيرم التونسى
أغنية	القطن	أحمد رامى (من فيلم عايدة)
أغنية	فضل لى إيه يا زمان	أحمد رامى (من فيلم عايدة)
أغنية	الورد فتح والياسمين	أحمد رامى
أغنية	كل الأحبة اثنين اثنين	محمود بيرم التونسى

أغنية	يا فرحة الأحباب	أحمد رامى (من فيلم عايدة)
أغنية	اكتب لى كثير	محمود بيرم التونسى
أغنية	بين ذل الهوى	أحمد رامى
أغنية	أنا فى انتظارك	محمود بيرم التونسى
أغنية	الآهات	محمود بيرم التونسى
أغنية	حبيبى يسعد أوقاته	محمود بيرم التونسى
أغنية	الأوله فى الغرام	محمود بيرم التونسى
أغنية	أهل الهوى	محمود بيرم التونسى
موال	برضاك يا خالقى	محمود بيرم التونسى (من فيلم سلاّمة)
مونولوج	سلام الله	محمود بيرم التونسى (من فيلم سلاّمة)
أغنية	عينى يا عينى	محمود بيرم التونسى(من فيلم سلاّمة)
طقطوقة	غنى لى شوى شوى	محمود بيرم التونسى (من فيلم سلاّمة)
أغنية	فى نور محياك الهنا	محمود بيرم التونسى (من فيلم سلاّمة)
طقطوقة	قوللى ولاتخبيش يا زين	محمود بيرم التونسى (من فيلم سلاّمة)
قصيدة	قو لى لطيفك ينثنى	العاصى عبد الوهاب (من فيلم دنانير)
قصيدة	زهر الربيع	محمد الأسمر
أغنية	الأمل	محمود بيرم التونسى
أغنية	جمال الدنيا	أحمد رامى (من فيلم فاطمة)
أغنية	حلم	محمود بيرم التونسى
أغنية	نصرة قوية	محمود بيرم التونسى (من فيلم فاطمة)
أغنية	لغة الزهور	محمود بيرم التونسى (من فيلم فاطمة)
طقطوقة	ليه عزيز دمعى تذله	حسن صبحى
أغنية	هو صحيح الهوى غلاب	محمود بيرم التونسى
		(آخر أعمال زكريا لأم كلثوم)

اللقاء بين أم كلثوم والسنباطى :

غنت ألحان رياض السنباطى أصوات متعددة . أما الصوت الذى أعطى هذه الألحان بريقا ذهبيا وقيمة فنية كبيرة كان ، بغير شك ، صوت أم كلثوم .

فى لقاء مع إحدى الصحف، روى رياض لقاءه الثانى مع أم كلثوم (*) فقال : «كنت أقيم فى شقة لوحدى . وطلبت تليفون كى يسهل لى أعمالى واتصالاتى . وفى اليوم الأول الذى دخل فيه التليفون إلى الشقة ، سمعت أغنية لأم كلثوم من الراديو . فتذكرت تعارفنا فى محطة الدلتا . وكنت قد عرفت رقم تليفونها من الإذاعة . فاتصلت بها . وعندما ذكرت لها اسمى ، تذكرت بأن والدها الشيخ إبراهيم ، كان يغنى مع والدى فى الأفراح . ودار بيننا حديث قصير ، قالت لى فى نهايته :

ـ ابقى خلينا نشوفك يا أستاذ رياض ، ما دام انت فى مصر وأنا فى مصر . وانتهت المكالمة .

وفى حديث صحفى آخر قال رياض :

« بعد سبعة عشر عاما من لقائنا الأول فى « درين » ، التقيت بالفتاة أم كلثوم مرة أخرى . كان صيتها ملأ الآفاق فى القاهرة . حين بدأت عملى كمدرس للعود بمعهد الموسيقى ، وكنت أتابع ألحانها . . وأحسد الذين يلحنون لها . وكانت تتحرك فى أعماقى ملكة التلحين، تعبيرا عن عواطف جياشه يعيشها الشاب فى مثل سنى .

كنت قد تقدمت بإنتاجى لشركة « أوديون » فعهدت لى بمطربين ومطربات جدد . وكنت على موعد مع القدر ، لأن الفنانة أم كلثوم استمعت إلى بعض هذه الألحان . . فطلبت أن ألحن لها .

وهكذا بدأت أصنع صفحات عمرى . . تعاونت مع مطربة العرب الأولى على مدى أربعين عاما . . . »

(*) كان اللقاء الأول فى طفولتهما ، عندما التقيا فى محطة قطار الدلتا فى قرية درين . وكانا عائدين من إحياء ليالى الأفراح . فأم كلثوم كانت تصاحب والدها فى حفلاته ، كذلك رياض الذى كان معروفا بلقب بلبل المنصورة ، يحيى ليالى الملاح والأفراح بصحبة والده

وكانت بـداية اللقاء الفنى عـام ١٩٣٦ حين لحن لها رياض « النوم يداعـب عيون حبيبى» (أحمد رامىْ)

أعجبت أم كلثـوم بهذا اللحن ، وقـدمته فى حفلهـا الشهرى (الخميـس الأول من شهر أكتـوبر عـام ١٩٣٧ ، على مسرح قاعة إيـوارت التذكاريـة (الجامعة الأمـريكية بالقاهرة) . وقفت أم كلثوم وفرقتها لتقدم ملحنهـا الجديد فى مونولوج « النوم يداعب عيـون حبيبى» ، وكـان الحفـل مذاعـا . ويعتبر هـذا اللحـن تحولا فى حياة أم كلثـوم ورياض السنباطى معا .

وبعد نجاح هـذه الأغنية ، تمسكت أم كلثوم بهذا الملحن القديـر . وانضم رياض السنباطى لملحنى أم كلثوم : القصبجى وزكريا . وكوّنوا معا « الفرسان الثلاثة » .

وظل رياض يمد أم كلثوم بألحانه وروائعه . . حيث وجد رياض فى صوت أم كلثوم ضالتـه المنشودة . فبقـدراتها الصوتية غير المحـدودة ، وبإعجـازها . . غنـت ألحانه فأطربـت وأبدعت . قدم ريـاض السنباطى ألحانه لأم كلثـوم فترة تقترب من الأربعين عاما ، تخللّهـا خصام دام حوالى سنتين . . لم تغن أم كلثوم خلالها سـوى « حب إيه » التى لحنها بليغ حمدى و « هوصحيح الهوى غلاّب » لزكريا أحمد .

وفى عام ١٩٣٥ ، اشترك ريـاض السنباطى بـألحانه فى فيلم (وداد) ، حيـث قدم ألحان المجموعـات ، وبعض المقطـوعات الموسيقية ، وطقطـوقة « على بلـد المحبوب » لصـوت المطرب عبـده السروجـى . ولمّا نـالت هـذه الأغنيـة نجـاحا كبيرا ، وشهـرة واسعة ، طلبت أم كلثوم تسجيلها على أسطوانة بعد استئذان صاحبها .

ومن الملاحظ فى ألحان ريـاض السنباطى الأولى لأم كلثوم ، أنـه كان شديد التـأثر بأسلوب محمد القصبجى . . ناسجا على منـواله ، ثم بدأت شخصيته الفنية تستقل ، وجاءت ألحانه بطريقته الخاصة المميزة .

ولا شك أن غناء أم كلثـوم لألحان السنباطى ساعدت على شهرتـه ، كما فتحت له

أبوابا يظهر فيها إمكاناته الفنية فى التلحين . فأم كلثوم غنت له الأشكال المتنوعة من الأغانى ، منها التقليدى ومنها المعاصر .

ومن أشهر القوالب الغنائية التى اشتهر السنباطى بتلحينها لصوت أم كلثوم : القصائد . ففيها استطاع أن ينفرد بأسلوب مميز متطور .

خص رياض السنباطى حبه وفنه للقصيدة . . قال : « الشعر أرقى أنواع الأدب فيجب والحالة هكذا أن تكرس له أرقى أنواع التلحين ، لأنه الوسيلة الوحيدة للارتفاع بالمستوى الثقافى والفنى للجماهير . وهذا لن يتم إلا عن طريق أقرب وسيلة للتعبير عند الجماهير ـ الغناء الذى يعتبر ألصق الفنون وأقربها إلى نفوس الجماهير » .

ومن أشهر ما لحن رياض من قصائد لصوت أم كلثوم :

عيد الدهر	أحمد شوقى	(غنتها بمناسبة تولى الملك فاروق سلطته الدستورية عام ١٩٣٦) .
أتعجل العمر	أحمدشوقى	
قالوا أحب القس سلامة	أحمد باكثير	(من فيلم سلاّمه)
كيف مرت على هواك القلوب	أحمد رامى	
أصون كرامتى	أحمد رامى	(من فيلم فاطمة)
نهج البردة	أحمدشوقى	
سلوا قلبى	أحمدشوقى	
سلوا كئوس الطلا	أحمدشوقى	
السودان	أحمدشوقى	
ولد الهدى	أحمدشوقى	
النيل	أحمدشوقى	
رباعيات الخيام	أحمد رامى	
مصر تتحدث عن نفسها	حافظ ابراهيم	(مترجمة عن اللغة الفارسية)
أغار من نسمة الجنوب	أحمد رامى	
بأبى وروحى	أحمدشوقى	

عرفت الهوى	طاهر أبو فاشا	(رابعة العدوية)
يا صحبة الراح	طاهر أبو فاشا	(رابعة العدوية)
الفجر الجديد	محمد الماحى	
قصة الأمس	أحمد فتحى	
قصة السد	عزيز أباظة	
ثورة الشك	الأمير عبد الله الفيصل	
توبة	عبد الفتاح مصطفى	
أرض الجدود	أحمد العدوانى	(الكويت)
إلى عرفات	أحمد شوقى	
يا ربا الفيحاء	محمود حسن إسماعيل	
الأطلال	دكتور إبراهيم ناجى	
حديث الروح	محمد إقبال	
أقبل الليل	أحمد رامى	
من أجل عينيك	الأمير عبد الله الفيصل	
الثلاثية المقدسة	صالح جودت	
مصر	دكتور إبراهيم ناجى	

تأثر رياض السنباطى فى بداية تلحينه للقصيدة بالمدرسة التقليدية الكلاسيكية ، كما تأثر بأسلوب الشيخ زكريا أحمد . وأخذ رياض عن عبد الوهاب الطريقة الحديثة التى أدخلها على المقدمة الموسيقية . حيث استبدل بالمقدمة القصيرة مقدمة أخرى طويلة .

ومن القصائد التقليدية التى لحنها رياض السنباطى لأم كلثوم قصيدة « أراك

عصى الدمع (*) » (لأبى فراس الحمدانى) وأضاف عليها الأبيات التالية :

وفيت وفى بعض الوفاء مذلة   لفاتنة فى الحى شيمتها الغدر
تسائلنى من أنت وهى عليمة   وهل لشج مثلى على حاله نكر
فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى   قتيلك قالت أيهم فهم كثير

ثم اتجه السنباطى فى تلحينه للقصيدة إلى أسلوب وسط بين القديم والحديث ، فظهر له عدد من القصائد لشعراء معاصرين من أمثال « اذكرينى » (أحمد رامى) ، غنتها أم كلثوم (٥ يناير ولم تسجل على أسطوانة) :

اذكرينى كلما الفجر بدا   ناشرا فى الأفق أعلام الضياء
يبعث الأطيار فى أوكارها   فتحييه بترديد الغناء

ثم أوجد رياض بعد تجارب عديدة قالبا جديدا للقصيدة الحديثة . ومن أولى تجاربه قصيدة « سلوا قلبى » (أحمد شوقى) (١٩٤٦) « وأغار من نسمة الجنوب » (أحمد رامى) ١٩٥٤ .

غنت أم كلثوم قصيدة « سلوا قلبى » بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بعام واحد . اختارت منها عشرين بيتا من قصيدة المولد النبوى من ديوان أحمد شوقى .

واختار رياض مقام الراست لتلحين القصيدة . وكانت أم كلثوم كلما غنت هذه القصيدة . . وجاء هذا البيت :

وما نيل المطالب بالتمنى   ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

يثب المستمعون من مقاعدهم يصفقون بحماس شديد . . فأم كلثوم كانت تضيف إلى معنى الكلمات الحماس والوطنية . غنت أم كلثوم هذه القصيدة عشرات المرات . . وفى كل مرة يتفاعل الجمهور مع كلمات القصيدة . وفى مايو من عام ١٩٦٧ عندما

(*) لحن هذه القصيدة عبده الحامولى فى مقام البياتى وغنتها أم كلثوم عام ١٩٢٦ ، ومسجلة على أسطوانات أوديون . ثم أعاد زكريا أحمد تلحينها من مقام السيكاه وغنتها أم كلثوم عام ١٩٤٤ ولم تسجل . ثم لحنها رياض من مقام الكرد وغنتها أم كلثوم فى ٣ ديسمبر عام ١٩٦٤ وسجلتها على أسطوانة صوت القاهرة .

كانت مصر تستعد للاشتباك فى حرب ٥ يونيو ، قدمت أم كلثوم هذه القصيدة فى حفلها الشهرى ، وقوبلت بنفس الحماس الذى كانت تقابل به فى الأعوام السابقة ، إلا أن أم كلثوم لم تكن موفقة فى أدائها . وذلك بسبب مرضها ، ونقص منطقة صوتها بسبب السن . ففى عام ١٩٤٦ ،عندما غنت القصيدة لأول مرة، كانت فى مجدها الصوتى . . فصوتها كان يحتوى على ستة عشر مقاما، بينما فى عام ١٩٦٧ نقص صوتها أربعة مقامات من مساحته ويظهر ذلك جليا إذا ما استمعنا إلى تسجيل القصيدة فى المرتين . . (فى الأربعينيات والستينيات) .

أحست أم كلثوم وهى تؤدى قصيدة « سلوا قلبى » فى حفل ١٩٦٧ أن صوتها لم يبلغ الجواب الذى كانت تبلغه قبل عشرين عاما . . وارتبكت . . وأوشكت أن تقع فى الخطأ . خانتها أنفاسها ومقامات صوتها فى الكلمة الأخيرة من حيث البيت «كتابا » .

ومنذ هذا اليوم ،وأم كلثوم بدأت تدرك أنه لابد من مراجعة ما يناسب صوتها فى الغناء . ومن روائع أحمد شوقى غنت أم كلثوم من ألحان السنباطى « ولد الهدى » .

روى السنباطى موقفًا مشرفا لأم كلثوم، فقال :

« وقفنا بمسرح معهد الموسيقى العربية قبل الثورة . . كنا نسجل قصيدة « ولد الهدى» لأحمد شوقى فى مدح الرسول . وأثناء التسجيل فوجئنا بشخصية هامة تصعد إلى المسرح وتطلب التحدث إلى أم كلثوم . توقف التسجيل برهة . وبعد دقائق، لاحظت انفعال أم كلثوم وغضبها . فحاولت أن أتبين الأمر . فعرفت أن القادم موفد من القصر الملكى . . جاء يطلب حذف البيت الذى يتحدث عن الاشتراكية فى قصيدة شوقى .

قلت لأم كلثوم : لماذا يتدخل القصر فى عملنا الفنى بهذه الصورة ؟ إن هذا البيت يا ست فى تصورى كملحن ، أهم بيت فى القصيدة . وهنا أعلنت أم كلثوم تمسكها

بالبيت ، وتحديها لمطالب القصر . بل هددت بإلغاء التسجيل فى حالة إذا ما أصر القصر على التدخل . توقف التسجيل حوالى ساعة . . أجرت أم كلثوم خلالها اتصالاتها بالقصر ، وأعلنت إصرارها على غناء البيت . فما كان من القصر إلا أن رضخ لرأى أم كلثوم . . وأعيد التسجيل كما هو دون حذف . »

وفى عام ١٩٥٥ ، وبعد أداء أم كلثوم لرائعة السنباطى « ذكريات »، نشب خلاف بين أم كلثوم ورياض . . وأعطى رياض عامدا متعمدا شهر زاد لحنه الكبير « يا ناسينى »، نظم «مأمون الشناوى » . وشارك رياض السنباطى بالعزف على العود فى تسجيل هذه الأغنية .

أدت شهر زاد هذه الأغنية فى عيد « شم النسيم » فى هذا العام نفسه . وكان الحفل مذاعا على الهواء من الإذاعة المصرية . ونجح اللحن ،واستعاده الجمهور عدة مرات . وكان اللحن جميلا والأداء بديعا . .

استمعت أم كلثوم إلى الراديو . . وبعد انتهاء الأغنية ، أمسكت التليفون واتصلت برياض السنباطى . . وسألته دون مقدمات :

ـ عملت الأغنية دى إمتى ؟؟

أجاب رياض :

ـ الشهر ده . .

ـ ومن إمتى بتعزف عود فى مقدمة أغانيك ؟؟ انت عمرك ما عملتها معايا ؟

فأجاب :

ـ اللحن عاوز كده !!

وبعد هذه المحادثة التليفونية، عادت المياه إلى مجاريها . . وفهمت أم كلثوم أنها فقدت الكثير بابتعادها عن ألحان رياض . وكان السنباطى يهدف من وراء هذا اللحن، أن يلقن أم كلثوم درسا . . وأن يفهمها أنه يستطيع أن يعمل مع أصوات غيرها .

ويتضح من المحادثة التليفونية التى دارت بينهما أن رياض استطاع أن يدخل فى قلب أم كلثوم الغيرة والحرص على ألا يؤدى ألحان رياض غيرها .

روى رياض السنباطى فى حديثه لتليفزيون الكويت أسباب الخصام الذى وقع فى الفترة بين عامى ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ بينهما ، وأنه كان بسبب تدقيقه فى كلمات الأغنية التى يكلف بتلحينها . ومن طبع أم كلثوم التدخل فى صياغة اللحن والكلمات . وأشاد فى حديثه بثقافتها العالية ، وذوقها الفنى الرفيع فى اختيار الكلمة . وقال إنه فى بعض الأحيان يقبل التعديل، وفى أحيان أخرى لا يقبلها .

وفى حديث آخر أدلى به رياض السنباطى بعد وفاة أم كلثوم، قال :

« . . لم تحدث بينى وبين أم كلثوم أية خلافات فنية . وإنما كانت خلافات على المادة . ففى بعض الأحيان كنت أطلب منها أن تزيد لى ثمن اللحن ، الذى ألحنه لها . وعندما تجيب على هذا الطلب بالرفض . . يقوم الخلاف بيننا . وفى بعض الأحيان يكون الخلاف حادا ، فأتركها لفترة قصيرة ، ثم نعود للعمل معا من جديد . ولكن فى إحدى المرات، استمر الخلاف بيننا مدة عامين كاملين . ولم تغن لى أى لحن فى موسمين متتاليين . »

وفى ألم وحسرة ، استطرد رياض حديثه ، فقال :

« ليت أم كلثوم عاشت . . لقد كنت على استعداد أن أقدم لها كل ألحانى بلا مقابل . ولا أتقاضى منها المال أبدًا . . . »

ويقول أحمد الحفناوى (عازف الكمان الأول بفرقة أم كلثوم) :

« كان خلاف أم كلثوم مع رياض السنباطى أحيانا بسبب بعض الجمل الموسيقية فى ألحانه . ورياض إنسان يعتز بنفسه جدا ، ذو كبرياء حاد . . ولا يلين بسهولة . فحين كانت أم كلثوم تطلب منه أن يغير أو يبدل جملة موسيقية فى اللحن ، وذلك لأنها ليست مرتاحة لهذه الجملة ، كان يرفض بشدة ، بل ويغضب جدا . ويتصور أن طلبها هذا يعنى أنها تدّعى أنها أكثر فهما منه فى الموسيقى . وحين تحاول أم كلثوم

بدورها أن تقنعه بأن الجملة الموسيقية المـراد تغييرهـا تعاكـس صوتهـا . . أو تتعب غناءها ، فإنه يرضخ لها ، ويغير الجملة . لكنهـا تشعر بتردد لتنازله هذا !! ويساورها الشك والوسوسـة . . لأن الأستاذ رياض تنازل لرأيها . فتأخذ رأيـى . وكانت تثق فى ذوقى . . فـأجيب بأننـى أفضل الجملة الأولى التـى كان يصر عليها ريـاض . لكنها تعرض عن رأيى أيضا . وهـذا لكونها كانت تعتز بنفسها جدا . أم كلثوم كـانت قوية الشخصية . وفى البروفة التـالية ، تطلب أم كلثوم سماع الجملـة الأولى مرة أخرى . . وترضى بها وتغنيها . كانت فى النهاية تثق فى قدرة رياض السنباطى الموسيقية . وتعلم أنـه يعطيها أجمل وأفضـل مـا عنده مـن ألحان . وأن رؤيتـه وذوقـه سليمان . وكانـت علاقتى وصداقتى بأم كلثوم كبيرة . فعندمـا كان ينشب خلاف بينها وبين زكريا أحمد أو رياض السنباطى ،كنت أدعوهما لمنـزلى . . وأعمل وسيطا ورسول سلام بينهما . . حتى تصفو النفوس وتعود المياه إلى مجاريها » .

ويصف رياض لقاءاته مع أم كلثوم فيقول :

« أم كلثوم كانت تعبد فنها بعد الله . . ولا تكتفى بما وصلت إليه من مجد وتفوق ، بل كانت دائما تتطلع إلى المزيد . وعلى سبيل المثـال : فإن الجلسات التى كانت تحفظ فيها لحنا جديدا . . كانت تستمر من العاشرة صباحا حتى العاشرة مساء . تحفظ دون كلل أو ملل . وأحيانا كانت تسألنى عنـدما تطول الجلسة أكثر من ذلك . . إذا كنت جائعا ؟! وعندما أقول لها بأننى جعت فعلا ، فإنها تسألنى بذكاء . إذا كانت تحضر لى طعاما ؟ فـأجيبها : إذا أكلت وجبة كاملـة فإننى سوف أتعب وأنـام ، وسوف يضيع الجو الجميل الذى نحن فيـه . وهكذا كنا نقرر الاكتفاء بتناول سنـدوتش من الجبنة ، مع فنجان شاى أو قهوة .

وظلت جلساتنا هكذا طوال أربعين عاما . كانت ترفض أثناء البروفة استقبال أى إنسان ، لكـى تتفرغ تماما لفنها . . كـانت تستـوعب كـل نغمة فى اللحـن . . وكل كلمـة . لقد كـانـت أم كلثوم دائما متحفـزة للنجـاح . . تماما كـالفـرس التى تستعـد

للسباق . . وتصمم على الفوز .

يا خسارة ! ! كانت مثل السد الكبير، الذى كان يحجب كل التفاهات والسخافات الفنية . فلما رحلت بدأ كل شىء يظهر . وبدأت موسيقى البلد تنهار ، والأغانى تصاب بالانحلال . . »

وفى حديث آخر، قال رياض السنباطى :

« أين الطرب بعد أم كلثوم ؟ لقد انفض سامره ، وانتهى عهده ، طرب هذه الأيام تشنجات من المطربين وتهليل من الجمهور . وهذه فى اعتقادى هستيريا من يتعاطون مكيفات محظورة . أما جمهور أم كلثوم فشىء آخر ، كنت أسمع أم كلثوم وأسمع فى نفس الوقت جمهورها . وأقول لأم كلثوم « آه » وأقول للجمهور « الله » ، لأنه يتمتع بحس ذكى ، ويعرف أين يصفق ، ويحترم الجملة اللحنية فلا يقاطعها . وهو يصدر أحكامه على اللحن من أول مرة يسمعه فيها . كان الجمهور يعلمها ، ويعلمنى، إن الجمهور عندنا يعرف من يحترم ، وماذا يحترم . »

لعب صوت أم كلثوم دورا كبيرا فى حياة رياض الفنية . فإذا استمعت لأغنية لرياض السنباطى مؤداة بصوت غير صوتها ، أحسست على الفور أن ملحن هذه الأغنية ليس هو رياض الذى استمعنا إلى ألحانه بصوت أم كلثوم . وفى ذلك يقول كمال النجمى :

« . . ملحنان مختلفان فى المقدرة والإبداع ، ولكنهما ملحن واحد اسمه رياض السنباطى . يبلغ القمة حين يضع لحنا لأم كلثوم ، ويأتى بخوارق تدهش العقول . وكان يفاجئ المستمعين فى كل لحن كلثومى بلون من الإبداع لم يسبقه أحد إليه ، ولا يستطيع أحد أن يأتى بمثله . فإذا اقتضت الضرورة أن يضع لحنا لمطربة أخرى لم يأت بشىء من الخوارق الفنية . ولم يفاجئ المستمعين بشىء من الابداع . ويبدو عندئذ كأنه ملحن آخر من طبقة أقل بكثير من طبقة السنباطى . لا تطاولها طبقته عند التلحين لأم كلثوم . ولعل السبب أن روحه المعنوية ترتفع عندما يلحن لأم كلثوم

فينعكس ارتفاعها على ألحانه .

لقد تخصص السنباطى فى التلحين لأم كلثوم ، حتى ارتبطت ألحانه بصوتها ، وانطبع صوتها بألحانه . واعتاد السنباطى لهذا السبب أن يطلب الدرجة العليا فى التلحين ، ما دام يلحن للدرجة العليا من الأصوات .

وبمرور الزمن وكثرة ما صنع السنباطى من ألحان لأم كلثوم ، أصبح لا يحس إلا الطيران فى الأجواء التى يحلق فيها صوت أم كلثوم . . »

رياض كان واحدا من الذين رسموا « الذوق الكلثومى » . وارتاحت أم كلثوم إلى فن رياض السنباطى . . فقد كان يعطيها ما تريد .

ويقول رياض :

« . . عندما تعارفنا . . لمست فى صوتها القدرة الفائقة النادرة . . . أحسست بطاقة فنية خطيرة تملكها . . قلما يمنحها الله لإنسان . الزمن لا يجود بكثير من العباقرة . . وأم كلثوم واحدة من العباقرة . . من عباقرة هذا الجيل . . »

كان رياض السنباطى يترك لأم كلثوم حرية مطلقة فى الأغنية الخفيفة «الطقطوقة» ، لتقدم عروضا غنائية حرة تظهر إمكاناتها الصوتية وتفهمها للمقامات والضروب العربية .

وكانت أم كلثوم فى حفلاتها حريصة عند تقديم الإعادات على إدخال التلوين والتغيير فى كل إعادة ، دون أن يفقد اللحن مستواه الفنى ، أو يبتعد اللحن عن اللون والأسلوب الذى كتبه الملحن . والملاحظ أنه فى السنوات العشر الأخيرة ، قللت أم كلثوم من أدائها للعرض الصوتى بسبب تراجع مساحات صوتها . وظهر ذلك جليا فى أدائها لقصيدة « أقبل الليل » وأغنية « القلب يعشق كل جميل » .

وقبل وفاة أم كلثوم ، كان رياض فى زيارة لها . . فجلس إلى جوارها على الكنبة التى اعتادا الجلوس عليها ، وأعطته أم كلثوم أغنية لصالح جودت عن ٦ أكتوبر . . بمناسبة ذكرى العبور . . قال رياض :

« أخـذت منها الـورقـة . . وقلت لها إننـى لا أستطيـع بهذه السرعة أن ألحنهـا فى أسبوع . والحقيقـة أننى حاولـت أن أهرب . فقـد لاحظت ضعفها ، ولاحظـت رجفة يديها وهى تعطينى اللحـن . . وصوتها أيضا ليس هـو الذى أعرفه . ولكنها قالت : «حـاول . . فكـر . . نغبـش فى الكلمات . . يمكين . . حاول على كل حال » .

ولم أحاول ، لأننـى أعرف أنها لن تغنى . . إنها شـىء عظيم . . قوة جبـارة ، هبة من عند الله . . »

وفى وصف لأداء أم كلثوم . . قال رياض :

إن ختـام جمل أم كلثـوم أو بـالتعبير الموسيقـى « القفلة الغنـائيـة » ، كـانت مثـل «الباكم» عند القطـار أو فى المترو . وهذه القفلة المحكمة القوية لم تكـن موجودة عند أى مطربة أخرى . »

استمرت الشركـة الفنية بين أم كلثـوم ورياض مـا يقرب مـن أربعين عامـا . ففى ألحانه وجدت أم كلثـوم ما يناسب صوتها وثقـافتها وقدرتها الغنائيـة . وبألحان رياض قدمت أم كلثـوم مجموعة كبيرة من أعمال الشعـراء العرب القدامى والمعـاصرين . قال رياض عن أم كلثوم :

«عنـدما لحنـت لها ، شعـرت بـأننى وجـدت وعثـرت على مـا تصبو إليـه روحـى ومقدرتـى . فأم كلثوم تجمـع بين ملكة التعبير والصـوت الحلو واللفظ السليـم . كل هذه الصفات شجعتنى على أن أصل إلى ما تصبـو إليه نفسى من خلال التلحين لهذا الصوت الجبار . وكانـت الحصيلة عددا كبيرا من الأغانى التـى جمعتنا معا ، تجاوزت التسعين بالمائة من ألحانى كلها . »

شارك رياض السنباطـى بألحانه فى أغانى أفلام أم كلثوم . وسيـأتى الحديث عنها فى حينه .

ومن أشهر ما لحن السنباطى من ألوان الطقطوقة والمونولوج والأناشيد :

طقطوقة	على بلد المحبوب وديني	أحمد رامى (١٩٣٥) فيلم وداد
أغنية	الربيع	أحمد رامى (١٩٣٥)فيلم وداد
أنشودة	افرح يا قلبى	أحمد رامى (١٩٣٧)فيلم نشيد الأمل
أغنية	قضيت حياتى	أحمد رامى (١٩٣٧)فيلم نشيد الأمل
نشيد	الجامعة	أحمد رامى (١٩٣٧)فيلم نشيد الأمل
أغنية	ميلاد الملك	أحمد رامى (١٩٣٩)
مونولوج	النوم يداعب عيون حبيبى	أحمد رامى (١٩٣٨)
مونولوج	اذكرينى	أحمد رامى (١٩٣٩)
أنشودة	بغداد	أحمد رامى من فيلم دنانير (١٩٣٩)
مونولوج	فاكر لما كنت جنبى	أحمد رامى (١٩٣٩)
طقطوقة	لما انت ناوية تهاجرينى	أحمد رامى (١٩٣٩)
أغنية	ياليلة العيد	أحمد رامى (١٩٣٩) فيلم دنانير
مشهد	الفصل الثانى من أوبرا عايدة	أحمد رامى (١٩٤٢) من فيلم عايدة
طقطوقة	ح أقابله بكره	أحمد رامى (١٩٤٦) فيلم فاطمة
أغنية	ظلمونى الناس	محمود بيرم التونسى (١٩٤٦) فيلم فاطمة
أغنية	غلبت أصالح	أحمد رامى (١٩٤٦)
أغنية	غنى الربيع	أحمد رامى (١٩٤٦)
أغنية	هلت ليالى القمر	أحمد رامى (١٩٤٦)
أغنية	يا طول عذابى	أحمد رامى (١٩٤٦)
أغنية	يا للى كان يشجيك أنينى	أحمد رامى (١٩٤٩)
أغنية	سهران لوحدى	أحمد رامى (١٩٥٠)
مونولوج	يا ظالمنى	أحمد رامى (١٩٥١)
أغنية	جددت حبك ليه	أحمد رامى (١٩٥٢)
نشيد	صوت الوطن	أحمد رامى (١٩٥٢)

أغنية	على عينى بكت عينى	طاهر أبو فاشا (١٩٥٥) رابعة العدوية
أغنية	قصة حبى	أحمد رامى (١٩٥٦)
أغنية	الصباح الجديد	محمود حسن اسماعيل (١٩٥٦)
نشيد	الله معك	صلاح جاهين (١٩٥٦)
أغنية	صوت السلام	محمود بيرم التونسى (١٩٥٦)
أغنية	أروح لمين	عبد المنعم السباعى (١٩٥٨)
أغنية	بطل السلام	محمود بيرم التونسى (١٩٥٨)
أغنية	بعد الصبر ما طال	محمود بيرم التونسى (١٩٥٨)
نشيد	بغداد	محمود حسن إسماعيل (١٩٥٨)
أغنية	شمس الأصيل	محمود بيرم التونسى (١٩٥٨)
أغنية	عودت عينى	أحمد رامى (١٩٥٨)
أغنية	دليلى احتار	أحمد رامى (١٩٥٨)
أغنية وطنية	منصورة يا ثورة أحرار	عبد الفتاح مصطفى (١٩٥٨)
نشيد	الجيش	طاهر أبو فاشا (١٩٥٩)
أغنية	هجرتك	أحمد رامى (١٩٥٩)
أغنية	يا دارنا يا دار	أحمد العدوانى (١٩٦٩)
أغنية	الحب كده	محمود بيرم التونسى (١٩٦١)
أغنية	ثوار	عبد الفتاح مصطفى (١٩٦١)
طقطوقة	حيرت قلبى	أحمد رامى (١٩٦١)
أغنية	ح أسيبك للزمن	عبد الوهاب محمد (١٩٦٢
أغنية وطنية	الزعيم والثورة	عبد الفتاح مصطفى (١٩٦٣)
أغنية وطنية	بالسلام والمحبة	محمود بيرم التونسى (١٩٦٣)
أغنية	لسه فاكر	عبد الفتاح مصطفى (١٩٦٣)
أغنية	يا جمال يا مثال الوطنية	محمود بيرم التونسى (١٩٦٣)
أغنية	أقول لك إيه عن الشوق	عبد الفتاح مصطفى (١٩٦٥)
أغنية	تحويل النيل	عبد الوهاب محمد (١٩٦٥)

أغنية	لا ياحبيبى	عبد الفتاح مصطفى (١٩٦٥)
أغنية	يا حبنا الكبير	عبد الفتاح مصطفى (١٩٦٥)
أغنية	طوف وشوف	عبد الفتاح مصطفى (١٩٦٧)
نشيد	حبيب الشعب	صالح جودت (١٩٦٧)
نشيد	قوم بإيمان	عبد الوهاب محمد (١٩٦٧)
رسالة	(عندى خطاب عاجل إليك)	نزار قبانى (غنتها عقب وفاة الزعيم جمال عبد الناصر)
أغنية	القلب يعشق	محمود بيرم التونسى (١٩٧٢)

ألحان محمد الموجى لصوت أم كلثوم :

ومحمد الموجى كان أول الملحنين الشبان الذيـن لحنوا لأم كلثوم ، وأول لحن قدمه لها أنشودة الجلاء (أحمد رامى) :

يا مصر إن الحق جاء   فاستقبلى فجر الرجاء

وكان ذلك عام ١٩٥٤ ، بمناسبة جلاء قوات الاحتلال عن مصر ، غنتها أم كلثوم فى ١٨ يونيه عام ١٩٥٤ ، ولم تسجل على أسطوانة .

ثم اشترك محمـد الموجى فى قصة رابعـة العدويـة عام ١٩٥٥ ، فلحن أغنيـة انقروا الدفوف (طاهر أبو فاشا) :

أوقـــدوا الشمــــوع   انقــروا الـــدفـــوف
مـــوكـــب العـــروس   فى السما يطـــــوف
والمنـــــى قطــــوف   انقــروا الـــدفـــوف

وقصيدة حانة الأقدار (طاهر أبو فاشا) :

سألت عن الحب أهل الهوى   سقاة الدموع ندامى الجوى

وفى سبتمبر عام ١٩٥٧ غنت أم كلثوم أغنية « محلاك يامصرى » (صلاح جاهين)

وفى يوليو عام ١٩٦٤ غنت تحية للإذاعة أغنية « صوت بلدنا » (عبد الفتاح مصطفى) ولم تسجل على أسطوانة .

وعام ١٩٦٤ غنت أغنية « للصبر حدود » (عبد الوهاب محمد) وهى مسجلة على أسطوانة صوت القاهرة .

وفى أول مارس عام ١٩٦٥ غنت أم كلثوم من ألحان الموجى أغنية «يا سلام على الأمة » (عبد الفتاح مصطفى) ولم تسجل أيضا على أسطوانة .

وآخر ما غنت أم كلثوم من ألحان محمد الموجى « اسأل روحك » (عبد الوهاب محمد) :

اسأل روحك اسأل قلبك قبل ما تسأل إيه غيرنى
أنا غيرنى عذابى فى حبك بعد ما كان أملى مصبرنى
غدرك بيه أثر فيه

وكان ذلك يوم الخميس الموافق أول يناير ١٩٧٠ ، وسجلت على أسطوانة صوت القاهرة .

تنبهت أم كلثوم إلى هذا الملحن المميز . . وكان رياض السنباطى أيضا يتابع أعمال الملحنين الشبان . . واستوقفه محمد الموجى بشكل خاص . . يقول الموجى :

« رأى السنباطى فى أعمالى أصالة وشرقية . أما أم كلثوم ، فلا أعرف تحديدا ماذا دار فى خلدها . . لكننى أعرف أن « صافينى مرة » و « أنا قلبى إليك ميال » أثرا فيها كما كانت تقول . فأخذت تتابعنى وتمعن الفكر فى ألحانى . إلى أن استدعتنى عن طريق محمد حسن الشجاعى . فذهبت إليها ، ووجدت مجلسها الثالوث العملاق : محمد عبده صالح عازف القانون ، والشاعر أحمد رامى . والأستاذ محمد القصبجى . فجلست خائفا ، خجلا ، كأنى فى محكمة . وبدون مقدمات أعطتنى قصيدة «الجلاء » لأحمد رامى . وقالت باقتضاب : الحفلة بعد ١٥ يوما . .

خرجت وأنا فى ذهول . . مـاذا أفعل ؟ وكيف أجرؤ على التلحين ؟ إنها أم كلثوم . لحنت ونجحت بعون الله تعـالى . . ثم كـانت أعمالى : « ماحـلاك يا مصرى وإنت ع الدفـة » و « بالسـلام إحنا بـدينا بالسـلام » . حتى جـاء اليوم الـذى استدعتنـى فيه لتكلفنى بعملين على قدر كبير من الصعوبة ، هما أغانى فيلم « رابعة العدوية » :

« انقروا الدفوف » ، « وحانة الأقدار » للشاعر طاهر أبو فاشا .

إننى كملحن أعتبر نفسى عبدا للكلمة . . هى التى تقودنى وتدلنى على الطريق . ثـم إن حبى للشعـر يجعلنـى أتذوقـه وأمعـن الفكـر فى الكلمة وأبعـادهـا ، وأتأمـل موسيقيتها . وحينما طـالعتنى قصيدة « حانـة الأقدار » ، وجدت أمامـى ٣ قصائد فى قصيدة واحدة ، مختلفـة فى شكلها وإيقاعها . وبدون أن أشعر ، أسرنـى هذا الشكل الذى أبدعه طاهـر أبو فاشا . فاستخدمت ثلاثة إيقاعـا ت مختلفة . وعندما أرهفت السمع إلى مقطع « أيكة الأطيار » شعرت أننى فى جو أندلسى . تخيلت أننى زرياب ، ووجدت نفسى أستعين بإيقـاع الفالس . . ولكى أوحى بأصـوات الكورس خصوصا أن اللحن سيغنى فى حانة . . حسبما جاء فى السينـاريو ، استخدمت فى الإيقاع النقر على الكمان وآلة المثلث ، لتعطى صوتا بلوريا . وعندما فرغت من التلحين ، وجدت نفسى أمام ثلاثة موشحات جميلة متصلة بعضها ببعض . . لا ارتباك فيها ولا تفكك ، لأننى كنت فى كل مرة أختتم المقطع الغنائى بالمقام الذى سأبدأ فيه المقطع الذى يليه . ومع ذلـك تملكنى الرعـب . وراجعت نفسـى كثيرا قبل أن أذهب إلى أم كلثـوم . فإن استخدام كل هذا التلوين فى الشكل والإيقاع لم يكن مألوفاً فيما سبق وغنته . . ولكننى توكلت على الله ، وأنجزت هذا العمل فى ثلاث ليـال . ثم أسمعته أم كلثوم . فأخذت تنصت باهتمام ، وتتمتم بأشياء غريبة ، فتوجست خيفة وسألتها : فيه حاجة ؟

فأجابت : لا . .

قلت : ما معنى هذه اللا ؟

قالت : لا أجد ما أقوله . . عبثا أحـاول النفاذ إلى ثغرة واحدة فلا أجد . هذه أول مرة يهزمنى لحن بهذا الشكل .

ولم تتدخل أم كلثوم فى هذا العمل . . وهى التى اعتادت التدخل فى معظم أعمالها . .

بالمقابل . . أذكر أنها « بهدلتنى » وأرهقتنى كثيرا فى أغنية « للصبر حدود » . إن تلحين أغانى المناسبات يأخذ توقيتا معينا . . وسرعةمعينة ، لإنهاء العمل فى وقت المناسبة . . فيكون الملحن أنشط . أما قصة « للصبر حدود » فبدأت بعرضى عليها كلمات الأغنية . . فأعجبت بها ، وطلبت منى أن أقوم بتلحينها .

أخذت الكلمات ، وفضلت الكلمات عندى مدة . إلى أن اتصلت بى أم كلثوم تسألنى عن اللحن . فأوضحت لها أننى لم أحصل بعد على الفكرة الأولى . . . أى بداية اللحن . . فاستدعتنى إليها . ولما ذهبت إلى منزلها سألتنى :

ـ انت مش لحنت لشريفة فاضل ، ومها صبرى ، وفايزة أحمد « أنا قلبى إليك ميال » . . والحاجات الحلوة دى ؟؟ حط فى دماغك إنك بتلحن لشريفة أو أى مطربة أخرى واللى يطلع فى بالك اعمله !!

خرجت من منزل أم كلثوم هادئا بعد ما كنت عصبيا . . وفى البيت أمسكت بالعود وسلطنت مقام السيكاه .

أنهيت المذهب وذهبت إلى أم كلثوم . . . بدأت تستمع إلى اللحن مرة . . ومرة أخرى تردده معى . . وبدأت تتدخل فى اللحن . . يعنى أنا ممكن أقول إنى أحسست بنفسى فى المقدمة والمذهب . أما ابتداء من الكوبليه الأول والثانى بدأت تتدخل ، فكنت أحس أننى زكريا أحمد . واحتراما لها أتجاوب معها متعللا بأنها كانت تريد أن تريح صوتها . . وأعتقد أننى كنت مخطئا أننى وافقتها على التعديلات التى طلبت إدخالها على اللحن ، لأنها لم تتوافق مع ما أردته أنا لهذه الأغنية . إلى أن جاء الكوبليه الأخير « . . ما تصبرنيش ما خلاص » . . فهنا ظهر أسلوب محمد الموجى . . وأنا راض كلية عن هذا الجزء .

غنت أم كلثوم « للصبر حدود » فى موسم عام ١٩٦٤ . وفى الشهر التالى

فوجئت بأم كلثوم تغنى « إنت عمرى » . . وبهذا لم تعط فرصة لأغنية « للصبر حدود » أن تنتشر وتعيش موسما كاملا . . فقد عودتنا أم كلثوم أنها تغنى لحنا واحدا جديدا فى السنة . . وتقوم بإعادة الأغانى القديمة فى الوصلات الأخرى . وبظهور « إنت عمرى » اهتز لحن « للصبر حدود » . لأن طبعا لقاء أم كلثوم وعبد الوهاب فى أول أغنية كان حدثا تاريخيا .

ولما غنت أم كلثوم « إنت عمرى » فى الوصلة الأولى . . غنت فى الوصلة الثانية «للصبر حدود » . وحماس الناس فى الوصلة الأولى . . مع « إنت عمرى » . . لم يستمر مع الوصلة الثانية « للصبر حدود » .

وفى اليوم التالى اتصلت بأم كلثوم أعاتبها :

كده برضه تدبحينى إنت وعبد الوهاب ؟؟

فردت عليه (باللفظ) . . . اتلهى . . بكره تشوف الأيام حتعمل إيه ؟

والله أعلم هل كانت أم كلثوم تطيب خاطرى ، أم كان عندها بعد نظر ؟؟ أن أغنية «إنت عمرى » تهبط قليلا وترجع ترتفع أغنية « للصبر حدود » .

مش عارف !!! المهم فاتت مدة وبدأنا نعمل معا فى لحن « اسأل روحك » . وفى هذه الأغنية ، لم أترك أم كلثوم تتدخل فى لحنى . . . إلا بقدر محدود جدا جدا . . . وأستطيع أن أقول إن لحن هذه الأغنية . . لحنى أنا . . وتصورى وإحساسى أنا فقط .

أم كلثوم وألحان كمال الطويل :

وثانى الملحنين الشباب كان كمال الطويل الذى اشتهر بلحنه « والله زمان يا سلاحى» (صلاح جاهين) ١٩٥٦ . . والذى اعتمد نشيدا وطنيا (سلام جمهورى) . . وأغنية « لغيرك ما مددت يدا » فى أوبريت رابعة العدوية .

وآخر ألحان كمال الطويل لأم كلثوم كان لحن « غريب على باب الرجاء » (طاهر أبو فاشا) .

كتبت « مجلة فن العدد الأول يونية ١٩٨٨ » :

« . . بعد ما يقرب من ربع قرن على تسجيل أغنية « غريب على باب الرجاء » ، نشرت الشركة التى تحتكر حق توزيع التراث الغنائى لسيدة الغناء العربى الراحلة أم كلثوم ، أغنية لها سجلت فى أوائل الستينيات ، ولم يصرح بإذاعتها أو طرحها للبيع على أسطوانات أو أشرطة الكاسيت خلال حياة أم كلثوم ـ وأيضا خلال ١٤ عاما هى سنوات رحيلها عن الحياة .

وملحن هذه الأغنية الموسيقار كمال الطويل ، وكاتب كلماتها الشاعر طاهر أبو فاشا .

وطبيعى أن يثور « حول المنع ـ ثم التصريح » الكثير من التساؤلات حول أسباب تأخر ظهور هذه الأغنية ؟!

إن الأسباب التى عطلت ظهور هذا العمل الغنائى لأكثر من ربع قرن، يعود إلى أن صاحب اللحن كان قد صارح أم كلثوم فور تسجيلها للأغنية ، بعدم ارتياحه للتسجيل . وكان أن احترمت سيدة الغناء العربى الراحلة رغبته . فلم توافق على إذاعة الأغنية أو طبعها على أسطوانات أو كاسيت . وظل الحال كما هو ، حتى طرحت الشركة المحتكرة لتوزيع وتسويق أغانى أم كلثوم الأغنية من دون الرجوع إلى الملحن أو المؤلف ، وبناء على حق الشركة فى نشر غناء أم كلثوم ، وحيث إن تنازل الملحن والمؤلف عن اللحن والكلمات ، تم بموجب أوراق ومستندات ضمن تعاملات الشركة مع أم كلثوم .

ورغم أن لأغنية « غريب على باب الرجاء » مزايا ـ لا نعرف كيف أمكن حجبها عن الناس أكثر من ربع قرن !! ـ فالأغنية فيها فيض من المقدمات واللوازم الموسيقية التى تمهد للكلام المنغوم ، عبر استخدام جرىء للمقامات والإيقاعات ، وشكل فخم للغناء فى داخل هذا الإطار اللحنى البديع . إن جهد كمال الطويل فى هذا اللحن جهد رائع ، وتعد هذه الأغنية ثالث ما لحن لأم كلثوم ، بعد لحن قصيدة « لغيرك ما مددت يدًا » الذى كان من أجمل ألحان « رابعة العدوية » ، وبعد نشيد « والله زمان

ياسلاحـى » الذى ظل نشيدا وسلاما قـوميا لجمهورية مصر العربيـة منذ عام ١٩٥٧ وحتى عام ١٩٧٧ .

وقد حرص كمال الطويل فى هذا اللحـن ، على أن يلبى متطلبات صوت أم كلثوم وأن يرتفع إلى جو الإمكانات الفنية الـرفيعة لهذا الصوت العبقرى . أما كلمات الشاعر طاهر أبو فاشا ، فقد قدمت صورة شعرية بليغة لتائب على باب الرجاء . خصوصا فى المقطع الأخير الـذى استلهم إيقاعـات الذكر والـدعاء ، بجانـب تداخل الغنـاء مع إيقاعات الذكر ونقر الدفوف مع صوت أم كلثوم :

ولى فى مقـام الـوجـد حـال ونشـوة	فى سر الهوى تغـدو وفيـه تـروح
بكيـت إلى الجدران لا مـن عـذابـه	وداعـى الهوى بـالـوالهين يصيـح
غـريـب على بـاب الـرجـاء طـريـح	ينـاديـك مـوصـول الجوى وينـوح
يهون عـذاب الجسـم والـروح سـالم	فكيـف وروح المستهـام جـروح

أم كلثوم وألحان بليغ حمدى :

وعن الظروف التى أوصلت ألحان بليغ إلى حنجرة أم كلثوم، قال بليغ :

« المرحوم الفنان محمد فـوزى كان من أعز أصدقائى . وقـد أنشأ شركة تسجيلات وأسطـوانات بـاسم « مصرفـون » . وقد تعـاقـد مع عـدد من المطـربين والمطربـات ، لتسجيل إنتـاجهم على أسطوانـات ، وفى مقدمتهم السيدة أم كلثـوم . وبالرغـم من الصداقة التى تربط بينى وبين محمد فوزى، إلا أنه لم يبلغنى بتعاقده مع أم كلثوم. وفى الوقـت نفسه ، كان الشـاعر عبد الـوهاب محمد مهنـدسًا يعمل فى شركـة « شل » ، أسمعنى أغنية ألفها ، هى «حب إيه اللى انت جاى تقول عليه » . وقد أعجبنى كلامها جدًّا ، فلحنت مطلعها ، وأخذت أردده فى المجالس التى تضمنى مع عدد من الزملاء الفنانين . وتصادف فى تلك الأيام أن جاءنى الصديق محمد فوزى ، ودعانى إلى سهرة

حلـوة فى بيـت الدكتـور زكـى سـويـدان ، وقـال لى إن السيدة أم كلثـوم ستكـون فى الحفلة . . .

وذهبت إلى السهرة طبعاً . . وعرفت فيما بعد أن الحكـاية كانت مهيأة سلفا ؛ فإن السيدة أم كلثـوم كانـت قد سمعت بعـض الألحان التى وضعتها لعبـد الحليم حـافظ وشادية وصباح ونجـاة ، فأرادت من باب الفضول أن تتعرف علىّ ، وهكـذا تم ترتيب السهرة بحيث يكون لقائى بها عاديا وطبيعيا . وأذكر أن السهرة ضمت يومئذ : عازف الكمان الراحـل أنور منسـى ، والمطرب المرحـوم عبد الغنـى السيد ، والشـاعر مـأمون الشنـاوى ، ومحمد فـوزى طبعـا . . كما أذكر أن الكلفـة ارتفعـت بينـى وبين المطربـة العظيمة مـن أول لحظة . . وأحسسـت وكأننى أعـرفها من زمـن بعيد . . وخصـوصا عندما طلب منها أحد الساهريـن أن تسمعنا شيئا ، فالتفتت إلى أنور منسى ودعته إلى العزف على كمانـه ، ثم طلبـت عودا وأعطتـه لى وقالـت : تفضل وأسمعنـا شيئا مـن ألحانك .

وأسرع محمد فـوزى يطلب إلى أن أسمعها أغنية « حـب إيه » . وكان المرحـوم أنور منسى قـد حفظ اللحـن جيدا منـى فى سهراتنـا الخاصة ، ولم أتـردد ، فغنيت لها . . واستعادت اللحن مرة ، ومرتين وثلاثا ، وطربت له ، وسألتنى : لماذا لم أكمل تلحين الأغنية ؟! فأجبتها بأننى لم أجد سببا للاستعجال . . وهنا طلبت إلى أن «أفوت عليها بكرة » . وهكذا كان . . .

ذهبت إلى بيتها ، وليـس فى ذهنى إلا تصور واحد ، وهو أن سيدة الغنـاء العربى تريدنى أن أقوم بتلحين بعض الأغانى لابن شقيقها ابراهيم خالد ، الذى كان يفكر فى احتراف الغناء آنذاك . . وبالفعل ، أول ما وصلـت إلى بيتها ، قابلتنى بالترحاب . . وحكينا فى شأن ابراهيم خالد ، واتفقنـا على أن أعمل له لحنا ، وبعد قليل التفتت إلى قائلة :

ـ ما تيجى نتسلطن شوية ؟

وأتت بالعود ، وأعطته لى ، وهى تقول :

ـ سمعنى اللى قلته امبارح .

وبعد أن أسمعتها المذهب بتاع « حب إيه » قالت :

ـ كلام مين ده ؟

فأجبتها :

ـ شاعر صديقى ، يعمل مهندسا فى شركة « شل » ، اسمه عبد الوهاب محمد . .

فقالت :

ـ انت حافظ بقية الكلام ؟

فأجبت :

ـ لا . . لكن نكلم عبد الوهاب . .

ونهضت وطلبت عبد الوهاب محمد فى التليفون وقلت له :

ـ ألو . . يا عبد الوهاب . . والله تجينى حالا لبيت السيدة أم كلثوم . . .

فأجاب الرجل .

ـ يا أخى بلاش هزار ع الصبح .

وحاولت إقناعه بأن المسألة جد . . لكنه لم يقتنع إلا بعد أن أخذت أم كلثوم السماعة وقالت له :

ـ اسمع يا عبد الوهاب . . أنا أم كلثوم . . أنت عندك سيارة ؟؟ . طب خد تاكسى وتعالى لى حالا . .

وبعد نصف ساعة ، كان عبد الوهاب محمد يقرأ لها بقية الكلام ، وكانت هى تصغى إليه بكل إعجاب . . وبعدها قالت أم كلثوم :

ـ اسمع يا بليغ . . من غير زيطة . . ولا حد يعرف . . اشتغل فى الأغنية دى . . .

فقاطعتها متسائلا :

ـ هو حضرتك حاتغنيها ؟

فأجابت :

أيوه . . لكن ما تحملش همى . . خليك زى ما أنت . . اشتغل فى اللحن على راحتك . .

ونزلنا من بيت السيدة أم كلثوم ، ونحن فى دهشة شديدة ، وقررنا أن ننهى العمل بأسرع ما يمكن . وهكذا . . وفى عشرة أيام فقط ، انتهيت من تلحين أغنية « حب إيه» التى قررت أم كلثوم أن تغنيها فى افتتاح موسمها السنوى . . وما أذكره أيضا ، أنه خلال البروفات التى كانت تجرى فى بيت أم كلثوم بالزمالك . . حدثت حكاية طريفة للغاية . فأعضاء فرقة أم كلثوم الموسيقية كانوا لا يعرفون اسم ملحن الأغنية الجديدة . ولما رأونى فى بيت أم كلثوم . . اعتقدوا أنى جئت مع عبد الغنى السيد ، فى زيارة تقليدية ، أو للتعرف . ولكن ما إن دخلت السيدة أم كلثوم ، وطلبت منهم أن يعطونى عودا ، حتى ساد الصمت لحظة ، بعدها نهض الجميع لتهنئتى . وكان محمد فوزى الذى جاء خصيصا ليحضر البروفة الأولى فى طليعة المهنئين . . وهو بالمناسبة كان يحمل الحب لكل فنان . . وقد مهد لى الطريق للتعرف إلى السيدة أم كلثوم . . حتى على حسابه .

هكذا كان لقائى الأول مع أم كلثوم . . كان لقاء تبعه لقاءات عديدة «فات الميعاد» و « الحب كله » و« ألف ليلة وليلة » وغيرها . . وارتبط اسمى بسيدة الغناء العربى . وبسببها صعدت إلى سلم الشهرة . . ومن أجلها لحنت أجمل ما لحنت من أغان ستبقى ، لأن أم كلثوم غنتها .

لحنت للكثير من الفنانين والفنانات . ولكن عملى مع أم كلثوم كان له طعم آخر. كانت منضبطة إلى أقصى حدود الانضباط . . مواعيدها بالدقيقة . وكانت دائما فى إستوديو التسجيل قبل غيرها . وكانت بعد تسجيل كل مقطع من الأغنية ، تذهب إلى حجرة الهندسة ، لتستمع إلى ما سجل . . وكثيرا ما كانت تطلب الإعادة . كانت

سمحة مـع الجميع ، طيبة القلـب . أحبتها الفرقة الموسيقيـة ، وأحبها الفنيون الـذين يقومون بالتسجيل . كانت تعرف مشاكل كل من عملوا معها . . وتحاول أن تحل تلك المشاكل .

ولن أنسى أغنية « حكم علينا الهوى » ، وهى آخر أغنية سجلتها . فكانت مشتاقة إلى تقديمها للجمهـور فى حفلها التاريخى ، ولكن المرض لم يسمح بذلـك . فخرجت الأغنية فى تسجيل عظيم سيبقى مع أغانيها الأخرى . »

ومـن أجمل ألحان بليـغ « فـات الميعـاد » الـذى غنتـه أم كلثـوم فى ٢ فبرايـر عـام ١٩٦٧ . . وفيه أضاف بليغ آلة الساكسفون إلى الفرقة الموسيقية .

يقول كمال النجمى :

« . . دخـل بليغ حمـدى تراث الغنـاء العـربى والموسيقى العربية ، منـذ بدأ يلحن لأم كلثوم سنة ١٩٦٠ . وتصـدرت أغنية « حب إيه اللى انت جاى تقول عليه » موسم أم كلثوم فى تلك السنة ، مـع الأغنية الرائعة « هو صحيح الهوى غـلاب » التى كانت آخر ما قدمه زكريا أحمد من الألحان لأم كلثوم !

كان بليـغ حمدى وقتها هو أصغر ملحنـى أم كلثوم سـنا . وقد رفعتـه أم كلثوم إلى درجـة المشـاركة مع ملحنها ـ زكريـا أحمد ـ فى افتتاح موسـمها . ولم يكن بين ملحنى أم كلثوم من هو أحدث عهدا بالتلحين لها من بليـغ . ولا كان بينهـم من هو أقدر من زكريا أحمد ، بعـد تقاعد محمد القصبجـى عن التلحين لها منذ عام ١٩٤٧ . وكـانت آخر الأغانى التى لحنها لها طقطوقة « نورك يا ست الكل » التى غنتها فى فيلم «فاطمة» الذى عرض فى ذلك العام .

هكذا التقى بليغ بأم كلثوم فى ضربة مـن ضربات الحظ . وكان قبل أن يلاقيها فى بدايـة الستينيات قد بـدأ طريقه كملحـن ناشـئ يبحث عن النجـاح فى عالم التلحين بعدما جرب الفشل كمطرب محترف فى عالم الغناء . »

فى تلك المرحلة، كان بليغ يجرى محاولا تقليد كمال الطويل وعبد الوهاب ، محاولا أن يجعل لنفسه طابعا خاصا أو « بصمة » خاصة ، على حد التعبير الردىء المتداول فى أيامنا الحالية . . ولم تكن الأغلبية قد اقتنعت بمواهب بليغ حمدى ، عندما فاجأ ته أم كلثوم بإبداء إعجابها بلحن « حب إيه » الذى كان قد فرغ لتوّه من إعداده لكى يغنيه إبراهيم خالد نجل المرحوم خالد ابراهيم ، شقيق أم كلثوم .

كان إبراهيم خالد يحاول أن يحترف الغناء فى نهاية الخمسينات . . تركته عمته أم كلثوم يحاول ويفشل ، إذ كان يفتقر إلى الصوت الغنائى الحقيقى . غنت أم كلثوم اللحن الذى كان يتدرب عليه إبراهيم . . وفتحت به باب السعادة للملحن الصغير بليغ حمدى الذى وجد نفسه فجأة بين الكبار .

وقد نفخت أم كلثوم من روحها الفنية العظيمة فى لحن بليغ حمدى، فنجح وأعجب الجماهير . وأحس بليغ بصدمة النجاح ، ثم استجمع شتات مواهبه ، ونجح فى عدة ألحان كلثوميه أخرى ، واستحق النجاح . وانفتحت له أبواب المطربين والمطربات ممن بهرهم نجاح هذا الملحن الجديد .

ويعد بليغ أكثر الشبان إنتاجا لصوت أم كلثوم .

ومن أغانى بليغ لأم كلثوم :

نشيد	إنا فدائيون	عبد الفتاح مصطفى (١٩٥٧)
أغنية	حب إيه	عبد الوهاب محمد (١٩٦٠)
أغنية	أنساك يا سلام	مأمون الشناوى (١٩٦١)
أغنية	أنا وأنت ظلمنا الحب	عبد الوهاب محمد (٦١ ـ ١٩٦٢)
أغنية	سيرة الحب	مرسى جميل عزيز (١٩٦٤)
أغنية	كل ليلة وكل يوم	مأمون الشناوى (١٩٦٤)
أغنية	بعيد عنك	مأمون الشناوى (١٩٦٥)

أغنية	فات الميعاد	مرسى جميل عزيز (١٩٦٧)
أغنية	ألف ليلة وليلة	مرسى جميل عزيز (١٩٦٩)
أغنية	الحب كله	أحمد شفيق كامل (١٩٧١)
أغنية	حكم علينا الهوى	عبد الوهاب محمد (١٩٧٣)

ولأغنية « أنساك يا سلام » قصة ، فهذه هى الأغنية الثانية التى غنتها أم كلثوم من ألحان بليغ حمدى . وهى من كلمات الشاعر الزجلى « مأمون الشناوى » . . بل الأغنية الأولى لمأمون الشناوى لأم كلثوم ، على الرغم من شهرته كمؤلف أغان منذ الأربعينيات .

وكانت أم كلثوم قد عهدت بهذه الكلمات إلى زكريا أحمد الذى لحن منها الأسطر الأولى . لكنه توفى إلى رحمة الله قبل أن ينهى تلحين الأغنية . وبعد نجاح بليغ فى أغنيته الأولى لها ، عهدت بتلحينها إليه .

وجاء لحن بليغ لهذه الأغنية فى شكل الطقطوقة المتطورة . . وقد اختار لها نفس المقام الذى كان زكريا أحمد قد بدأ تلحين الأغنية منه . . وهو مقام « الراست » . استخدم بليغ انتقالات مقامية عديدة أضافت إلى الأغنية جمالا وثراء .

وتعتبر أغنية « أنساك يا سلام » من أجمل ألحان بليغ لصوت أم كلثوم .

لقاء السحاب (أم كلثوم وعبد الوهاب) :

ظل جمهور الطرب ومحبى الموسيقى العربية يحلم بلقاء فنى بين القمتين أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب .[١٣]

واستطاع الرئيس السابق عبد الناصر تحقيق هذه الرغبة . ففى احتفالات أعياد الثورة . وأثناء تقديم التهانى بالعيد للرئيس . . طلب عبد الناصر من العملاقين أم كلثوم وعبد الوهاب تقديم عمل مشترك . وعن هذا اللقاء روى عبد الوهاب :

« كنت قد تعودت خلال أعياد ٢٣ يوليو أن أقدم عملا فنيا . . . نشيدًا من تلحينى،أو مقطوعة موسيقية .وتصادف وجود أم كلثوم لتحية الزعيم جمال عبد الناصر. وكان إلى جواره بنادى الضباط المشير عبد الحكيم عامر . قال عبد الناصر موجها الكلام لى ولأم كلثوم .

ـ لن أغفر لكما عدم اشتراككما فى عمل فنى واحد حتى الآن . . أين « مجنون ليلى » التى سمعت أنك لحنتها ؟؟

وقال المشير عبد الحكيم عامر :

ـ المهم أى عمل فنى تشتركان فيه . .

وقالت أم كلثوم :

ـ لا مانع !!

وقلت :

أنا أتمنى . .

وانتهى الحديث عند هذا الحد .

وفى أحد الأيام، زارنى الفنان أحمد الحفناوى، وقال لى :

ـ لدى أم كلثوم استعداد لتغنى لحنا لك .

وكنت فى تلك الفترة ألحن أغنية « إنت عمرى » لأغنيها بصوتى . وبعد أن انتهيت من تلحين بعض مقاطعها ، اكتشفت أن هذه الأغنية مع بعض التعديلات فى اللحن تصلح كبداية للعمل الفنى المشترك بينى وبين أم كلثوم . فأسمعتها بداية اللحن فى التليفون . . فأعجبت بها .

ثم التقينا ومعنا مؤلف الأغنية « أحمد شفيق كامل ». . وعن لقائه الأول مع أم كلثوم قال : أول ما لحنت لأم كلثوم، كنت أشبه بإنسان يزور عاصمة غريبة جميلة يسمع عنها ولا يعيشها . رحت يوم ذاك أتلهف على التعرف إليها وإلى معالمها . وكانت البداية فى « إنت عمرى » . وفيها تعرفت على المظاهر الواضحة لى ولغيرى فى هذه العاصمة .

وفى لقائى معها ومع كلمات أغنيتنا الأولى « إنت عمرى » ، حدث الآتى : أدخلت أم كلثوم بعض التعديلات على كلمات الأغنية ، وجعلت مطلعها « رجعونى عينيك » بدلا من « شوقونى عينيك » . وغنت أم كلثوم « إنت عمرى » فى أول خميس من شهر فبراير عام ١٩٦٤ . وكانت الجماهير تترقب هذا الحدث باهتمام شديد » .

وأذيعت الأغنية عبر موجات الإذاعات العربية . . وأبدعت أم كلثوم . . واستغرق غناء اللحن ما يقرب من الساعتين ، حيث انتهى الحفل فى تلك الليلة مع الفجر . » والتقت الصحف على تسمية العمل (لقاء السحاب) . وجريدة الأهرام (٨/ ٢/ ١٩٦٤) تنشر مقالا تحت عنوان « لقاء مع الملايين » تصف أم كلثوم وهى تغنى إنت عمرى . . والاستعادات ، مع وصف انفعال الجمهور مع كل مقطع .

وفى العدد نفسه فى باب (حديث الناس) تحدثت المقالة عن الأغنية تحت عنوان «التقاء العملاقين » . .

وفى العدد نفسه أيضا كتبت الأهرام عنوانا : « الأغنية تعطل المرور فى شبرا ساعتين أمس » . . وجاء بالمقال :

« فشلت محاولات رجال المرور فى تفريق الجمهور الذى احتشد على ناصية شارعى مسرة وشبرا ، يستمع إلى الأغنية من ميكروفون استأجره تاجر خردوات سجل الأغنية على شريط . . » . وجاء فى الجريدة نفسها أيضا عنوان :

« دمشق تلغى النشرة وتذيع الأغنية » .

وبظهور هذا العمل المشترك « إنت عمرى » ، انتهت المنافسة بين القمتين .

يقول عبد الوهاب :

« لقد أورثتنى أم كلثوم الوسوسة طوال عملى فى أغنية إنت عمرى . . فهو أول لحن أضعه لها . . . وأم كلثوم ليست أى مطربة أخرى . . وعلى هذا كان على أن « أغربل » الكلمات واللحن . . وهذا ما أخر الأمر بعض الوقت » .

والمعروف أن عبد الوهاب ذهب إلى المسرح ليلة الحفل مبكرا ، وآيات القرآن

الكريم تتردد على لسانه . وقبل رفع الستار أجرى عدة بروفات إلى أن بلغت الساعة العاشرة والنصف مساء . . بينما مذيعا التليفزيون والإذاعة فى قلق بالغ . . .

وصاحت أم كلثوم :

ـ جرى إيه يا محمد . . . إنت مش عاوزنا نرفع الستارة واللا إيه ؟؟

وتنحى عبد الوهاب ، ورفعت الستارة . . وبدأت الفرقة فى عزف المقدمة الموسيقية الطويلة . . التى ضمت إيقاعات راقصة عديدة . . والتى لاقت نجاحا كبيرا لدى الجمهور الذى استقبلها بتصفيق حاد . . مطالبا الإعادة .

وبدأت أم كلثوم الغناء . . فأبدعت . . واستعادها الجمهور ، يريد الزيادة فى الإبداع . . وهى لا تبخل بفنها وفن عبد الوهاب . . فهذا هو اللقاء الأول بينهما . . .

وبعد نجاح أغنية « إنت عمرى » ، توالت ألحان عبد الوهاب مع صوت أم كلثوم . . فغنت له عشر أغنيات فى فترة لم تتجاوز تسع سنوات .

استطاع عبد الوهاب فى أغنية « إنت عمرى » أن يجعل أم كلثوم تقتنع وهى التى كانت تقليدية فى سلوكها الفنى ، بإدخال الآلات الكهربائية الحديثة فى أغانيها مثل آلة الأورج والجيتار . كذلك استعان عبد الوهاب فى هذه الأغنية بآلة الأكورديون .

ويقول عبد الوهاب :

« أردت أن أخرج أم كلثوم من كل القيود التى كانت تضع نفسها فيها . . وفرضت ذلك عليها . »

وبعد نجاح أغنية « إنت عمرى » ، استعان رياض السنباطى أيضا بهذه الآلات الحديثة فى أغانيه لأم كلثوم . . كما قلد ، جميع الملحنين الذين لحنوا لأم كلثوم عبد الوهاب فى طريقته .

كان عبد الوهاب يطمع فى تلحين قصيدة لصوت أم كلثوم بعد أن لحن لها أربع أغان باللهجة الدارجة . . هى « إنت عمرى ـ إنت الحب ـ أمل حياتى ـ وفكرونى » .

وكانت أولى قصائد عبد الوهاب لأم كلثوم « هذه ليلتى » شعر « جورج جرداق » .

وفيها أراد عبد الوهاب أن يبتعد كل البعد عن أسلوب رياض السنباطى فى تلحينه للقصائد .

ولم يبتعد عبد الوهاب فى تلحينه لقصائد أم كلثوم عن الإيقاعات الراقصة ، فجاءت قصيدته الأولى « هذه ليلتى » حافلة بالإيقاعات المتحركة ، واكتسحت الموسيقى موجة راقصة . . تناولها بعض المؤرخين الموسيقيين والفنانين بالنقد . وفى القصائد التى تلت هذه القصيدة قلل عبد الوهاب من الإسراف فى الإيقاعات الراقصة ، وفى هذا كتب كمال النجمى فى « مجلة فن » :

« . . من حق عبد الوهاب أن نقول إن قصيدة « هذه ليلتى » كانت قصيدة للمرح والرقص والغزل الجرىء . وأن مثل هذه القصيدة لا تتحمل الجزالة والوقار .

وقد تخفف عبد الوهاب من الرقص فى القصيدة الثانية التى لحنها لأم كلثوم عام ١٩٧١ . . وهى من تأليف الشاعر السودانى « الهادى آدم » . ففى قصيدة « أغدا ألقاك » استولت على عبد الوهاب حالة من « السلطنة » جعلته يجمع بين التعبير والطرب ، وبين خفة الظل والرقص والعذوبة . . فى خليط أو مزيج موسيقى نادر. قدمه لأم كلثوم ، وهى فى السنة قبل الأخيرة من اعتزالها الغناء . . فأدته بقدر ما استطاعت صحتها المثقلة بالأوجاع فى تلك الأيام التى كانت تودع فيها عالم الغناء . »

ولعبد الوهاب لحنان آخران من الشعر الفصيح هما « على باب مصر » شعر « كامل الشناوى » ، التى جاءت فى شكل نشيد وطنى غنتها أم كلثوم عام ١٩٦٤ . . و« أصبح عندى الآن بندقية » شعر نزار قبانى غنتها أم كلثوم عام ١٩٦٩ » .

وجاء فى مقال « كمال النجمى » أيضا :

« إن نجاح عبد الوهاب فى تلحين الشعر الفصيح لأم كلثوم كان فى مستوى نجاحه الجماهيرى المدوى فى تلحين الأزجال الدارجة التى لحن منها لأم كلثوم ست قطع .

وقد شرح عبد الوهاب لى مرة وجهة نظره فى ألحانه لأم كلثوم فقال : إنه استطاع تقريب أم كلثوم من أذواق الشباب . وإنه لو لم يتجنب الطريق التقليدى لألحان

أم كلثوم ، لما استطـاع أن يبلغ هـذا الهدف الذى كان فى حينـه ذا أهمية كبيرة ، بعـدما بلغت أم كلثـوم مرحلة متقـدمة فى السن . والتفـاف الشباب حول المطـرب المعبر عن وجدانه وهو عبد الحليم حافظ » .

ولاشك أن وجهة نظر عبد الوهاب كانت فى حينها تستحق التأمل والاعتبار .

ويقول فكتور سحاب :

نجاح الأغنيـة والتقـاء كبير الملحنين بأعظـم المغنيات ، ينبغى ألا يعنـى بالضرورة القول ، إن ألحان عبد الـوهاب هى أعظم أغنيـات أم كلثوم . ولكن أم كلثوم كـانت قبل عبد الوهاب تغنى للخاصة . فلما لحن لها استمع إليها العامة . فكانت أغنياته لها مدخلا إلى جماهيرية أكبر . كانت دنيـا أم كلثوم الأولى مغلقة قبل ١٩٦٤ . واستطاع عبد الـوهاب ببراعتـه وذوقه أن يدلّ النـاس على خبايـا كنوز كلثوميـه لحنها مـن قبله الثلاثى الكبير : القصبجى وزكريا والسنباطى » .

أرسلت منيرة المهدية برقية إلى أم كلثوم تقول فيها :

« لو كنت أستطيـع أن أسير على قدمى لسعيت إليك مهنئة ، ولكـن روحى وقلبى يحيطانك فى كل ما تقدمينه يادرة الزمـن . أرجو من الله أن يمدنى بالقوة لأراك ولو مرة على المسرح لأستعيد فى شخصـك أيامى ، وأتمتع بفنـك الخالد وصورتك المرسـومة فى كل قلب وأمام كل عين »

وتقول (الجمهورية) : إن أم كلثـوم بكت وهى تقرأ البرقية ، وإنها توجهـت لزيارة السيدة منيرة فى عوامتها بالكيت كات .

تقول د . نعمات فؤاد (٦)

« . . أخذت ألحان عبد الوهاب (تقرب) أم كلثوم من جمهور جديد ، وهى ظاهرة إن لم تغن فنيا فهى تغنى ماديا ، وهو كسب على أى حال .

فقد وفـر عبد الوهـاب فى ألحانه لأم كلثوم أكبر عدد مـن الجمل الراقصـة ليعجب سامـع الترويح أو التفريح . والأمثلـة كثيرة : ففى أغنية (أنت الحب) مثـلا ، معنى

شجى حزين ، لكنه فى لحن عبد الوهاب يرفل فى ثوب من الخرز والترتر الملون كأثواب الرقص الشرقى . . وأنا أقصد :

تجرى دموعى وأنت هاجرنى ولا ناسينى ولا فاكرنى .

ومعنى آخر فى الأغنية نفسها يشترك فى حلبة الرقص وهو حائر :

لكن غرامك حيرنى وليل بعادك سهرنى

إن عبد الوهاب بعد « أنت عمرى » استسلم كما يقول كمال النجمى (للصيغة الخطابية فى التلحين لأم كلثوم ، وللإيقاع الذى يفصل معنى الكلام عن معنى اللحن . . وبلغ فى ذلك مرحلة لم تخطر على بال أحد . فإن عبد الوهاب هو أول من جعل « الطبلة » تدق منفردة دقا راقصا عنيفاً « على واحدة ونص » ، وهو أسلوب فى التلحين لا داعى له إطلاقا فى أغانى أم كلثوم التى يجب أن تنعطف الآن نحو التطور . . . بدلا من هذه الفانتزيا الموسيقية التى لا ندرى لها مبررا فنيا . . »

جاء فى نقد لصميم الشريف (٨)

حققت أغانى « أنت عمرى » ، و« أمل حياتى » و « فكرونى » النجاح الكبير . وعندما أراد عبد الوهاب أن يعطى للقصيدة المسرحية ثوبا جديدا غير الثوب الذى فصله لها رياض السنباطى فشل فى ذلك ، بسبب اعتماده على تصعيد الألحان ذات الإيقاعات الشرقية الحادة التى سبق واستخدمها فى قالب الأغنية الطويلة ، كما فى أغنيتى « أنت عمرى » و « فكرونى » ، وإصراره على ابتكار قفلات جماهيرية تختلف عن القفلات السنباطية المثيرة . وجاء فى رأى النقاد ، أن محاولة محمد عبد الوهاب فى هذا المجال لم تنجح نجاحا كاملا ، وإن دفعت إلى التأمل . والنجاح الذى حققه مع أم كلثوم فى الأغنيات الزجلية ، لم يستطع أن يحققه فى القصائد ، اللهم باستثناء العرض الصوتى » .

ولرياض السنباطى رأى فى ذلك . . فهو يقول :

« إن ما يكتب للشعر يجب أن يظل محافظا على مستوى الشعر والشاعر واللحن

والملحن . وأن يحمى كل هذا من الانحدار ، لأن ما يكتب للرقص لا يمكن أن ينطبق على الشعر حتى لو كان شاعريا . »

ومجاملة من عبد الوهاب لأم كلثوم فى حفل التكريم الذى أقامته لهما جمعية المؤلفين والملحنين ، قال :

« ينبغى أن أنتقل من صفوف المكرَّمين إلى صفوف المكرِّمين . . فأنا ملحن . . ونحن نكرم اليوم ناشرا عبقريا له خطورته . . نكرم أم كلثوم الناشر العظيم للألحان . وقد منحها الله صوتا قويا وأداء عبقريا وحسا مرهفًا . والملحنون محتاجون دائما للناشر الكفء الذى يوصل الإنتاج الموسيقى بمهارة إلى آذان الناس » .

سبحان مغير الأحوال . . عبد الوهاب الذى كان منافسا لأم كلثوم أصبح الصديق المجامل الذى يحسن الحديث ويتودد .

ألحان محمد عبد الوهاب التى أنشدتها أم كلثوم :

أغنية	إنت عمرى	أحمد شفيق كامل (غنتها فى ٥ فبراير ١٩٦٤)
أغنية	أمل حياتى	أحمد شفيق كامل (غنتها فى ٢ ديسمبر١٩٦٥)
أغنية	فكرونى	عبد الوهاب محمد (غنتها فى ديسمبر ١٩٦٦) واشترك فى العزف على آلة القانون عبد الفتاح منسى نظرا لمرض محمد عبده صالح)
أغنية	على باب مصر	كامل الشناوى (غنتها عام ١٩٦٤)
أغنية	أنت الحب	أحمد رامى (غنتها فى فبراير ١٩٦٥)
قصيدة	هذه ليلتى	جورج جرداق (غنتها فى ٦ ديسمبر ١٩٦٨)
قصيدة	طريق واحد	نزار قبانى (غنتها عام ١٩٦٩)
أغنية	ودارت الأيام	مأمون الشناوى (غنتها فى ٥ مارس عام ١٩٧٠)
قصيدة	أغدا ألقاك	شعر الهادى آدم (غنتها فى ٦ مايو عام ١٩٧١)
أغنية	ليلة حب	أحمد شفيق كامل (غنتها فى ٧ ديسمبر عام١٩٧٢)

اللقاء الفنى بين أم كلثوم وسيد مكاوى :

روى سيد مكاوى آخر الملحنين الذين لحنوا لصوت أم كلثوم :

« طلبت منى أم كلثوم أن أعمل لها لحنا ، فطلبت منها ألا يكتب لى إلا الأستاذ أحمد رامى . . حيث إن كلامه يمس وجدانى وأحاسيسى . وفعلا اتصلت أم كلثوم برامى وكلفته بعمل أغنية لألحنها . وبدأت الاتصال به يوميا . وكان رامى يسلمنى الأغنية على مراحل . . وبذلك كانت لنا لقاءات يومية . ومعروف عن رامى أنه من الشعراء السميعة ، وعلى علم بفن الأنغام . وواصلت تلحين الأغنية مدة تقرب من السنة تقريبا . وعندما انتهيت من تلحين أغنية « يا مسهرنى » ، ذهبت أنا ورامى إلى منزل أم كلثوم. واستمعت أم كلثوم إلى اللحن وسجلته على شريط . ثم بدأنا فى البروفات . وكانت أيام البروفات تبدأ فى الأستوديو من الساعة التاسعة صباحاً .

كانت أم كلثوم تملك ثقافة أدبية وفنية ضخمة . . وعلى الرغم من محاولة بعض الملحنين « فرنجة » المقدمات الموسيقية ، يضطر بعدها الملحن إلى العودة مستسلما لغناء وأداء أم كلثوم العربى الأصيل . . فأنا أحمد الله أننى فى عملى الوحيد الذى قدمته لها وهو أغنية « يا مسهرنى » ، أنقذتها من موسيقى أعداء الفن العربى الأصيل . وبغنائها لهذا اللحن ، عدنا إلى أصالتنا الشرقية ، التى أرجو لها أن تدوم حتى تحتفظ بملامحنا العربية» .

غنت أم كلثوم أغنية « يا مسهرنى » عام ١٩٧٢ . وكانت أم كلثوم من المعجبين بألحان الشيخ سيد مكاوى الذى بدأ نجمه يتألق بألحانه فى مسرحياته الاستعراضية . وكانت أم كلثوم ترى فى سيد مكاوى امتدادا لأسلوب سيد درويش . . فهو فى ألحانه مصرى عربى . . ومدرسة الشيخ سيد مكاوى نبعت من القرآن الكريم بما فيه من التنغيم والترخيم ، وحسن التوقيع والترجيع ، مضافا إلى هذا موهبته وذكاؤه وإحساسه .

وطلبت أم كلثوم من سيد مكاوى فى ليلة إذاعة الأغنية لأول مرة ، أن يحضر ليقوم

بالإشراف على ضبط الآلات الموسيقية (دوزان) .

وحضر سيد مكاوى فى الموعد المحدد . . وكانت المفاجأة الكبرى لسيد . . فعند فتح الستارة، قدمت أم كلثوم الشيخ سيد مكاوى للجمهور . . واتضح أن سبب استدعائها لم يكن لضبط الآلات الموسيقية ، وإنما لتقديمه إلى جمهورها .

وبعد غناء أم كلثوم لهذا اللحن الناجح ، بدأ أحمد رامى وسيد مكاوى فى إعداد موشح وموال لأم كلثوم كما جاء فى (الكواكب٣ فبراير ١٩٧٦) ، تقول كلمات الموال :

يـالى تلـوم فى الهوى مـالـك ومـال حبـى
هـو انـت دارى اللى جـوه القلـب متخبـى
أنـا بـاحبه رعـانـى فى بعـده أو قربـه . . . إلـخ

أما الموشح فتقول كلماته :

غلـب الشـوق غلـب	والهـوى أمـره عجـب
ذاب قلبـى لـوعـة	بـين حـب ولعـب
كلمـا قلـت رضـا	نـالنـى منـه غضـب
والأمـانـى خمـرة	حظنا منها الحبيب . . إلخ

ويروى سيد مكاوى :

«طلبت أم كلثوم إعداد لحن جديد لها من كلمات عبد الوهاب محمد وهو « أوقاتى بتحلو معاك » . وعندى تسجيل لصوتها وأنا أعزف على العود . . إلى جانب تسجيل آخر بصوتها لكلمات الأغنية . وكنت فى نفس الوقت ألحن لها نشيدا من كلمات الشاعر الأردنى « وائل إسماعيل » « يقول مطلعه :

مصرنا يا مصرنا أنت أغلى من المنى
أنت للقلب الهنا والهوى يا مصرنا

وماتت أم كلثوم . . ودفنت معها تطلعاتها الفنية لإثراء الغناء العربى أكثر وأكثر» .

مشروع أغنية من ألحان أحمد صدقى لصوت أم كلثوم :

عندما اشتهر اسم أحمد صدقى فى مجال التلحين، وكان ذلك فى أوائل الخمسينيات، طلبت منه أم كلثوم أن يلحن لها أغنية « أغار من نسمة الجنوب على محياك يا حبيبى ».

ولحن أحمد صدقى القصيدة . . وعندما عرضها على أم كلثوم أبدت رغبتها فى تعديل جزء من الأغنية، وهو بالتحديد البيت الأول من القصيدة . لكن أحمد صدقى اعتذر عن إجراء أى تغيير . حاولت أم كلثوم إقناعه . . وأوضحت له أن هذا هو أسلوب تعاملها مع الملحنين . . لكنه أصر على موقفه . . ولجأت أم كلثوم إلى رياض السنباطى لتلحين القصيدة . . وغنتها أم كلثوم بألحان رياض .

محاولة تلحين فريد الأطرش لأم كلثوم :

بعد أن لحن محمد عبد الوهاب وبليغ حمدى لصوت أم كلثوم . . ذهب إليها فريد الأطرش، وعرض عليها لحنا لقصيدة وطنية . فقالت له :

ـ ليس لدى مانع من أن يلحن لى فريد الأطرش . . ولكن رأيى أن أبدأ معك بأغنية عاطفية .

اختار فريد قصيدة للأخطل، ولحنها وسجلها بصوته مع الفرقة الماسية، واصطحب معه أحمد الحفناوى وذهبا لأم كلثوم . يقول أحمد الحفناوى :

« كان فريد طوال الطريق إليها خائفا من عدم إعجابها باللحن . وعندما سمعته فى منزلها، أثناء وجودنا وفى وجود محمد الدسوقى ابن أختها، قالت له :

ـ مبروك ـ وسأتصل بك لعمل البروفات .

وخرج فريد الأطرش سعيدا جدا لأن أم كلثوم ستغنى له لحنا .

ومرت الأيام والشهور ولم يحدث اتصال . ففهم فريد أنها أعرضت عن ذلك . فحزن، وشعر أن هناك من يدسون له عند أم كلثوم، محاولين إقناعها أن لحنه لها

سيفشـل ، وأن هذا سيعـرضهـا لهزة فنية هـى فى غنى عنهـا . . لأن لـون موسيقـاه لا ينسجم ولا يتناسق مع صوتها وغنائها . بل وربما تعرضها هذه المغامرة ـ على حد قولهم ـ للفشل واستنكار الجمهور . وقد حاولنا إقناعها بعكس ذلك ، ولكنها ردت قائلة :

ـ إننى مسئولة عن فنى أمام الجمهور ، وليس هو المسئول .

فقلنا لها :

ـ أبـدا . . فعندمـا غنيت لبليـغ وغيره ، لم يحاسبك الجمهـور ، بل إنها مسئولية الملحن ، وليست مسئوليتك . كما أنك لم تفشلى مع أى ملحن . . ولكن المسألة انتهت عند هذا الحد . . ولم يحدث أن أثير هذا الموضوع مرة أخرى . »

الفصـل الثالث
أم كلثـوم والشـعر

قالت أم كلثوم [٦] :

« أعتقد أن أهـم ما يمكـن أن يكتب عنـى بعد مـوتى ، أننـى نقلت الجمهـور من الإسفـاف الغنائى الـذى كان يعيشـه . . من أغـانى : ارخـى الستارة اللى فى ريحنـا ـ أحسـن جيرانـك تجرحنـا » . . إلى مستـوى « إن حالى فى هـواهـا عجـب » و« الصـب تفضحه عيونه » و « رباعيات الخيام » . وقـد كان إصرارى على خوض هذه المعركة ، أننى ، وأنا وافـدة على القاهرة من ريـف المنصورة ، غنيت مرة للجمهـور «سبحان من أرسله ـ رحمة [illegible] إ، من يسمع » ، فصفر الجمهـور وراح يصيح « عاوزين هـات القزازة واقعد لاعبنى » . وليلتها لم أغضـب من الجمهور . . فإنه معتاد على مـا يقدم إليه . . وفكرت فى أن أعوِّده على أشياء أخرى .

كنت قـد بدأت رحلتى مـع الشعر والأدب ، وأنا فى طهاى الـزهايرة . فقـد وقع فى يـدى فى تلـك الأثنـاء كتـاب « النظـرات والعبرات » للمـرحـوم « مصطفـى لطفـى المنفلـوطـى » ، فتلقيـت عبـاراتـه . وكنـت قـد تـذوقـت قبلـه طبعـًا آيـات القـرآن الكريم ، الـذى حفظته قبل أن أبلغ العـاشرة من عمرى . وإليه أعـزو الفضل فى أننى تعلمت مخارج الألفاظ . . وفهم المعنى بل إن إنشـاد القرآن هو أول ما جعلنى أتعلق بالغناء ، وأتعلم كيف يتموج الصوت ، وكيف أصعد به على طبقات .

والواقع أن الذى نقلنى إلى حب الشعر وتـذوقه هو « أحمد رامى » . فقد التقيت به حوالى عـام ١٩٢٢ ـ جاء بـه صديق لـه « محمد فاضـل » ، كان قد دعـاه ليستمع إلى إحدى حفلاتى التـى كنت أقدمها فى الأزبكية . وكان عائدًا لتوّه مـن باريس بعد أن

أتم دراسته . ولكى أحييه غنيت له قصيدة « الصب تفضحه عيونه » . . ولم يتح لنا أن نلتقى على الفور بعد ذلك ، لأننى سافرت إلى مصيف رأس البر . فلما عدت اتصلت به ، وقلت له إن الجمهور يجب أن ينتقل من الأغانى المسفة التى يسمعها ، إلى القصائد والشعر العظيم على مراحل . فقال رامى : ولكنى أعددت لك قصيدة «إن حالى فى هواها عجب » .

قلت بعد أن قرأت كلماتها : تبدو فى كلماتها السهولة . . . سوف أغنيها ، ولكنى أفضل أن تستعمل فى كلمات الأغانى ما هو سهل ومتداول . . ما يمكن أن يفهمه الناس دون عناء .

فقال باحتجاج : هو هو الذى يسمعه الناس الآن .

فقلت : أنا أريد خطوة أبعد ، خطوة أوسع . . . أريد لغة مثل لغة الصحف . . يفهمها كل الناس ، فلا هى إسفاف . . ولا هى ألغاز .

وقدم لى رامى أغنيات : « إنت فاكرانى ولا نسيانى » و « إن كنت أسامح وأنسى الأسية » . ثم انتقل من هذه الطقاطيق إلى معلقاته الغنائية :

« سهران لوحدى » - « غلبت أصالح » - « جددت حبك ليه » - « يا ظالمنى » - «ياللى كان يشجيك أنينى » - و « هلت ليالى القمر » .

واستطاعت هذه الأغانى بألفاظها السهلة أن تأخذ الجمهور بعيدا عن أغانى الإسفاف التى سادت زمنا .

ولكن يبقى « لرامى » فضل آخر ، هو أنه جعلنى أتعلق بالشعر . فقد كان يعمل فى دار الكتب . وكان يحضر لى دواوين الشعر فأقرأ . أقرأ بصوت عال . فأسمع موسيقى الشعر . وأناقشه فى المعانى ، فيضيف إلى ما فهمته . وأحس أننى أغوص إلى أعماق جديدة فى بحور الشعر .

وعلى يد « رامى » قرأت الأغانى فى أحد عشر جزءًا . وقرأت كليلة ودمنة - وقرأت لكل الشعراء القدامى ، حتى تمنيت يوما أن أكون شاعرة . وأحس رامى بهذا . . وكان

يقول لى : لا عليك أن تكونى شاعرة ، إن تذوق الشعر وحده موهبة .

ولعل هذا التذوق، وحفظ ألوف الأبيات الشعرية بين قديم وحديث ، هو الذى أعاننى بعد ذلك على أن أختار من قصيدة فيها مائتا بيت، ثلاثين بيتا أغنيها ، فلا يحس المستمع أننى قفزت من بيت إلى بيت . . فتركت عشرة أبيات أو عشرين بيتا . بل لعل هذه الرحلة مع الشعر هى التى مكنتنى من أن أضع كلمة ـ مكان كلمة ـ فى قصائد كثيرة ، أو أغنيات كثيرة ، فلا يحتج أصحابها لأنهم لم يحسوا أننى قصمت ظهر بيت . . . أو غيرت المعنى .

وإذا كان الشعر موسيقى . وقد غاص فى أعماقى الكثير من هذه الموسيقى ، فإننى أؤكد أن تصرفى فى اللحن كلما أعدت غناءه ، مرجعه إلى هذه الأعماق الزاخرة بموسيقى الشعر ، التى لا تفترق فى شىء عن موسيقى الآلة الموسيقية . ولو راجعت أغنية طويلة غنيتها خمس مرات فى خمس حفلات ، فإنك لن تجد كل مرة مثل الأخرى . . لأنى لست أسطوانة تدور ، بل إنسانة تنفعل بما تقول .

وأحمد رامى هو من جعل للأغنية بداية ونهاية ـ جعل لها وحدة تشبه وحدة القصة المكتوبة ، يشوقك السطر الأول فيها إلى السطر الأخير . وهذه المدرسة الراقية قلدها عشرات بعده ، فلم يغضب . بل لقد تعاونت مع عشرات غيره فما احتج . وظل ينفعل فيضع أغنياته لى التى تتفوق دائما فى رقتها . . والتى تعرفها من أول شطرة فى أول بيت منها . وحين رحنا ننتقى من رباعيات الخيام بدا حائرا . فالشاعر يحس أن من يحذف من قصيدته بيتًا يقطع من لحمه قطعة . ولهذا نحيته عن المهمة الصعبة ، وقمت أنا بالاختيار. فارتاح إلى النتيجة . ولعل رباعيات الخيام من أحلى ما غنيت على الإطلاق.

واستطاع أحمد رامى أن يضع بالكلام السهل الممتع صورًا أخاذة ، ومعانى رائعة حين قال :

من كتر شوقى سبقت عمرى   وشفت بكره والوقت بدرى . .

كذلك جاءت أبياته :

فضلت أعيش بقلوب النـاس   وكـل عـاشق قلبـى معـاه
شربوا الهوى وسابـوا لى الكاس   مـن غير نديـم أشرب ويـاه . »

وروت أم كلثوم عن بيرم التونسى . . فقالت :

« . . فضلا عن شاعرية بيرم ، فقد كـان « دودة كتب » كما يقولون . كان يقرأ فى كل اتجاه . . والحقيقة أننى كنت أستفيد من قعداتى معـه ، لأنه موسوعة . وكانت له طباعه التى تدل على الكبرياء والأنفة . وكنـت أعرفه من أول كلمة يقولها ، إذا تحدث بالتليفون . وكانت عادته أن يقول كل طلباته فى بضع كلمات ، ثم ينهى المكالمة قبل أن أجيب بكلمة .

كان بيرم يقول دائما إن التليفون اخترعوه لقضـاء الحاجة . وقضاء الحاجة لا يحتاج لأكثر مـن دقيقة كلام . وكنـت أدعوه إلى بيتى لأسمعـه وهو يتحدث عـن البخلاء ، ويروى مـن نوادرهـم ، ويقول الشعـر الذى يهجوهـم . ولكنه إذا انتهـى من حـديثه سكت . فلا يتكلم إلا إذا دفعته للكلام دفعًا .

وكان الذين لا يعـرفونه يتصورونه فظا . . مع أنه رقيـق الحاشية . مرة طلب إلى أن أوصله إلى بيته بسيارتى . فقلت : يوصلـك السائق . فقال بصراحة : بل وأنت معى ، حتى تـراك القهوة التـى أجلس عليهـا ، والحارة التى أسكـن فيها . وكنـت أردد دائما فكاهاته . فلما أقيمـت لى إحدى حفلات التكريـم وقف يقول : يا بـاسطة كل الناس وفاضحانى . »

وتستطرد أم كلثوم فى حديثها فتقول :

« . . غنيـت لعشرين شـاعرا غير هـؤلاء . غنيت « هـذه ليلتى » لجورج جـرداق اللبنانى ، و « البنـدقية » لنزار قبانـى السورى . . و « أغدا ألقاك » لآدم السـودانى ، و« ثـورة الشـك » لعبـد الله الفيصـل السعـودى « ودارنـا يـا دار » لأحمد العـدوانى

الكويتي . . فإنني أحس أنني مطربة كل البلاد العربية . . وخطتي أن أغنى لشاعر من كل بلد .

لقد غنيت لكل شعراء مصر تقريبا . . غنيت لصالح جودت « ثلاثيته المقدسة » وشعر صالح فيه رائحة شعر ناجي . . فضلا عن أنه رفيق « رامى » . وغنيت لمأمون الشناوى ، وعبد الفتاح مصطفى ، وعبد الوهاب محمد ، ومرسى جميل عزيز . أما أحمد شوقى . . فهو أمير الشعراء حقا » .

وعن لقائها مع أحمد شوقى قالت :

«التقيت بأمير الشعراء أحمد شوقى فى أواخر أيامه . وكانت أول مرة رأيته فيها فى محل سولت فى شارع فؤاد القديم بجانب شيكوريل . وكان معه « محمود فهمى النقراشى (باشا) والدكتور « محجوب ثابت » . وقد دعانى إلى الغناء فى الفيللا التى كان يسكنهـا على النيل حاملة اسم « كرمة ابن هانئ » ، فذهبت مع أبى وأخى . وغنيت ليلتها كما لم أغن من قبل ، ورأيته يتمايل طربا . ولكنه يقطع النشوة التى هو فيها فيختفى لدقائق ثم يعود إلينا ساهما . ولم أكن أدرى لماذا يختفى ، فهمس أبى فى أذنى ، إنه إلهام شعر يجيئه ، فيقوم ليدّون شيئا ثم يعود . وفى صباح اليوم التالى ، جاءنى من يقول :

الحقى يا ست . . شوقى بك أمام الباب الخارجى . . فهرولت لأجده . . كان وجهه مضيئا بابتسامة طيبة . وقد دفع إلى بمظروف . . وهو يقول : هذه هدية متواضعة تعبر عن إعجابى .

وترددت . . فقد ظننت المظروف ينطوى على أجر لى . ولكنه قاوم ترددى حين قال :

ـ لم أتكلف فى الهدية شيئا . . إنها من وحيك .

وفتحت المظروف لأجد قصيدة :

سلوا كئوس الطلا هل لا مست فاها
واستخبروا الراح هل مست يداها

ولكنى لم أغن الأغنية فى حياته . . غنيتها بعد موته . . وغنيت له بعد موته عديدا

من قصائده منها :

سلوا قلبى - وريم على القاع - وولد الهدى - إلى غير ذلك .

وكنت أقتنى دواوينه ، وأضعهـا بجانب فراشى قائلـة : إن ثروة مثل هذه يجب أن تكون دائما فى متناول يـدى . وكانت قصائد شـوقى آخر ما يحتضـن عقلى وعينى قبل النوم . وكنت لا أكاد أسمع عن مسرحية مما كتب تمثل فى مسرح الأوبرا ، حتى أذهب لرؤيتها عدة مـرات . ولست أنسى على وجه الخصوص « مجنون ليلى » ــ و « وأنطونيو وكليوبـاترة» . وقد رأيت فى أدوار البطـولة الفنانة العظيمـة « فاطمة رشدى » والفنـانة القديرة « أمينـة رزق » . فأنا متعصبة لشـوقى تعصبا لا حد لـه . . فلم يجد ولن يجود الزمان بمثله . إننى أضعه فى مرتبة تسبق مراتب البحترى . . والشريف الرضى ، وعمر ابن أبى ربيعة . ما أروعه وهو يقول :

وما نيـل المطـالــب بالتمــنى ولكـن تؤخـذ الدنيـا غلابـا

أو وهو يقول فى قصيدة النيل :

« والأرض تفرقها فيحيا المفرق »

أو وهو يضع دستور الأخلاق فى بيت :

إنما الأمــم الأخـــلاق مـا بقيــت فإن همو ذهبــت أخلاقهـم ذهبوا

ومرة كنا فى بيـت « شارل حلو » رئيس جمهوريـة لبنان السابق . وكـان التليفزيون ينقل حوارا بين أناس يقـارنون بين شوقى ومطران . فغضبت ، وقلـت لهم : شوقى لا يقارن بأحد . . لأن المقـارنة فيها ظلم لهذا الأحد . وضربت المثل ليلتها بـروعة شوقى حين اغترب فى المنفى . وكان فى الأندلس فأرسل قصيدته :

يا نـائح الطلح أشبـاه عوادينـا ناس لـواديك أم نـاس لوادينـا

حتى يقول :

مسكيـة الذيـل لو خلنـا غلالتهـا قميص يوسف لم نحسـب مغالينا

وبين ما يقوله شوقى وآذان المستمعين جسر من حب وشغف . فهو الشاعر الجزل

السهل . ولكنـه أحيانـا يقول شعرا رصيناً يحتاج فى فهمه إلى جهـد . وعندمـا غنيت قصيدة « ولد الهدى فالكائنات ضيـاء » كنت مترددة لأنها صعبة . ولكنى غنيتها لأنها أخذتنى بمعانيها الصوفية العميقة .

وذات ليلة كنت فى الإسكندرية وذهبت إلى كـازينو الشاطبى ذات مساء . . هناك تتنـاثر الملاهـى التـى تقدم الفنـون المختلفة . وبلـغ سمعـى من ميكـروفـون مرتفـع الصوت . . صوت مطربة تغنى :

أبا الزهراء قد جاوزت قدرى . . .

وليلتها أحسست بسعـادة لا توصف ، لأن معنى ما سمعت ، أن شـوقى أثير عند الناس فى كل ما قال . »

وعن حافظ إبراهيم قالت :

«مرة طلبوا منـى أغنية وطنية . . وقالوا لى : كلفـى من تشائين من شعـراء الأغانى لينظم قصيدة فى أسرع وقت . . لتغنيها فى أقرب فرصة .

فلما عدت إلى البيـت تذكرت أننى أحفـظ لشاعر النيـل « حافظ إبراهيـم » قصائد رائعة . . وعكفـت على ديوانه . . وانتقيـت قصيدة من ديوانـه . ورحت أختار أبيـاتا تغنى مـن بين أبياتها العـديدة . وقبل أن أنـام . . . فى الرابعـة فجرا . . كنـت أدندن باللحن بيته الرائع :

أنـــا إن قـــدر الإلـــه ممـاتـــى   لاتـرى الشرق يرفـع الرأس بعـدى

وعندما وقفت لأغنـى القصيدة أحسست أننى وفيت دينا فى عنقـى لشاعر لم أره . ولكن من حقه على أن أحمل رائعة من روائعه إلى الجماهير العربية » .

وعن الشاعر على الجارم قالت :

«من شعـراء القصيدة الـواحدة فى حيـاتى المرحـوم « على الجارم » الذى كـان كبير مفتشى اللغة العربية . كان فى شعره فحولة الشعراء القدامى . ولما كان د . النجريدى عاشقًا للموسيقى ، فقد اختار لى مـن أشعار الجارم . قصيدة : « مالى فتنت بلحظك

الفتاك » . . ولحنهـا لى . . ولا أنسى هذه القصيدة فقـد كانت أول أسطوانـة سجلتها عام ١٩٣٦ » .

وعن د . إبراهيم ناجى قالت :

«ولا أنسى الشـاعر الدكتور « إبـراهيم ناجى » . . وقـد رأيته حين كان يزور نقـابة الموسيقيين ، وكان يبدو بائسا محطما . يجلس إلى الموسيقيين ، فتحس أنه يطوى صدره على قصة حب بلا أمـل . ولم نتحدث فى الشعر مرة واحدة . ولكنى كنـت أحس فيه رقة المشاعـر التى لابد أن تؤتى ثمارًا فنية طيبـة ، سواء شعرية أو موسيقيـة . وقرأت له ديوانه بعد أن مات . ووقفت عند الأطلال :

« وهل رأى الحب سكارى مثلنا »

ودفعت بالقصيدة إلى رياض السنباطى الذى قال :

ـ «ستكون الأطلال حدثا فنيا . . لا نظير له » .

ولعل الذى يميز ناجى صدق إحسـاسه ، فإن صدق الإحساس هو شرط النجاح فى أى عمل فنى . »

يقول مصطفى أمين :

« تعلمـت أم كلثوم مـن شـوقى أمير الشعـراء ، ومن أحمد رامـى ، ومـن إبراهيـم ناجى ، ومن العقاد ، ومن المتنبى ، ومن أبى العلاء . وكانت تجلس أمام كل واحد من هؤلاء أشبه بتلميذة . وكانت تجلس فى غرفة نومها تحفظ الشعر وكأنها ستتقدم فى اليوم التالى لامتحان صعب .

ولم تكن أم كلثوم فى معظـم حياتها الفنية مجرد مطربـة تردد أغانيها لمجـرد التطريب والشهرة . . وجمع المال ، وإنما قيمة أم كلثوم الحقيقية فى أنها كانت فنانة ملتزمة .

والملاحظ أنه منذ عام ١٩٢٢ عندما نزحـت أم كلثوم إلى القاهرة ، التف من حولها خيرة الأدباء والشعراء والموسيقيين . . مفتونين بجمال صوتها . كل منهم يبذل ويعطى من عصـارة روحه أجمل الكلمات ، لتشـدو بها صاحبة الحنجـرة الذهبيـة . . فتطرب الملايين . »

لقاء أم كلثوم وأحمد شوقى :

كانت أم كلثوم على علم بالصلة القوية التى جمعت أمير الشعراء بالفنان محمد عبدالوهاب . وعلى الرغم من أنها أعجبت بشدة بديوان أحمد شوقى ، فانها لم تقدم على غناء إحدى قصائده ، نظرا لاهتمام شوقى بمنافسها على عرش الغناء « محمد عبدالوهاب » .

دعا أحمد شوقى أم كلثوم لحفل أقامه فى فيلا « كرمة ابن هانئ » عام ١٩٣١ ، وفيه غنت طقطوقة « اللى حبك يا هناه » (زكريا أحمد) . أعجب أحمد شوقى بصوت أم كلثوم وأدائها . . فنهض من مكانه وقدم للفنانة كأسا من الشراب ، رمزا للتحية والإعجاب . وأحرجت أم كلثوم . وتأدبا منها لهذا الرجل العظيم ، أمسكت بالكأس ورفعته إلى فمها دون أن تمس شفتاها الخمر . ثم أعادت الكأس إلى مكانه . وفى اليوم التالى، ناول أحمد شوقى أم كلثوم أبياتا من الشعر مكتوبة بخط يده يقول فيها :

سلوا كئوس الطلا   هل لا مست فاها
واستخبروا الراح   هل مست ثناياها

وقيل إن شوقى صرح باسم « أم كلثوم » فى القصيدة مرتين : أولاها فى البيت «سل أم كلثوم من بالشرق طارحها » والذى غنته أم كلثوم : «حمامة الأيك من بالشوق طارحها » . والمرة الثانية فى البيت الأخير حين قال : « يا أم كلثوم أيام الهوى ذهبت » والذى غنته أم كلثوم :

يا جارة الأيك أيام الهوى ذهبت   كالحلم آها لأيام الهوى آها

قرأت أم كلثوم هذه الأبيات وحفظتها فى مكتبها ، ولم تجرؤ على غنائها إلا فى منتصف الأربعينيات ، بعد وفاة أمير الشعراء ، فدفعت القصيدة إلى رياض السنباطى ، ليصنع منها تحفة غنائية . وغنت أم كلثوم هذه القصيدة عام ١٩٤٦ وسجلتها على أسطوانة كايروفون .

ومن العجيب أن هذه القصيدة لا وجود لها فى الأجزاء الأربعة من ديوان

الشوقيات . ولـولا احتفاظ أم كلثوم بالورقة المدون بها نـص القصيدة ، لا نضمت إلى الشوقيات المجهولة أو الضائعة .

غنت أم كلثوم مـن أشعار أحمد شوقى تسـع قصائد . لم تكن قصيدة سلـوا كئوس الطلا أولى هذه القصائد . وإنما غنت أم كلثوم عام ١٩٣٦ قصيدة « الملك بين يديك فى إقباله » وذلك بعد وفاة أحمد شوقى بـأربع سنوات ، ثم تلتها قصيدة « سلوا كئوس الطلا » .

وقصيدة « الملـك بين يديك فى إقبالـه » كان شوقـى قد ألفها عام ١٩١٠ ، مـدحا للسطان محمد رشاد الخامس الذى كان يحتفل بعيد جلوسه على عرش السلطة والخلافة العثمانية ، بعد السلطان عبد الحميد الثانى المعزول عام ١٩٠٨ .

أعجبـت أم كلثـوم بهذه القصيـدة ، وعهـدت إلى السنبـاطـى بتلحينهـا ، وغنتهـا بمناسبة تـولى الملك فاروق سلطته الدستـورية عام ١٩٣٦ . وعرفـت بقصيدة « عرف الدهر » .

ومن شعر أحمد شوقى غنت أم كلثوم قصيدة « أتعجل العمر » و « النيل » و « بأبى وروحى » التى غنتها أم كلثوم بمناسبة توقيع معاهدة الجلاء ، بين حكومة الرئيس جمال عبد الناصر ، والحكومة البريطانية .

وأول قصيدة دينية غنتها أم كلثـوم من شعر أحمد شوقى هى : « سلـوا قلبى » التى ألفها شـوقى فى العشرينيـات مدحـا فى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلـم ـ فى ذكـرى مولده . جاء الجزء الأول من القصيدة فى الـوعظ والحث على الكرم والبعد عن الشر ، والدعوة إلى طلب العلم . وجاء فى ختام القصيـدة ذكر النبى عليه الصلاة والسلام ، منوها بأنه هو الذى علـم الإنسان بنـاء المجد حتى صار سيد الدنيا . . فى البيت الذى يقول فيه :

وعلمنـا بنـاء المجـد حتى　　أخذنا إمرة الأرض اغتصابا

ويُروى أنه عندما غنت أم كلثوم البيت الشعرى :

وما نيــل المطـالــب بالتمــنى ولكـن تؤخـذ الدنيـا غلابـا

وكان ذلك بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، أن نهض المستمعون يطالبون المحتلين بجلاء قواتهم عن أرض مصر .

وبعد نجاح قصيدة « سلوا قلبى » ، غنت أم كلثوم قصيدة « نهج البردة » و « ولد الهدى » و « إلى عرفات الله » وهى القصيدة التى امتدح بها شوقى الخديوى عباس حلمى الثانى ، عندما سافر إلى مكة لأداء فريضة الحج .

والقصائد التسع التى غنتها أم كلثوم من شعر أحمد شوقى لحنها رياض السنباطى .

ودفعت أم كلثوم لورثة أحمد شوقى ألف جنيه عن كل قصيدة سجلتها من شعره .

وبقصائد أحمد شوقى نقلت أم كلثوم الشعب ـ الذى تعوّد أن يستمع إليها فى أغان باللهجة العامية القريبة إلى الشعبية مثل : « إيه اسمى الحب » و « الأوله فى الغرام » وكلها من كلمات بيرم التونسى وألحان زكريا أحمد ـ إلى قصائد جادة .

وأدخلت أم كلثوم بعض التعديلات فى أشعار أحمد شوقى . ففى قصيدة « نهج البردة » غيرت أم كلثوم كلمة واحدة فى البيت الذى يقول فيه شوقى :

لقد أنلتك أذنا غير واعية ورب منتصت والقلب فى صمم

طلبت أم كلثوم من الشاعر أحمد رامى تغيير كلمة منتصت ، فاستبدلها رامى بلفظ « مستمع » .

وعام ١٩٤٦ ، غنت أم كلثوم قصيدة نظمها أحمد شوقى فى العشرينيات ، عندما أطلق أحد الشبان الرصاص على سعد زغلول ، لاعتزامه السفر إلى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية حول قضية الجلاء والاستقلال .

وتبدأ هذه القصيدة بأبيات تعبر عن الفرح لنجاة الزعيم والتهليل لشفائه من جرحه البسيط :

نجـــا وتماثـــل ربـــانها ودق البشـــائر ركبـــانها
تحـــول عنهـــا الأذى وانثنـــى غيـــاب الخطـــوب وطوفانهـــا
وفى الأرض شـــر مقـــاديـــره لطيـــف السمـــاء ورحمانهـــا

ونظرا لأن هذه القصيدة قدمت بمناسبة الوحدة بين مصر والسودان ، فقد حذفت أم كلثوم بعـض الأبيات . وأخذت أبياتـاً أخرى قالها شـوقى عن السودان . وبـذلك جمعت أم كلثوم فى أغنيتها بين وحدة مصر والسودان .

والمعروف أن أم كلثوم لم تكن دائما تأخذ قصيدة كـاملة من ديوان شعرى واحد . . وإنما كثيرا ما كانت تجمع بين أكثر من قصيدة فى عمل واحد كى يطابق الزمن والمناسبة التى تتغنى بها . ووجدت أم كلثـوم فى قصائد شوقى القديمة مـا يتمشى مع الحوادث الجديدة . . وكانت من أشد المعجبات بأشعار أحمد شوقى .

ومن أشعار شوقى غنت أم كلثوم قصيدة « النيل » :

من أى عهد فى القرى تتدفق وبأى كف فى المدائن تغدق

وكان شـوقى قد أهـدى هذه القصيدة إلى صـديقه المستشرق « مرجليـوث » أستاذ اللغة العـربية وآدابها فى جامعـة أكسفورد . اختـارت أم كلثوم من بين هـذه القصيدة الطويلة التى تزيد أبياتها على مائة وخمسين بيتا ، بضعة أبيات لحنها رياض السنباطى فجاءت درة نادرة .

لقاء أم كلثوم بأحمد رامى :

فى يوليو عام ١٩٢٤ التقت أم كلثوم بالشاعر أحمد رامى . . ولهذا اللقاء ذكرى بل ذكريات عزيزة فى قلب ووجدان شاعر الشباب . . فهو يقول : « بينما أنا أدرس اللغة الفارسية فى بـاريس عام ١٩٢٤ ، نما إلى علمى أنـه ظهر فى سماء مصر كوكب جـديد من كواكب الفن ، فتاة فى ميعة الصبـا تغنى القصائد والموشحات . وقيل لى إنها تغنى

قصيدة من قصائدى مطلعها « الصب تفضحه عيونه » ، أخذتها عن عميد الغناء فى ذلك الحين ، المرحوم الشيخ أبو العلا محمد ، الذى أخذ الغناء عن فقيد الفن عبده الحامولى . وأثار هذا الخبر فضولى . فكان أول همى عند عودتى إلى الوطن ، أن أسمع ذلك البلبل الجديد . فأخذت أبحث عن كيفية سماعها ، وكانت تغنى فى « حوش » صغير بحديقة الأزبكية . فإذا جمع محتشد ينتظر حضور هذه الشادية . وما إن هلت على الحاضرين، حتى تطلعت الأنظار إليها ، وأرهفت الأسماع . وبدأت تنشد ، فإذا صوت ساحر ، وإذا خفة ظل وبشاشة وجه ، وإذا طرب ينساب ويحمل النفوس إلى أجواء ساحرة .

وتقدمت إليها معرفا نفسى ، راجيا منها أن تغنى قصيدتى ، فلبت طلبى ، وهى فرحة للقاء ذلك الشاعر الذى غنت شعره قبل أن تتعرف عليه .

وأجادت ما تمكنت لها الإجادة ، واستمعت لها وأنا فى ذهول من هذا الصوت النادر الذى يتردد فى جنبات الحديقة . وعدت إلى منزلى فى تلك الليلة ، ولا يزال يتردد فى سمعى رجع تلك الشادية ، ولم يستقر لى قرا ر حتى لقيتها مرات تالية ، نهلت فيها من ينبوع ذلك النغم الذى أشبع روحى ، وأمد خيالى بالصور الجميلة ، وغذى نفسى وخاطرى ، وجاد بالوحى والإلهام . فنظمت لها عشرات الأغانى التى أصبحت تجرى على الألسن ، وتتردد فى سماء مصر وكافة الأقطار العربية . وشرف اسمى بالاقتران باسمها . . فأفسحت لى إلى جانبها مكانا فى سجل الخلود » .

ومن وحى أم كلثوم نظم أحمد رامى ثلاث قصائد :

القصيدة الأولى (*): ونظمها فى عام ١٩٢٤ ، والثانية أيضا فى السنة نفسها . أما الثالثة فقد نظمها سنة ١٩٣٢ فى مؤتمر الموسيقى العربية .

(*) نظمها فى ١٤ سبتمبر عام ١٩٢٤ أثناء سفر أم كلثوم إلى رأس البر . ولما عادت قدمها إليها فى إحدى حفلاتها بكازينو البوسفور .

القصيدة الأولى

صوتك هاج الشجو فى مسمعى — وأرسل المكنون من أد معى
سمعته فانساب فى خاطرى — للشعر ثـرةُ المنبع
ودب فى نفسى دبيب المنى — والبرء فى اليأس والموجع
سلوى من الدنيا تعزّى بها — قلب شديد الخفق فى أضلعى
طال به السهد كأن الدُّجى — ضلّ به الفجر فلم يطلع
حتى إذا غنّيت ذاق الكرى — ونام نوم الطفل فى المضجع

كأنما لفظك فى شدْوه — منحدر من دمعِيَ الطيّع
فيه صباباتى وفيه الضنى — يشكو تباريح فؤادى معى
نظمت أشعارى وغنيتها — منظومة الحبّات من مدمعى

أودعتها الشكوى فما رق لى — من راح بالقلب ولم يرجع
ولو تغنيت بها عنده — عاد إلى الود ولم يقطع
حسبى من الشعر ومن نظمه — صوتك يسرى فى مَدَى مسمعى
غنى وخلى الدمع يروى الذى — قد جف من نفسى ولم ينبع
لعلَّ فى صوتك إحياء ما — دفنت من حبى ومن مطمعى

والقصيدة الثانية (*)

يا من شعرت بنسيب — ناجيت فيه حبيبى
ورددت من شكاتى — ورجعت من نحيبى
وأودعت فى الأغانى — تنادى حبى وحبيبى
أنضرت غصن الأمانى — وكان غير رطيب
فجّرت عين خيالى — من بعد طول النضوب
أغنت حزن فؤادى — بصوتك المحبوب

(*) نظمها فى ١٨ سبتمبر ١٩٢٤.

وكنـــت مـــألـــف حسـّـى … وظـــل روحـــى الغـــريـــب
شـــاطـــرتنـــى مـــا ألاقـــى … فى العيـــش مـــن تعـــذيـــب
وكنـــت فى البـــث عنـــى … شريكتـــــى فى نصيبيـــــى
فخـــف عـــبء همومـــى … وهـــان حَمْلُ خطـــوبـــى
وزال مـــن ليـــل سهـــدى … خيـــالُ تلـــك الكـــروب
وآنـــس اليـــوم قلبـــى … نجيّـــه فى القلـــوب
حتـــى غنيـــت بنجـــوا … ك مـــن هـــوًى وحبيـــب

والقصيدة الثالثة (*) :

كـرُمـت دوحـة رعـت أم كلثـوم … وجـادت بظلهـا الفينـان
فهـى قمـرية تغنـت على الفـرع … ولما تهمّ بـالطيران
ثـم أنـّت ولم تكـد تعـرف الـدمـع … متـى فيضـه مـن الأجفـان
واستوى ريشها فخفـت على الأيك … وحـامـت على الـرُّبـى والمغـانـى
تبعـث الشجْوَ فى النفـوس وتلقـى … سحـرهـا فى القلـوب والآذان
رنـة العـودِ شـدوهـا وهـداهـا … حنـّةُ النـاى أو أنين القيـان
خُلِقـَتْ آهـة فكـانـت عـزاءً … مـن هموم الحيـاة والأحـزان
وجـرت دمعـة فكـانـت شفـاءً … للمعَنــًى ورحمة للعـانـى
وسرت أنـَّه فكـانـت غنـاءً … يطلـق الـروح فى سماء الأمـانـى
وبـراهـا الخلاق مـن خفـة الظـلِّ … ومـن رقـة النسيـم الـوانـى
وتـرا مطـرب الحنين أغنـّا … ولهاةٌ كـالخالـص الـرنـان
تـرسـل الشعـر منطقـا عـربيـا … بين الأى واضـح التبيـان
تتنـاغـى الألفـاظ فيـه مـن … النطـق سليما وتستبين المعـانـى
فـإذا صـورة تجلـت إلى العين … وغـابـت فى مستقـر الجنـان

(*) ألقاها رامى فى الحفل الذى أقامه معهد الموسيقى العربية بعد انتهاء أعمال مؤتمر الموسيقى العربية الذى عقد بالقاهرة عام ١٩٣٢ . . وغنت أم كلثوم قصيدة : (أفديه إن حفظ الهوى أوضيع)

أغانى رامى لأم كلثوم (مواقف إنسانية ـ ورسائل حب) :

لم يتقاض أحمد رامى نقودا على ما ألف من أعمال لأم كلثوم . . . باستثناء أغانى الأفلام ــ التى يقوم المنتج بدفعها . . وليست أم كلثوم . كان يوم الاثنين من كل أسبوع . . لقاء القلبين .

وجاءت أغانى رامى لأم كلثوم تجارب عاشها . . عبر عنها بالكلمة ، وغنتها حنجرة أم كلثوم . . عبرت عن الصدق بينهما .

أيها الفلك على وشك الرحيل

إن لى فى ركبك السارى الخليل

رقرقت عيناى لما قال لى حان الوداع

وبكى قلبى مما ذاع فى الكون وشاع

(كتب رامى هذه الكلمات يودعها عند سفرها إلى أوربا)

وجاءت رسائله لها فى أوربا :

طقطوقة « إنت فاكرانى ولاّ ناسيانى » وطقطوقة « ليه تلاوعينى وإنت نور عينى» .

أما أغنية « رق الحبيب » ، فكتبها رامى وهو فى حالة صفاء .

وعندما كان رامى ذات يوم فى طريقه إلى أم كلثوم ، فتح الكوبرى فجأة ، وأحس بأنه يكاد يغرق . . وتذكر موعد الحبيب . . فحل الأمل مكان اليأس :

ولما قرب ميعاد حبيبى ورحت أقابله

هنيت فؤادى على نصيبى من قرب وصله

ولقيتنى طايل م الدنيا كل اللى أهواه

بس اللى كان فاضل ليه أسعد بلقاه

لما خطر ده على فكرى حير أمرى

والقرب سبب تعذيبى

ولقيتنى خايف على عمرى لا يروح منى
من غير ما أشوف حسن حبيبى .

وأغنية « غلبت أصالح فى روحى » نظمها رامى عندما تصالحا بعد جفوة ، وكانت يدها مريضة . . لا تقدر على تحريكها . . فكان رامى يطعمها بيده هو . . فبكت تأثرا . . ونسى رامي وغفر . . وجاء بهذه الكلمات :

غلبت أصالح فى روحى عشان ما ترضى عليك
بعد سهدى ونوحى ولوعتى بين إيديك

وفى ساعة صفاء خالصة أبدع رامى (١٩٥٢)

جددت حبك ليه بعد الفؤاد ما ارتاح
حرام عليك خليه غافل عن اللى راح

قيل عن أم كلثوم ، إنها عرفت بذكائها اللماح . . أن رامى شاعر يشغله الحرمان . فلكى تستبقى الشعلة متوهجة أمعنت فى تلويعه . . وإن كان له مكان خاص عندها .

غنت أم كلثوم لرامى أكثر من ثلث قرن . . ويقول هو : « لم يشاركنى فيها شاعر خمسة وثلاثين عاما . (من العشرين إلى الخمسين) . كان رامى صادقا . . لم يتجاوز الواقع ، إذا ما استثنينا قصائد أحمد شوقى ـ وبيرم التونسى ـ وقصيدة حافظ ابراهيم «مصر تتحدث عن نفسها » وقصيدة الأسمر « زهر الربيع يرى أم سارة تحب » .

رافق أحمد رامى أم كلثوم فى رحلتها الفنية أكثر من نصف قرن . شدت فيه من كلماته ما يقرب من ثلاثمائة أغنية وقصيدة .

قال أحمد رامى :

« سبب إعجابى بغناء أم كلثوم يرجع إلى الاتفاق التام بينى كمؤلف وبينها كمغنية ، وبين من يلحن لها قطعتى . وقد كان استمرارى معها فى أن أرضى بما يُقترح

من إضافة وحذف وتغيير . . فما دمت أقتنع بصحـة الرأى . فأنا أمثل أحد السامعين لهذا الغناء . . ويهمنى أن يكون الرضا مضمونًا عن القطعة المغناة . »

كان رامى قبل أن يلتقى بأم كلثوم ينظم القصيدة الشعرية وحدها . ولم يكن يخطر على بالـه أنه كشاعر غنـائى سينزل عن عـرش الشعر ليخاطـب جمهور الغناء بالـزجل العامى . لكن أم كلثوم وصلته القوية بها ، استطـاعت أن تجعله يطرق ميدانا جديدا يمزج فيـه الشعر بالـزجل ليكون خفيفـا على المستمع . فنظم أول مـونولوج « خـايف يكون حبك ليّه شفقه عليّه (١٩٢٧) .

كان يوم الاثنين يوم إجازة دار الكتب التى كـان رامى موظفًا بها . . كان هذا اليوم هو لقاء أم كلثوم ورامى . . يسميه هو يوم أم كلثوم ، وتسميه هى يوم رامى .

وظل يوم الاثنين فى عمر رامـى خالصا لأم كلثوم حتى بعد زواجـه . . فلم تستطع زوجته استخلاص يوم الاثنين الذى يقضيه رامى فى ضيافة أم كلثوم .

بعـد لقاء رامـى بأم كلثـوم، وضع فى إصبعـه خاتما مكتـوبًا عليـه O. K أى أم كلثوم . . وبقى هذا الخاتم فى إصبعه إلى يوم وفاته .

ألهمت أم كلثـوم أحمد رامى أحلى قصـائده ، وأعذبها . . ومـن أجلها نظـم مئات الأغانـى من الطقاطيـق والمونولوجـات باللهجة العـامية ، بعد أن كـان لا يكتب غير الشعر الفصيـح . وهو ما حـدث لأحمد شوقى مـع محمد عبـد الوهاب . . فقـد نظم شوقى العديد من الأغانى باللهجة العامية ، ليشدو بها عبد الوهاب .

وعن علاقة أحمد رامى بأم كلثوم يقول « مدحت عاصم » :

« . . كانت علاقة خاصة مثل البحار والمحيطات . . علاقة أعمق وأشمل وأقوى من أن يصفها الإنسـان ببضع كلمات . علاقة جمعـت كل أحاسيس ومشـاعر الفنان حسا وروحا . كان كـل منهما ينظر إلى الآخر نظرة خاصة ، يفلسفهـا من خلال رؤيته وحده . كان كل منهما فى حاجة إلى الآخر. لم يكن احتياجا ماديا أو أدبيا أو جسديا ، بل كـان احتياجا معنويـا فى المقام الأول . لهذا ظلت علاقتهما ذات وضـع خاص، وفى

الوقت ذاتـه احتفظت بسموها ورفعتهـا وخلودها . . تماما مثلما خلـدت أعمالهما الفنية معا .

قال رامى : (٦)

« إن أيامى كلها . . أم كلثوم . . زفافى أحيته أم كلثوم . وغنت فيه « يا نجم مالك حيران بين الغمام والليل داجى » . وفى اليـوبيل الفضى لزواجى غنـت لى : « هجرتك يمكن أنسـى هواك » و « أودع قلبك القاسـى » . عشق أحمد رامى صـوت أم كلثوم ، وراح يأخذ منه الإلهام ويقدم له الإبداع . . يقول رامى :

« إنك إذا أردت أن تكون شاعرا ، فاقرأ الشعـر الجيد من الشعر العربى والعالمى ، وأكثر من الاستماع إلى أم كلثـوم . ذلك لأنها تجلو الألفاظ وتجعلهـا واضحة شجية » . وقد وجدت أم كلثوم الفرصة للعودة إلى المدرسة والجامعة التى تعلمت فيها . . جامعة الشيخ أبو العلا الـذى قدم لها مجموعة من القصائد الغزليـة ، ذلك أنها قد وجدت فى ألحان السنباطى لهذا اللون الغنائى ما يناسب صوتها وثقافتها وقدرتها الغنائية . وقدمت من ألحانه مجموعة كبيرة من أعمال كبار الشعراء العـرب القدامى والمعاصرين . من هذه القصـائد : «ثـورة الشك » و « النيـل » و « مصر تتحـدث عـن نفسها » و«مـن أجـل عينيك» و « غداً ألقاك » و « ورباعيات الخيام » وغيرها .

خلاف بين أم كلثوم ورامى :

أقام معهد الموسيقى الشرقى حفـلا كبيرا ، تكريما لأم كلثوم ، وذلك عام ١٩٣٢ . وقام أحمد رامى بـإلقاء قصيدة تكريما لأم كلثـوم . واتهمت مجلة روز اليوسـف (العدد ٢٦٦ فى ١٣/ ٦/ ١٩٣٢) أحمد رامى بأنها نفس القصيدة التى كان قد كتبها تمجيدا فى محمد عبد الوهاب . ونشرت روزاليوسف القصيـدتين فى مكان واحد من المجلة لتؤكد التكرار . وجـاء عنوان المقال : « الشاعـر أحمد رامى يهين أم كلثوم » . وتوسـط المقال صورة كاريكاتورية لرامى يقدم لأم كلثوم القصيدة ملفوفة قائلا : « إلى ثومه . . إلى إلهة الوحى . . أقدم هذه القصيدة » . فيرد عليه عبد الوهاب حائلا بينه وبينها :

« حاثب ياثى رامى ، انت بتعطيها قثيدتى أنا »

وعندما التقت أم كلثوم برامى ، واجهته قائلة :

« أنا متأسفه اللى عرفتك » .

وتقول د . نعمات فؤاد (٨)

« وأصاب السهم قلب الشاعر المحب فـأدماه . وقفل الرجل عائدا إلى بيته . وآل على نفسه ألا يسعى إليها بعد يومـه هذا ، ولا يجدد لها عهدا . بل حرم على نفسه سماع الراديو حين يذيع لها لحنا .

من أنـت حتى تستبيحـى عزتـى ... فـأهين فيك كـرامتـى ودموعـى

وأبيـت حـران الجوانـح صـاديـا ... أصلى بنـار الوجـد بين ضلوعـى

أعمى عن الحسن الذى هامت به ... نفسـى وطـال إلى سنـاه نـزوعـى

وأصـم عن نغـم عشقت سماعـه ... أيـام كـان القلـب غير سميـع

ترى أى حسن ؟

ثورة عاتبة أعلنت عن نفسها بكلمتين (من أنت ؟)

لقد طارت على أجنحة شعره ، وسمت إلى سماء الأدب ، ببدائع الكلمة ، وروائع المعنى ، ومنظـم القصيد . . مما أغرى الملحـن بالارتفاع بـالإبداع ليتسابق اللحـن مع اللفظ التياه ، ويتواءم النغم مع توشيح الشعر وفن الشاعر » .

وظل الرجل فى عزلته ثمانية شهور يتمزق فى صمت ، ويسعى إليه الموفقون فيأبى فى شمم مستمهلا إياهم حتى يبرأ القلب الطعين . ويعاودونه فلا ترضى المعاودة كبرياءه بل تنكأ الجرح القديم . . فيرفض من جديد . وذات يوم حملوا إليه فى غضبه نبأ سفرها إلى العـراق بالطـائرة وتهيبها الطيران ، إذ لم يسبـق لها بـه عهد راجين منـه توديعهـا . . مهولين أمـر سلامتها فى السفر . ولكنـه لم يلن . والتف حولها فى المطـار المودعون . . الصـادقون والمتملقـون . . ولكنها كـانت فى شغـل عـن الجميع بـالتطلع المستخفـى والتفرس المستتر فى الوافـدين على المطار . ولكن الغائب المنتظـر عبثا يعود . ولم تفقد الأمل حتى حان موعد قيام الطائرة ، فآمنت أن الأمر أكبر مما تصورت .

وعادت من رحلتها ، وهرع إلى استقبالها الكثيرون ، ولم يكن رامى بينهم !

وطالت الجفوة ، حتى جاء يوم مرضت فيه ، وقرر طبيبها أن يستأصل لها الزائدة الدودية.

ومن جديد، سعى الساعون ليحملوه على زيارتها . وألحوا فى اليوم السابق على العملية ــ ٢٠ مارس سنه ١٩٣٣ ـ ، والعملية فى ذلك الوقت كانت شيئا رهيبا ـ باعتبارها فى رأيهم بين الحياة والموت . فأذعن ـ كما يقول الفصحاء ـ بعد لأى .

ذهب إليها رامى فى المستشفى ، وعادت المياه إلى مجاريها . ولكن حدث بعد حين أن سافرت أم كلثوم إلى أوربا . . وزار رامى فى هذه الأثناء إحدى قريباته ، وكانت لها فتاة رسبت فى الامتحان . ودار الحديث حول الشابة الراسبة ، وأعربت أمها عن رغبتها فى وقفها عند هذا الحد من الدراسة واستبقائها بالبيت .

وهنا سنح لرامى خاطر ارتسم على وجهه . . واستطاعت أخته بغريزة المرأة ـ وهى رادار من نوع فريد ـ أن تنفذ إلى الخاطر السانح . . واتجهت الأخت إلى أخيها وقالت :

هيه . . ما رأيك ؟ فقال : ولكن من أين آتى بالمال ؟ قالت . أو ليس معك ما يشترى خاتم الزواج ؟

وكان هذا هو ما يملكه رامى فى تلك الساعة ، فأعطاها إياه ، وقبل أهل العروس الوضع على هذه الصورة .

ودهش المحيطون به . . . أحقا يتزوج رامى المحب ؟ وكان جوابه :

نعم ، سأتزوج ، لأن نفسى تاقت إلى إنسان يحبنى بلا غاية . يحبنى لنفسى خالصا مخلصا . تزوجت لأنى أريد أن أسمع أعذب كلمة فى الدنيا « بابا » . وعادت أم كلثوم من أوربا وأنهوا إليها النبأ همسا « رامى تزوج » . وكان آخر خبر تتوقعه . ولكن أم كلثوم الحصيفة سكتت أمام القول ، كأن الأمر لا يعنيها . حتى إذا التقت برامى بادرته قائلة : أحقا تزوجت يا رامى ؟ فقال لها وكأنه يعتذر أو يتهرب من السؤال العاتب : « أصلها بنت يتيمة وهى قريبة لى . . حاجة على قدنا . . »

وعن حب رامى لأم كلثوم نظم :

أرادونـــى على أنـــى أبـــوح   وهـل يتكلـم القلـب الجريـح
ومـــاذا يبتغـــون وفى فـــؤادى   جـوى أفضـى الدمـع الفصيـح
نعـم أهـوى ولا أخفى غـرامـى   ومـن شرف الهوى أنـى صريـح . . إلخ .

ظلت أم كلثوم عروس أشعار أحمد رامـى وقصائده . . والمعنى المتجسد للحب فى كل ما كتب .

ومن أخريات لقـاءات رامى بأم كلثوم ، ذلك اللقاء عندمـا ودعها حين سفرها فى آخر رحلة علاجية فى الخارج . . ويومها، وقبـل أن يعود رامى إلى منزله . . جلس فى إحدى صالات المطار، وكتب قصيدة طويلة يودعها فيها . . . وبدا فعلا كأنه يودعها الوداع الأخير إذ يقول فيها :

وإن أنسى لا أنسى يوم المطار
وقد دنت الساعة القاضية
جلسنا مع الناس فى نجوة
وغبنا عن الأعين الفانية
أسابقها فى شمس الحديث
عن الشوق والذروة الأنسية
وأين يكون اللقاء القريب
أفى مصر ، أم فى دارها الغالية
ومر الزمان بنا لم نجد
له فى حساب الهوى ثانية
إلى أن دنا وقتها للرحيل
على متن طائرة ماضية

ونادى المنادى على الراحلين

وليس لنا أذن واعية

ودارت رحاها وهمت عن

عملها إلى البلدة النائية

ونحن نطيل إليها الرنو

ونسمع أصواتها الداوية

ولا تدرك العين ماذا يدور

ولا أين تمضى ولا ماضية

إلى أن علت فى عنان السماء

وغابت . . ومحبوبتى باقية

عندما عادت أم كلثوم من رحلتها . . لازمت الفراش . . وذهب رامى لزيارتها . . وعندما هم بالانصراف ، أصرت أم كلثوم أن تقوم هى بتوصيله بصحبة أحد أقاربها . وفعلا أوصلته بالسيارة إلى حدائق القبة . . إشفاقا عليه من التعب والإرهاق .

وكان ذلك . . هو لقاء الوداع !

ورثاها أحمد رامى بقصيدته :

ما جال فى خاطرى أنى سأرثيها	بعد الذى صغت من أشجى أغانيها
قد كنت أسمعها تشدو فتطربنى	واليوم أسمعنى أبكى وأبكيها
صحبتها من ضحى عمرى وعشت لها	أوف شهد المعانى ثم أهديها
سلافة من جنى فكرى وعاطفتى	تديرها حول أرواح تناجيها
لحنا يدب إلى الأسماع يبهرها	بما حوى من جمال فى تغنيها
ومنطقا ساحرا تسرى هواتفه	إلى قلوب محبيها فتسبيها
وبى من الشجو من تغريد ملهمتى	ما قد نسيت به الدنيا وما فيها
وما ظننت وأحلامى تسامرنى	أنى سأسهر فى ذكرى لياليها

يا درة الفن يا أبهى لآلئه سبحان ربى بديع الكون باريها
مهما أراد بيانى أن يصورها لا يستطيع لها وصفا وتشبيها
فريدة من عطاياه يجود بها على برایاه ترويحا وترفيها
وآية من لدنه لا يمن بها إلا على نادر من مستحقيها
صوت بعيد المدى ريا مناهله له من النبرات الغر صافيها
وآهة من صميم القلب ترسلها إلى جراح ذوى الشكوى فتشفيها
وفطنة لمعانى ما تردده بترنيمها أسرار خافيها
تشدو فتسمع نجوى روح قائلها وتستبين جمال اللحن من فيها
كأنما جمعت أبداع ناظمها شعرا وواضعها لحنا لشاديها
يا بنت مصر ويا رمز الوفاء لها قدمت أغلى الذى يهدى لواديها
كنت الأنيس لها أيام بهجتها وكنت أصدق باك فى مآسيها
أخذت منذ الصبا تطوفين شقتها وتبعثين الشجا فى روح أهليها
حتى رفعت على أرجائها علما يرف باسمك فى أعلى روابيها
وحين أحدق بالأرض التى نشرت عليك أفياءها شر يعنيها
أهبت بالشعب أن يسعى فى مودتها بالمال والجهد إحياء لماضيها
وطفت بالعرب تبغين النصير لها والمستعان على أقصاه عاديها
حتى إذا صدقت فى العون همتهم وجاءها النصر وانجابت غواشيها
عاد الصفا لها وارتاح خاطرها بعد القضاء على ما كان يضنيها
وأقبل الغرب يسعى فى موتها لما رأى من طموح فى أمانيها

* * *

يا من أسيتم عليها بعد غيبتها لا تجزعوا فلها ذكر سيبقيها
وكيف ننسى وهذا صوتها غرد يرن فى مسمع الدنيا ويشجيها
أضفى إلهى عليها ظل رحمته وظل من منهل الرضوان يسقيها
تبلى العظام وتبقى الروح خالدة حتى ترد إليها يوم تحييها

أحمد رامى

٧ يولية عام ١٩٧٥

كان رامى فى أشعـاره رومانتيكيا صميما ، له العـديد من القصائد الفصحـى كمـا نظم عـددا كبيرا من المونـولوجـات والطقاطيـق التى أسماهـا فى ديوان شعـره الفصيح «المقطعات» .

وهذه « المقطعـات » يمكن اعتبارهـا فكرة مبتكـرة ، فهى مليئة بـالشعور والتعبير الشعرى الجديد .

وتاريخ أحمد رامى الشعرى مرتبط بتاريخ فن أم كلثوم . وكان أبلغ تعبير عن ذلك هو منحه الـدكتواره الفخرية من أكاديميـة الفنون فى الذكرى الأولى لوفـاة سيدة الغناء العربى أم كلثوم .

قالت أم كلثوم :

« كان رامى يحب الغناء ، وكنت أنا أعشق الشعر . وأصبحت أقرأ القصيدة بنفس المتعة التـى تقرأ بها الفتـاة أول قصة غراميـة . وكان لأحمد رامى كـل الفضل فى تـذوقى الشعر وتفهـم معانيه » .

وكانـت أم كلثوم تغنـى أغنيته الجديدة مـرة واثنين وثلاثة . وعنـدما لا تتلقـى منه كلمات جديدة ، تتعمد عـدم تقديم عمل من أعماله فى حفلهـا . . وهو الذى تعّود أن يستمع إلى كلماتـه بصوت أم كلثوم فى كـل حفل مـن حفلاتها . فكان ينتظـر أن تلقى بأشعاره فى الوصلة الأولى . . فتأتى بلا شىء . . فيتطلع إلى الوصلة الثانية . . ولكنها تخذلـه أيضـا هذه المرة . . فيتعلـق بـالـوصلـة الثـالثة . . فتغنـى لغيره . . . فيصـاب بالصـدمة الكبرى . . فيعود إلى بيتـه يبكى أسفا وحـزنا . . وتنقلب هـذه الآهات إلى كلمات جديـدة . . تكون مـولدا لأغنية يقـدمها لأم كلثوم فى اليـوم التالى . . وبـذلك وصلت أم كلثوم إلى ما كانت تصبو إليه .

لقاء أم كلثوم ومأمون الشناوى :

روى مأمون الشناوى عن ذكرياته مع أم كلثوم . . فقال :

« التقيت بأم كلثوم فى الفترة التى كنت أعمل فيها مع روز اليوسف اليومية . التقينا

فى المحكمة أثناء نظر قضية زواجها الوهمى . . من المغامر الصعيدى ، وكنت أنا شاهد ذلك المغامر . وبعدها انقطعت علاقتى بها ، إلى أن التقينا فى عزبة مصطفى القشاش فى شم النسيم . . وعادت صلتى بها عام ١٩٤٢ ـ وقالت لى : قبل ما تكتب أغنية وتعطيها لمطرب ، أريد أن أسمعها أولا . فكتبت حبيب العمر وأعطيتها لها ، فأرادت أن تغير بعض الكلمات . وكنت ما أزال أرعن مغرورا . . وفى نظرى أن كلماتى لا تُغَيّر مطلقا . أخذت الأغنية وقابلت مصادفة فريد الأطرش وهو يصلح عربته ، فأعطيته الأغنية ، ولم يُغير منها حرفا واحدا . وسمى الفيلم أيضا باسم الأغنية . بعد ذلك كتبت « الربيع » . وجاءت أم كلثوم تزور أخبار اليوم ، فى أوائل أيامها ، حين كانت على سطح بيت فى شارع قصر النيل ، ونادتنى قائلة : انت ياواد فين الأغنية ؟

فقلت : والله فريد مسك فيها كما هى ، وأنا غير مقتنع بما تريدين تغييره . فقالت : مين اللى حايغنى . . أنا والاّ إنت ؟

وكانت أغنية الربيع ، فسمعتها . وطلبت منى أن أزورها فى البيت . . وطلبت أيضا بعض التغييرات . . وكان فريد يسكن بجانبها ، فأعطيته الأغنية .

ولكن بعد ذلك حاسبت نفسى : إلى متى أظل بعيدا عن صوت القمة ؟ ولماذا لا أسمع كلامها ؟ فكتبت « أنساك » ، وغيرت بعض الكلمات . . ووافقتها على التغييرات ، وكانت تغير ما تريد باقتناع تام . . . قالت أم كلثوم :

إذا كان المطرب مقتنعا بما يؤديه . . فثق وتأكد أنه سينجح . . وإذا لم يكن لديه اقتناع بما يقول ، فتأكد من فشله ، ولو كانت من شعر شوقى .

وبأغنية « أنساك » بدأ التعاون بينى وبينها . والسبب فى عدم غنائها لى كثيرا ، كثرة التغييرات التى كانت تطلبها ، وعدم موافقتى على ذلك » .

ومن الأغانى التى كان مأمون الشناوى قد أعدها لتغنيها أم كلثوم « أول همسة » ، ولكن عندما طلبت إدخال بعض التعديلات عليها ، أعطى مأمون فريد الأطرش الأغنية . وعندما طلبتها منه مرة أخرى كان رده :

ـ هل من المعقول أن يطلب واحد من رسّام وهو يشاهد معرض صوره ، أن يصغر الأنف ، ويرفّع الحواجب ، إلى غير ذلك ؟؟ نفس الشيء فى الأغنية . . عاجباك خديها على كده . . »

وعلقت أم كلثوم :

ـ « انت مش فاهم حاجة خالص . . بكرة تفهمنى . . وبكره تندم » . وفعلا بعد فترة قصيرة ، كتب مأمون الشناوى أغانى لأم كلثوم ، وقبل التعديلات بصدر رحب . وغنت له أم كلثوم بعد أنساك ـ كل ليلة ـ بعيد عنك ـ ودارت الأيام .

وقبل وفاتها بعام واحد ، كتب لها مأمون الشناوى « خلينا أصحاب » ، وأعطتها أم كلثوم لرياض السنباطى ليقوم بتلحينها . . ولكن المرض عاجلها ، ورحلت قبل أن تؤدى هذه الأغنية . . وظلت كلمات الأغنية حبيسة الأدراج إلى أن حضرت إليه ذات يوم ياسمين الخيام تطلب منه أغنية « خلينا أصحاب » . وكان رياض قد لحن جزءا منها . ولكن حدث خلاف بين ياسمين والسنباطى ، أوقف بعدها رياض تلحين الأغنية ، إلى أن أخذ حلمى بكر الكلمات ليقوم بتلحينها .

أم كلثوم وبيرم التونسى :

اعتمدت أم كلثوم فى بداية حياتها الفنية على أحمد رامى لوضع كلمات أغانيها . ولكن أم كلثوم ، الذكية ، أدركت ، أن نهوض رامى بالعبء وحده مهمة صعبة . . وأنها لابد أن تواكب التطور ، وتتجه بأغانيها إلى كلمات شعبية إلى حد ما . . تساير الزمن وتعجب الجمهور . . ولم يكن أمامها إلا الزجل . وفى الحرب العالمية الثانية حينما أثْرت الطبقة الشعبية من التجارة والتوريد ، تطلعت هذه الطبقة بحكم الثراء إلى حضور حفلات أم كلثوم . فوجدت أم كلثوم أن هذه العقلية لا يناسبها إلا كلمات الزجل . . وشخصية بيرم التونسى . فأقبلت على فارس هذا الميدان وغنت له العديد من الأغانى فى الفترة بين عامى ١٩٤٢ ـ ١٩٥٠ (أى سنوات الحرب وماتلاها .)

منها : الأمل ــ أنا فى انتظارك ـ أهـل الهوى ـ حلم ـ حبيبـى يسعد أوقاته ــ والآهات ـ وكل الأحبة اثنين اثنين ـ والأوله فى الغرام ـ والحب شبكـونى ـ وإيه اسمى الحب ـ وأنا وأنت .

وقد كان ملحن كل هذه الأغانى زكريا أحمد ، الذى يعتبر توأم بيرم . . فزكريا وبيرم كونا معاً ثنائيا فنيا جميلا . كما وقـف زكريا وبيرم خلف أم كلثوم فى هذه الفترة، فقدما معا ألحان أغانى أفلامها .

عن بيرم التونسى قالت أم كلثوم :

« كان أحمد شـوقى يخاف على الفصحـى من بيرم . فبيرم يكتـب فى أى موضـوع . ببديهية حـاضرة ، حتى لتتصور أنه يرسـل شعره كلاما كالقـول والضحك . وكان بيرم موسوعـة من الشعر القديـم والحديث . كان صوفيـا . ولعل هذه الصوفيـة هى ينبوع إلهامه . غنيت له الآهات والأمل ، وأنـا فى انتظارك . . . والقلب يعشق كل جميل . . وكل قصائده، فيما عدا الأخيرة، كانت كلها من ألحان زكريا الذى قدم لى بيرم . . عدا الأغنية الأخيرة (القلـب يعشق كل جميـل) قام بتلحينهـا رياض السنباطـى، بسبب الفجوة التى كانت بينى وبين زكريا . »

وغنـت أم كلثوم مـن كلمات بيرم التـونسى لحن « شمـس الأصيـل » الذى وضـع ألحانها رياض السنباطى. وكان ذلك بعد وفاة الفنان زكريا أحمد .

* * *

ومن الشعـراء العرب غنـت أم كلثوم « لنـزار القبانـى » : أصبح عنـدى بندقيـة ـ و«لجورج جـرداق » : هـذه ليلتى ــ ولشـاعـر السودان « الهادى آدم » غنـت : أغـدا ألقاك . ومن شعر « عبد الله الفيصل» غنت أم كلثوم ثورة الشك ـ ومن أجل عينيك . كما غنت للشـاعر البـاكستانى « إقبـال » و أبو « فراس الحمـدانى » « وعمـر الخيام » و«أحمد العدوانى » وغيرهم .

الفصل الرابع

أم كلثوم وعبقرية الغناء

صوت أم كلثوم وأسلوبها فى الغناء :

يقول شاعر الشباب « أحمد رامى » :

«كانت أم كلثوم صوت حنان تشعر فيه بالصدى . . . كان صوتها قادما من قلبها وليس من الحنجرة . . . كانت تغنى لنفسها قبل أن تغنى للناس . . . لقد كانت تبكى وتبتلع دموعها . . . كانت راهبة فى محراب الفن . . تغنى كأنها تصلى ».

التقييم العلمى لصوت أم كلثوم :

قام « المعهد القومى للقياس والمعايرة » فى مصر ، بتجربة فريدة ومثيرة عام ١٩٧١ . استعان فيها بألفين من الأسطوانات ، التى سجل عليها المطربون والمطربات أغانيهم منذ نصف قرن من الزمان ـ بهدف وضع سلم الموسيقى العربية على أساس علمى .

وقد جاء فى نتائج هذه التجربة الفريدة والأولى من نوعها فى مصر:

أن صوت أم كلثوم هو أكثر الأصوات ضبطا ، لأن معادلته الرياضية تكاد تتطابق مع المعادلة الرياضية للسلم الموسيقى الطبيعى .

وأثبتت الأجهزة الإلكترونية التى استخدمت فى هذا البحث أن ترددات صوت أم كلثوم تبلغ (٣٩٩٦,٥) ذبذبة فى الثانية الواحدة . وكان الصوت الثانى بعد صوت أم كلثوم هو صوت المرحوم الشيخ محمد رفعت ، تلاه صوت المرحوم صالح عبد الحى . واعتبر البحث صوت أم كلثوم من أنقى الأصوات العربية وأعلاها ، من حيث تطابق معدنها الصوتى ، مع المعادلات الرياضية للسلم الموسيقى .

وصوت أم كلثوم له مساحة من الدرجـات الموسيقية يمكن قياسها بأوكتافين (أى ست عشرة نغمة) » . إن صوت أم كلثوم ينتمى إلى الكونترالطو . والمتزو سوبرانو (*)

ويمتـاز صوتها بـالقـوة والجمال . وبحكـم حفظها وتجويـدهـا للقـرآن الكريـم ، اكتسبـت خبرة تجعلهـا قـادرة على إعطـاء كـل كلمة وكـل حـرف مـا ينبغـى للنطـق الصحيح . وهـى دقيقة الحس ، عظيمـة الذكاء ، كثيرة الاطـلاع ، تحس بكل المعـانى التى تتضمنهـا الأغنية ، وبـذلك استطـاعت أن تعبر عـن كل المعـانى التـى تتضمنها أغانيهـا مهما كانت صعـوبة الكلمة . كان صـوت أم كلثوم عجينة طيعـة بين يديها ، تعـرف كيف تشكلهـا وتسمـو بها وتطورهـا مـع كـل تكرار بصـورة جـديدة ، بتنميـة صحيحة ، وتطـوير وانتقالات مقـامية ، وتغييرات إيقاعية . كـانت تكرر اللحـن مرارا بـابتكـارات لا نهائية . . منهـا إعـادة تـأليف اللحـن بما يجعلـه يتفـاعـل تلقائيـا مـع المستمعين .

كـانت أم كلثـوم تدقـق فى اختيارهـا للكلمات . . وتشترط أن تكون على مستـوى صـوتها وأدائها . كـانـت ملمة بقـواعـد التجـويد ، وتـدرك قـواعد النحـو والصرف والإعراب . وقـد ساعدهـا على إجادة غنائهـا الأداء المبكر لعدد كبير مـن الموشحات الدينيـة فى بدايـة حياتهـا الفنيـة ، كـذلك محاكاتهـا لأداء الشيخ أبـو العلا محمـد فى طفولتها . كما تدربت أم كلثوم على أداء ألحان القصائد والموال الريفى ، الذى أكسبها القدرة على الارتجال وأداء الحركات اللحنية التى يتكون منها الموال . .

وإذا ما استمعنا إلى صـوتها فى شبابها ، وبعد أن تعهدها أساتـذة الموسيقى والغناء من أمثـال الشيخ أبـو العلا محمد ، والـدكتور النجريـدى ، والفنان محمـد القصبجى ـ نلاحظ خـاصة فى تسجيلاتها الأولى كثرة الـذبذبات الصوتيـة التى كانت تنطلـق من حنجرتها . . وتحول دون تحديد النغمات الثابتة . واستطاعت أم كلثـوم بموهبتها وذكائها الكبير أن تطور أسلوب أدائهـا للتخلص من هذه الـذبذبات . لم تكن تستعـرض قوة

(*) الكونترا لطو (أغلظ أنواع أصوات النساء) والميتزوسوبرانو (الصوت المتوسط بين الحاد والغليظ فى أصوات النساء) .

حنجرتها أثناء الغناء ، وإنها كانت تستخدم إمكاناتها الطبيعية ، وتضيف قدرتها على تلوين الصوت لخدمة التعبير الموسيقى بها يتناسب والكلمات . وكان صوتها يتميز بروح البيئة العربية ، إلى جانب معرفتها الدقيقة بالمقامات الموسيقية العربية . ومن المعروف بين المطربين والمطربات . . أن كلاً منهم عنده فى صوته منطقة تمثل نقطة القوة عنده . . لذلك نجد الملحن يقوم بتفصيل اللحن تبعا لهذه الإمكانية . أما صوت أم كلثوم فمناطقه كلها كانت قادرة . وهذا سر تنقلها بين النغمات الموسيقية بسهولة واقتدار ، حتى قفلاتها فى نهاية الجملة الغنائية كانت تؤديها بسهولة وتمكن واضح . وعن هذه القفلة قال عبد الوهاب :

« لم تَضِعْ من أم كلثوم قفلة واحدة فى حياتها . . كانت دائما تفاجئ الجمهور بقفلة قوية . . تشبه « الجول » عند لاعب الكرة » .

وصف عبد الوهاب ؛ صوت أم كلثوم بقوله :

« إن فيها ملامح عصر جديد فى طريقة الغناء والسلوك والشخصية والخلق ، وقدمت فنا بلا ابتذال . . وسمت بأخلاق المهنة . »

وقال أيضا فى ذكرى وفاتها التاسعة :

« إن فيها عشر مغنيات معا . فكل ميزة تجعل منها مطربة كبيرة . من أهم ميزاتها التعبير : بالجسم ، باليدين ، بالحركات ، بالإيماء بالوجه ، بالعبوس ، بالضحك . . كانت ممثلة . ولا أعنى أنها كانت تفتعل ، بل كانت تحس ، وهذه سمة الفنان العظيم ، تحس الغضب أو الفرح أو العتاب فتؤديه . كانت مجموعة عجيبة من عطايا الله السخية .

أما الصفة العظيمة فيها ، فهى أنها ظلت هاوية حتى آخر رمق فى حياتها . . وكانت مستمعة من الطراز الأول ، فتبكى حين تتأثر بأغنية تعجبها . ولو لم تكن مستمعة عظيمة . . لما كان فى مقدورها أن تكون مطربة عظيمة . »

تقول د . نعمات فؤاد (٦)

يقف إلى جانب صوت أم كلثوم نطقها وإلقاؤها وإخراجها للأغنية .

فنطق أم كلثوم نطـق (مثقف) . . نطق أديب . وقـد كان النطق سلاحهـا الذى اقتحمت به مسارح القاهرة فى العشرينيـات . فأم كلثوم على المدى الطويل ، لم تخطئ غير مرتين اثنتين لا يلحظهما إلا متخصص . حتى أن أحد النقاد أطلق عليها (مطربة النحو والصرف) .

المرة الأولى حينما تصل فى قصيدة (سلوا قلبى) إلى البيت . . .

فمن يغتر بالدنيا فإنى   لبست بها فأبليت الثيابا

يغتر فعل الشرط مجزوم ، والقاعدة النحوية فتح المشدد للتخفيف فى حالة الجزم . فصحة الكلمة يغتر بالسكون ، فإذا أدغمت الراء فالجائز فى الشعر كسرها لا ضمها . وفصاحتها يغتر بالفتـح ، ولكن أم كلثوم تنطقها بالضم (يغترُّ) . وقـد نبهت إلى هذا فأصلحت الخطأ عند تسجيل الأسطوانة .

أما المرة الثانية ففى قصيدة . (قالوا أحب القس سلاّمة) والبيت :

كأنمـا لم يدر طعم الهوى   والحب إلا الرجل الفاجر

فنطقت كلمة الحب بالضم ، والصواب (الكسر) . ولا وجه عند النحويين لضم هذه الكلمة فى هذا الوضع . ولو نطقتها أم كلثوم بالفتح لأمكن للنحويين أن يجدوا لها تأويلا نحويا مقبولا يجعلها معطوفة على كلمة (طعم) . »

كانت أم كلثوم تتكلـم اللهجة الفلاحية لمحافظة الدقهليـة ، ولكن لهجة أم كلثوم الفلاحية لم تظهر فى نطقها الغنائى ، لفرط ذكـائها ودقة التقاطها للمخارج الصحيحة للألفاظ من مؤلفى أغانيها وملحنيها .

وعن صوت أم كلثوم يقول زكريا أحمد :

إن الجملة الموسيقيـة بأداء الملحن تكون عـادة أفضل منها بأداء المغنـى أو المغنية ، لأنه هو خـالق الجملة . أما بالنسبـة لأم كلثوم فكان هذا القـانون الفنى ينكسر . لأن

أداءها للجملة الموسيقية يكون أفضل من أدائه . إنها تجهد الملحن أولا ، لمعرفة مواطن القوة فى صوتها . . وتتحداه بموهبتها أن يقدم إليها أصعب الألحان . ثم حين يؤدى هذا اللحن بصوتها الذكى أداء متميز الشخصية ، فهى تضفى من فهمها للمعنى على الأداء . وتلون هذا الأداء بحيث يتوهج عذابا وحبا فى كل مرة تغنى فيها عن الحب الإلهى . إذن فقد كان صوتها العبقرى وأداؤها الذكى أول درجتين فى صعود نجمها كظاهرة فنية .

السبب الثانى نظرة الشرق إلى الحب . إن الشرق ينظر إلى الحب نظرته لشىء محرم . فى نفس الوقت الذى تهفو فيه الملايين إليه . وفى نفس الوقت يمارس فيه الآلاف تجارب الحب . وهذا التناقض بين العقل والفكر ، يخفف من أن تغنى لنا أم كلثوم ساعات عن الحب . وكان لابد لهذا التنفيس عن المشاعر الخاصة ، أن يجد صدى فى نفوسنا . فهناك غناء يضع الإنسان وسط أعظم صنوف العذوبة والرقة . وكان غناء أم كلثوم من هذا النوع . كانت عندما تغنى تصبح مهدئا لمتاعب الحياة . وأحيانا يتوقف الزمن . . ويذوب المكان ولا يبقى غير اللحن والكلمة . حتى اللحن والكلمة يتبددان ولا تبقى غير قصة الحب الخاصة بالمستمع . فلا يبقى غير حبه هو ـ وذكرياته هو ـ وأحلامه هو. وعذابه هو . . مذابا فى الألحان . ناظرا إليه من وجهة نظر أم كلثوم . وهكذا يتحول المحب إلى شهيد ، حيث تعبر له الأغانى عن الحكم وتصفى قصص حبه من شوائب الحياة وكدرها . كانت هذه إحدى ميزات أم كلثوم . .

والميزة الثانية لها هى ارتباطها بالفكرة العربية واللغة العربية . وكانت نشيدا مشتركا يذكر بعروبتهم . فهى شىء مشترك بين العرب جميعا ولا اختلاف عليه . إن الأذن العربية مهما يكن صاحبها مثقفا ثقافة تطريبية . فإن أم كلثوم تزيد التعبير أيضا على التطريب . . وبذلك ترضى الأذواق على اختلاف ألوانها .

الميزة الثالثة : أن أم كلثوم حافظت لفترة طويلة على إحساس الحب والمحب كما كانا فى الغناء العربى القديم : وقد كان هذا يستمد أصوله من العصر الجاهلى حين

كانت النساء والرجال من قبيلة بنى عذرة يهلكون بسبب الحب .

سئل شاعر من بنى عذرة : ما بال قلوبكم تذوب كما يذوب الملح . . قال : إنا لننظر فى محاجز أعين، لا تنظرون إليها ولا ترونها . . ولا بأس إذن أن يذوب العاشق حبا فى محبوبه . بل يعاب على المحب إذا أعطى نفسه مكانة أمام حبيبته . فواجب المحب أن يظل دائما هو المتفانى . وأن يستعطف هذا الطابع الوجدانى فى صورة المحب .

كان هذا أمرا واضحا فى غناء أم كلثوم . ومثلما حافظت هى على هذا الطابع باختيار مؤلفى أغانيها . . فقد حافظت على طابع الأغنية الشرقية . حيث للأغنية الشرقية طابع يقوم على إبراز مظهر الارتجال الفنى أو التصرف والإعادة مع التصرف . وهذا ما امتازت به الفنانة أم كلثوم وحدها . وكان ذلك شيئا يغبطنا عليه الموسيقيون فى الغرب . . . فقد كانت أم كلثوم تمثل الحصن الأخير لطابع الأغنية العربية ، كانت تزيد من ابتكاراتها فى اللحن . وتمزج الكلمة بالنغم. لاهية جمهورها فلم يعد ممكنا أن تعرف موقع المغنى من موقع الجمهور . ولا من أين ينبع السحر ولا من هو المسحور. . ولقد استغرقت أم كلثوم فترة طويلة حتى أكدت نفسها كظاهرة فنية . . ثم تجاوزتها إلى تحويلها إلى ظاهرة عامة .

يقول زكريا هاشم زكريا :

« . . بدأت أم كلثوم ـ خلال الأربعينيات ـ تخصص « وصلة » فى بعض حفلاتها لأداء إحدى أغانى العشرينيات ـ فسمعنا منها « وحقك أنت المنى والطلب » و «أفديه إن حفظ الهوى » وبعض الأغانى القديمة الأخرى .

وكانت عودتها إلى أغنيات تلك الحقبة ، لتؤديها بصوت أكمل وأجمل . . من خلال مقدرة وذوق أكثر نضجا .

صحيح أنها لم تتمسك فى أدائها هذا بما كانت تتمسك به فى العشرينيات من الانضباط الصارم . . إنما سببه فى العشرينيات حاجتها ـ وهى ناشئة ـ إلى إثبات تفوقها

الساحق فى الأداء مستوفيا درجات الصوت مع قوة بالغة فى الأسر : أى التحكم الدقيق فى اللحن . على نحو ماكان متبعا فى تلك الأيام .

أما فى الأربعينيات . . فإن أم كلثوم أصبحت بلا شريك بين المطربات والمطربين . وأصبح المستمعون يعرفون أن صوتها يحتوى بضعة عشر مقاما . ويدركون نفاسة معدنه ، واستحالة وجود قطعتين من هذا المعدن النفيس فى زمن واحد . .

واختتمت أم كلثوم مرحلة الأربعينيات بروائعها التى لحنها السنباطى : سلوا قلبى من أى عهد . . وفى الأرض شز مقاديره . . ريم على القاع . . ولد الهدى . . رباعيات الخيام . . . »

كانت أم كلثوم تبدأ موسمها الغنائى فى الخميس الأول من شهر ديسمبر وينتهى بالخميس الأول من يونيو . . أى سبع حفلات سنويا . لم يتغير هذا الانتظام منذ إبريل ١٩٥٤ إلى ١٩٦٢ . وكان يقام بمسرح الأزبكية . . وعندما ضاق المسرح بالسميعة ، انتقلت ليالى الخميس إلى سينما قصر النيل (١٤٢١ كرسيا) ، وكانت فى كل حفل يضاف عدد من الكراسى يصل إلى حوالى (١٥٠ كرسيا) . وكان جمهور أم كلثوم يأتى بالطائرة من دول مختلفة لحضور حفلها . وآخر حفل غنت فيه أم كلثوم الخميس ٣٠ يناير عام ١٩٧٣ على مسرح سينما قصر النيل ، وفيها غنت فى الوصلة الأولى ليلة حب (محمد عبد الوهاب) ويا مسهرنى (سيد مكاوى) . وآخر أغنية طبعت على أسطوانات حكم الهوى (بليغ حمدى) كلمات عبد الوهاب محمد . . ولم تغنها فى حفلة .

يقول إلياس سحاب (٧) :

« عظمة أم كلثوم قد فرضت نفسها فى سوق الغناء العربى ، لدرجة أن كل الملحنين الذين تعاملوا معها ، كانوا فى ألحانهم يدورون فى فلك صوتها ، أكثر مما دار صوتها فى فلك ألحانهم .

فالظاهرة التى تبدو الآن واضحة لو ألقينا نظرة سريعة شاملة على كل إنتاج

أم كلثوم . . هى أن هناك لـونا « كلثوميا » فى الغناء العربى ، يوظـف فى خدمته عددا من الملحنين الـذين لا شك فى قيمتهم الـذاتية . ولكنهم مـع ذلك كانوا مـع أم كلثوم جزءا من مدرستهـا الغنائية . فكانت تنوعات أساليبهـم تنعكس بين ألحان السنباطى عندما يضع لحنا لأم كلثوم ، ثم عندما يضـع لحنا لصوته أو لأى صوت آخر . كذلك الأمر واضح مـع محمد عبد الوهاب، فـألحانه لأم كلثوم كانت ذات طـابع خاص . . تنتمى غالبا إلى مدرسـة الغناء الكلثومى ، أكثر مـن انتمائها إلى مدرسة الغناء الوهابى وإن كانت بصمات عبد الوهاب الخاصة بارزة جـدًّا فى مجموعة ما أعطى لأم كلثوم من ألحان » .

وحدث أكثـر من مـرة أن نسيت أم كلثوم كلمـة . . وهنا يأتـى دور عبده صـالـح (القانـونجى)، فيبدأ بإعـادة الجملة الموسيقية مـرات ومرات تسترد نفسهـا ، وتتـذكر الكلمة .

ويقول عبده صالح إن صوتها يتبع جسمهـا ونفسيتها . . لذلك فهو فى كل حفلة يضبط طبقة الصـوت وفقا لحالتها النفسية والصحيـة . . فهى إلى جانب معـاناتها من المرارة ، كانت تعانى أزمات الغدة الدرقيـة . . وينجم عن هذا المرض توتر الأعصاب ضيق النفس .

يقول كمال النجمى :

« لقد أسهـم صوت أم كلثوم إسهـاما جوهـريا فى خلـق أساليب التلحين العـربية المتطورة . وأتاح للملحنين أن يجوبـوا آفاقا شاسعـة ما كانت لهم على بـال لولا وجود هذا الصوت الذى حملهم بإمكاناته الباهرة إلى تلك الآفاق . وأعمال القصبجى وزكريا أحمد والسنباطى تشهد بذلك .

أم كلثوم قادت موكب الملحنين فى عصرها إلى الطريق الذى سارت فيه » .

كتبت الكواكب عام ١٩٣٢ تقول :

« لأم كلثوم ميزة تمتاز بها عن غيرها ، تلك هى حسن اختيار الأدوار التى تلائم الوسط الذى تغنى فيه . فقد رأيناها فى حفل المؤتمر الشرقى للموسيقى العربية الذى حضره الملك تغنى قصيدة :

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا

كما شاهدناها مرة ، وقد جلس لفيف من شيوخ الأدب العربى يستمعون إليها ، فتهز قلوبهم بنغماتها الجميلة حين غنتهم :

عارضا بى ركب الحجاز أسا ئله متى عهده بسكان جمع
واستعيدا حديث من سكن الخيف ولا تكتباه إلا بدمعى
فإننى إن أرى الديار بعينى فلعلى أرى الديار بسمعى

حتى إذا جمعتها الفرصة بالشباب سمعتها تصدح : إن حالى فى هواها عجب . وإذا اختلت بالجنس اللطيف ، آثرت أن تنشد « اللى حبك يا هناه » . وفى الحفلات العامة تؤلف بين هذا كله لتروى كل طائفة بما يناسبها . . فهى كالطير الذى يحسن الهبوط على مختلف الغصون .

ومن أهم مظاهرها تمسكها الشديد بما يلقى عليها من نغم . فإذا أخذت عن المرحوم الشيخ أبى العلا مثلا طريقة ما لإلقاء قصيدة ، فإنها خير من يخرج بها على الجمهور . وكأنك تسمع أبا العلاء من خلف ذلك الغصن الرطيب . »

أم كلثوم تلحن :

ولأم كلثوم تجربتان فى التلحين طقطوقة « على عينى الهجر ده » من مقام الراست (سجلت على أسطوانات جرامفون عام ١٩٢٨) ، ومونولوج « يا نسيم الفجر » من مقام حجاز كار (مسجلة على أسطوانات أوديون عام ١٩٣٦) ، وهما من كلمات أحمد رامى . ولم يظهر لأم كلثوم عمل آخر من ألحانها . ويقال إنها فضلت « أن تعطى العيش لخبازه » ، فهى تؤمن بمبدأ التخصص . والذى يستمع إلى هذين اللحنين

يجد أن أم كلثوم حالفها التوفيق فى تلحينها . . ويتضح تفهمها واتقانها فن المقامات وعلمها .

أم كلثوم والإذاعة :

وكما افتتحت أم كلثوم الإذاعة المصرية عام ١٩٣٤ ، افتتحت التليفزيون فى يوليو عام ١٩٦٠ . . حين وقفت لأول مرة أمام عدسات التليفزيون لتسجل أغنيتها الجديدة .

كان العقد الأول الذى وقعته أم كلثوم مع الإذاعة المصرية فى الثلاثينيات بأجر قدره خمسة وعشرون جنيها تشمل أجور الموسيقيين والمؤلف والملحن . . وكان هذا هو أعلى أجر فى ذلك الوقت .

وسجلت ما غنت أم كلثوم فى ثلاثة دفاتر . . وبلغ عدد الأغانى ٣٦٠ أغنية . وكان من عادتها أن تسجل الأغنية قبل تقديمها فى الحفلات . . لأنها فى الحفل تلبى رغبات مستمعيها . . فتأتى الأغنية طويلة يصعب إذاعتها . ومع ذلك كانت الإذاعة لا تكتفى بما تسجله أم كلثوم قبل الحفل . . فكانت تقوم بتسجيل جميع حفلاتها . فمثلا أغنية « أنت عمرى » من ألحان « محمد عبد الوهاب » ومن كلمات « أحمد شفيق كامل» غنتها أم كلثوم فى ثلاث ساعات إلا عشر دقائق .

ومن ضمن تسجيلات الإذاعة لصوت أم كلثوم شريط منقول من أحد أفلامها مسجل عليه قراءة للقرآن الكريم مدته ثلاث دقائق . . وتم تسجيله فى ٧ يونية من عام ١٩٥١ . وهو التسجيل الوحيد لأم كلثوم للقرآن الكريم . فلم تكرر هذه المحاولة مرة أخرى .

ويعتبر الشاعر أحمد رامى صاحب النصيب الأكبر من بين الشعراء والزجالين الذين كتبوا لأم كلثوم نصوص أغانيها . فقد بلغ رصيده ٤٨ أغنية عاطفية إلى جانب مائة أسطوانة . فأحمد رامى بدأ يكتب أشعاره لأم كلثوم منذ عام ١٩٢٣ . وسجلت أم

كلثوم من هذه الأغانى ما يقرب من مائة وخمسين أسطوانة، تم نقلها عام ١٩٤٥ على شرائط ، مع احتفاظ الإذاعة لهذه الاسطوانات للرجوع إليها عندما يتعرض الشريط للتلف .

وجاء فى إحدى المجلات الأسبوعية أن الأسطوانة الوحيدة الباقية لأم كلثوم من الزجاج (كانت الأسطوانات القديمة تصنع من الألمنيوم أو الزجاج) قد كسرت أثناء نقل الاذاعة من مبناها فى شارع علوى إلى شارع الشريفين . . وكان مسجلا عليها أغنية « أوانى الورد » .

كانت أم كلثوم تغنى حفلا واحدا فى كل شهر ، رغم أن أحدًا لا يشك مطلقا فى قدرتها على إعطاء المزيد . . ولكنها كانت تصون كرامة الغناء ، وتحرص على تقديم الجديد . . كانت طيلة السهرة تعطى بثراء ، وتتعبد فى العطاء . كانت مدرسة تحافظ على تقاليد الغناء العربى الأصيل .

الحفلة الشهرية :

كانت أم كلثوم أول مطربة تقدم أغانيها فى شكل حفلات ووصلات غنائية بالإذاعة، منذ افتتاحها عام ١٩٣٤ . وكان مقدم حفلاتها الإذاعية الإذاعى الكبير محمد فتحى الذى اقترن اسمه بحفلات أم كلثوم الاذاعية لنجاحه فى تقديمه للحفلات. اقترح محمد فتحى على الإذاعة خروج حفلات أم كلثوم إلى المسرح . وتم الاتفاق مع أم كلثوم على تقديم حفلة واحدة يوم الخميس الأول من كل شهر على أن تنقلها الإذاعة على الهواء مباشرة .

وفى الحفلة الأولى، قدمت أم كلثوم ثلاث وصلات جديدة . وجاءت فى الشهر التالى أغنية جديدة فى الوصلة الأولى وإذا بالجمهور يحتج مطالبا بإعادة أغانى الحفل الأول . وأرست أم كلثوم تقليدا جديدا لحفلاتها، وهى أن تقدم فى الموسم كله أغنية جديدة أو أغنيتين وتعيد أغانيها المشهورة .

تقول د. نعمات فؤاد[٦] :

كانت أم كلثوم منذ عام ١٩٢٥ تغنى فى مسرح فؤاد بشارع عماد الدين . وكان هذا المسرح يتسع لثلاثمائة متفرج فى الصالة والألواج ، وكان حلم أم كلثوم الكبير مسرح حديقة الأزبكية باستعداده الضخم نسبيا .

ولاحت الفرصة فى عام ١٩٣٤ ، حين غنت فيه حفلة خاصة ببنك مصر. فلما تعاقدت معها الإذاعة على الحفلات العامة ، تمسكت بمسرح الأزبكية » .

الوتر الحساس للإسلام :

ظل صوت أم كلثوم الوتر الحساس للإسلام . فقد استطاعت أن تجعل الدين موضوعا للفن . كتب أحد علماء دمشق يقول : إن أم كلثوم تقوم بدعاية للإسلام أكثر مما يقوم به الأزهر. وكتبت مجلة لايف تصف هذه السيدة بأنها ظلت لمدة خمسة وثلاثين عاما الوتر الحساس للإسلام .

فأم كلثوم قدمت منذ طفولتها العديد من الموشحات الدينية ، ثم قامت بغناء قصائد أحمد شوقى الدينية التى رددتها أفواه عامة الشعب .

نقد أم كلثوم لأغانيها :

سألتها مجلة الجيل (١٧/ ١١/ ١٩٥٨) عن حقيقة شعورها عندما تسمع صوتها قالت :

« إنه شعور بالضيق !! وسبب ضيقى أننى عمرى ما رضيت عن أدائى لأغنية من أغنياتى رضاء تاما . عمرى ما اعتقدت أننى قد نجحت فى أ داء أغنية مائة فى المائة . وفى الوقت الذى قد يكون فيه الناس معجبين بصوتى وأدائى أكون أنا فى حالة حساب عسير مع نفسى . ففى كل مرة أستمع فيها إلى نفسى أحس أنه كان يمكننى أن أؤدى الأغنية بطريقة أفضل . وأنا أعتقد مادمت أستطيع اكتشاف عيوبى الفنية فى الأداء

فسأظل أتقدم ولن أقف ولن أتأخر » . وفى حديث آخر قالت :

« عندما أستمع إلى غنائى أحس بضيق أحيانا . . فقد يخيل إلى أننى فى هذا المقطع من الأغنية لم أكن دقيقة بالقدر الكافى . وكان فى إمكانى أداؤه أحسن مما قدمت . وهذا يسبب لى شيئا من العصبية . ولكنى مع الوقت أجد نفسى مستفيدة من هذه الملاحظات ، وأحاول عند إعادة الأغنية تلافى عيوبى . . وتقديم الأغنية بشكل أحسن . »

ويروى أن أم كلثوم على الرغم من أنها قامت بنقد أغانيها نقدا مبالغا فيه . . فإنها كثيرا ما تعجب بأدائها وغنائها . فعندما تستمع إلى شريط أغانيها أو أسطوانة وتكون وحدها . . وتعجبها (حركة) ، تصيح كما يفعل أى سميع معجب :

ـ يا شيخة مش كده ! ده جنان . . إيه ده ! !

وكان لصوت أم كلثوم أثر كبير على ملحينها ، فقد فرض هذا الصوت نفسه على الألحان . فالأغانى التى لحنت لأم كلثوم كان لها طابع معين يتمشى مع القيمة الفنية لهذا الصوت . فالألحان كلها كانت تدور فى فلك صوتها أكثر مما يدور صوتها فى فلك الألحان ، ولذلك كثيرا ما نسمع كلمة « لون كلثومى فى الغناء » . فأم كلثوم تعتبر مدرسة غنائية متفردة .

كانت أم كلثوم حينما تغنى تنفعل بما تتغنى . . وكان إحساس المستمع أنها تغنى له وحده . . وأكد الشاعر « أحمد رامى » هذه الحقيقة فى حديث له . حين قال :

« إنها فعلا ـــ ودائما ـ تغنى لشخص واحد . . ولايهم أن تعرفه ، فهى تختار من الجمهور أى واحد ترتاح إليه . . وتغنى له وحده . . وتكلمه وهى تغنى . »

وذات ليلة ـــ أبدعت فى غنائها إلى حد بعيد . ولاحظ « رامى » أنها كانت طول الوقت تنظر إلى آخر الصالة . . تغنى لشخص واحد . . وفى الاستراحة ذهب إليها يسألها . . فقالت :

« إنها كانت تغنى لشيخ ضرير لمحته فى المقاعد الأخيرة . . فقررت أن يكون غناؤها له وحده . »

وتقول أم كلثوم :

« عندما أغنى أغنية جديدة ــ لأول مرة ــ أشرحها للجمهور . وأفسر معانيها ولحنها . وعندما أتأكد أنها وصلت إليه : أبدأ فى الحفلات التالية أتصرف فيها . . وأترنم على راحتى » .

الصوت يتحدى

تحدى صوت أم كلثوم قوانين الطبيعة . فالصوت عادة يشيخ مع التقدم فى السن . ولم يحدث غير تغيير طفيف فى صوت أم كلثوم فى السنوات الأخيرة . وذلك بعد تخطيها سن الستين . . وهو انخفاض فى مساحات طبقات صوتها المرتفعة بينما احتفظت بجمال رنين صوتها .

وكمتخصصة فى فن الغناء ، أستطيع أن أحلل ذلك بأن أسلوبها فى الغناء كان بعيدا عن العنف . . إلى جانب تأهيلها فى بداية حياتها الفنية « بالتكنيك » الغنائى المتين ، وهو تلاوتها للقرآن الكريم وأداؤها للموشحات الدينية والقصائد لفترة طويلة ، مما أكسب صوتها مدرسة غنائية سليمة . ونلاحظ أن قارئى القرآن الكريم يستمرون فى قراءتهم فترة طويلة تصل فى أحايين كثيرة إلى سن السبعين . فأساليب تلاوة القرآن الكريم ، إذا ما قورنت بأساليب الغنا ء العالمى ، نجد أنها تتفق معها فى القواعد المتبعة فى التنفس ومخارج الحروف . والمعروف أن العرب كانوا سابقين لأوربا فى وضع أسس الغناء السليم وكان ذلك على يد « زرياب » .

هذا إلى جانب الحياة المستقرة التى كانت أم كلثوم تحياها ، واهتمامها بصحتها وابتعادها عن السهر .

وكتب الأستاذ حماد فى مجلة الناقد عام ١٩٢٧ ، يقول :

« تقف أم كلثوم للغناء . . أمـام الجمع المحتشد فـلا تزال كـل جوارحهـا تشعرك بقلق وحركة دائمين كأنها تتصل بأسلاك الكهرباء أو كأنها ريشة فى مهب الرياح . وما إن تستجمع قواها وتبـادل الجمهور التحية حتى تبدأ غناءهـا فى نغمة رقيقة تنساب فى هدوء كمجرى النهر العـذب . وما تكاد تملك زمام الجمع المنصـت حتى تعلو رويدا رويدا فى أنغامها ، وأنت تلمس ما وراء تلك الضلـوع من الثورة المكتومة . فإذا تملكها الانفعال ، وجـاشت الألحان التى تعترك فى قرارة نفسهـا ، أرسلتها رنينا عاليـا ، فيعم الجميع الشجو والطرب فيثور هو أيضا . وصـوتها عذب ينساب فى رقة النسيم . وهى ترسله على حريته ، وما إخالك إلا مقـدرا ما فى الحرية من جمال ومالها من سحر ! ثم إنها لا تلزم نفسها بكثير أو قليـل من القواعد والقيـود . بل تكاد تسايـر طبيعتها التى نشأت على أكمل معانـى الحرية وأوسع حدودها يوم كـانت تمرح فى أرض الله الواسعة متنقلة بين المزارع ووسط مناظر ريف مصر البهيجة » .

يقول إلياس سحاب(٧) :

يعتبر البعض صوت أم كلثوم رمزا من رموز الوحدة العربية ، والارتباط بأرض الوطن. بينما البعض الآخـر يعتبر صوتها رمـزا للتخلف ، وحجـر عثرة أمـام أى تطور فنـى فى الوطن العـربى ، وسببا مباشرا مـن أسباب النكسة . وعلى صغر حجـم هذا البعض الأخير، فإن صوته كان يعلو من وقت لآخـر بالنقد المر، والتهجم على ما تمثله أم كلثوم وفنها .

والذى يريد أن يصـدر حكما اجتماعيا أوسياسيا أو حضاريا على فنـان ما (خاصة إذا كان فنانا كبيرا فى وزن أم كلثوم) ، فإن ذلك لا يعفيـه أبدا من التعرف الكامل على آثار هذا الفنان وعلى عصره ، وعلى العصر الذى سبقه ، وإلا فقد حكـمه قيمته وتحول إلى مجرد ثرثرة أو تخمين فى أحسن الأحوال ، فقبل أم كلثوم كان هناك نوعان من الغناء ، يقف بينهما سيـد درويش كظاهرة جـديدة ، كانت فى ذلـك الوقت تشكل شيئـا قائما بذاته ، مستقلا عن سياق الحياة الموسيقية الغنائية .

كان هناك تراث القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، الذى توج بالأعمال التطويرية والانتقالات المقامية والتغييرات الإيقاعية . فكانت تعوض قصور الكتابة الموسيقية العربية ، وتمثل قمة هذا التقليد القديم الذى يعتمد على التحفيظ البسيط للحن المفرد الذى يصحبه الإيقاع . فكانت تأتى بالكثير مما يقوم به الموسيقى الدارس لأصول التأليف العالمى فى كتابته وتعامله مع اللحن بأساليب التطوير، إذ كانت تكرر اللحن مرارا بابتكارات لا نهائية ، مما يمكن إعتباره إعادة لتأليف اللحن . . وبطريقة تتجاوب تلقائيا مع مزاج الجماهير ، ومدى مقدرتهم على السمع والاندماج - هذا من ناحية موسيقيتها النادرة ، وحسها وسرعة بديهتها وعمق فهمها . أما نبراتها ، فكانت قوية وثابة وحلوة عذبة ، صامدة. . كانت تحفر فى تجاويف الفراغ زخارف نادرة ترسخ فى ذاكرة جماهيرها وتكون أحاسيسهم وتوجه فكرهم وتوحد بين نبضات قلوبهم» .

جاء فى مقال للناقد الفنى كمال النجمى تحت عنوان « أم كلثوم ومذهب حنكش[11](*) « . . يرى حنكش أن الغناء العربى الآن أشبه بالإمبراطورية البريطانية فى أواخر أيامها ، لا يحميه من الزوال ، ولا يحفظ هيبته إلا أم كلثوم المتربعة بعبقريتها التى لا تتكرر ، فوق عرشه ، ومن حوله وحولها ملايين المستمعين بين المحيط والخليج ! . .

جددت أم كلثوم فن الغناء العربى ، وردته إلى أسلوبه الحضارى الأول . وكان ما صنعته أم كلثوم فى الغناء العربى شبيها بما صنعه محمود سامى البارودى باشا فى الشعر العربى ، منذ مائة عام تقريبا . كلاهما رد فنه الجميل إلى الطريقة العربية التى داستها أقدام العثمانيين والجركس وشراذم الغجر والوافدين على مصر من البلاد الأعجمية طوال مئات السنين .

كانت ثورة البارودى فى الشعر العربى لمحة من تباشير ثورة عرابى باشا فى سبيل القومية المصرية والعربية . وكانت ثورة أم كلثوم فى الغناء المصرى امتدادا لليقظة القومية المصرية الشاملة بعد ثورة ١٩١٩ ، وما حملته من بذور الانفتاح على الأمة

(*) نجيب حنكش (سميع قديم لأم كلثوم . . وهو لبنانى الأصل) .

العربيـة التى تقع مصر فى وسطهـا . واكتملت بتحرير الشعـر العربى وتحريـر الغناء العـربـى ، ثـورة مـزدوجـة لهذيـن الفنين الجميلين العظيمين ، ردت إليهما أصـالتهما العريقة فى صـورة معاصرة، تعبيرا عن عودة الـروح القومية فى الفن والأدب بعـد طول غياب ! . .

لم تكن أم كلثوم وحدها فى هذا المجال بطبيعة الحال ، كما لم يكن البارودى وحده . فلا ينسى أحد مـا صنعه سيد درويش الذى عاصر نشأة أم كلثوم ، وكـان يعبر بأمانة ونبوغ عن الروح المحلية للشعب المصرى خـاصة ، وعن المزاج المصرى المحلى الذى قد يختلف بعض الاختلاف عن الأمزجة عند الشعوب العربية الأخرى . .

وكانت بداية محمد عبد الوهاب المصاحبة لبداية أم كلثوم ، فأدت دورا بالغ الأهمية فى إعادة الغناء المصرى إلى ذوقه ولسـانه وخياله العربى ، وارتبـط دوره هذا بدور أحمد شوقى الشاعر الكبير الذى حمل راية الشعر بعد البارودى .

وإلى المشايـخ والفنانين ذوى الفطرة المرهفة فى العشرينيـات والثلاثينيات، يـرجع الفضل فى تحريك الغناء العربى من رقدته الطويلة ، وإحياء الموشحات القديمة التى جمعها الشيـخ الفنان شهـاب الدين خـلال النصف الأول مـن القرن التـاسع عشر فى كتابـه «سفينة الفلـك »، والذى اشتهر بين المشـايخ الفنانين وغيرهـم باسـم « سفينة شهاب » !

ولما كـانـت الحمـولـة ثمينـة، تبلغ ثـلاثمائة وخمسين مـوشحـا مختلفـة المقـامـات والإيقاعات والأوزان العـروضية وأساليب التلحين، فقد أخذوا منهـا وتعلموا وأنشئوا فنا جديدا . وبعد هـؤلاء المشايخ والفنانين ، مضت أم كلثوم ترفع رايـة الغناء العربى وسط مـلايين المستمعين فى البلاد العـربية . وهكـذا أصبح البـاب موحـدا أمام كـل طريقة أخرى فى الغناء » .

تخصصت أم كلثـوم فى المحافظة على طـابع الموسيقـى المصرية العربيـة الأصيل ، وتفننت فى تطـويره والارتقـاء به . هـذا الفن الـذى يعتمد على التراث وعلى المقـامات والضروب . . والارتجالات والزخارف اللحنية ، وعلى الأداء . فكانت هى تتويجا لعظمة

هذا الفن فى قمة ما وصل إليه . فلم تستمع منها إلى لحن صرف أو نظم فقط . . ولكن إلى صوت وإبداع . . استمعنا منها دائما إلى أم كلثوم . فقد كان اللحن يخرج من كيانها ممزوجا بأحاسيسها وذوقها ، وارتجالاتها الخاصة التى كانت تعطى للحن كيانه ، وتعمق أصالته وتربطه بتاريخ الموسيقى العربية وسائر مقدماتها . ففى قوالب الموسيقى العالمية ، تبنى الكتابة الموسيقية على دراسات يهتم فيها المؤلفون بدراسة كل لحن وتطويره فى انتقالات مقامية وهارمونية ، وتلوينات أوركسترالية ، وتطورات لحنية . ويقوم المغنى باتباع خط التأليف الموسيقى المتطور بدقة قدر المستطاع .

منذ أن بدأت أم كلثوم حياتها الفنية فى القاهرة، وهى تتمتع بأكبر جمهور من المستمعين عرفه الغناء حتى يومنا هذا . والدليل على ذلك ما كتبت عنها الصحف منذ أن اعتلت خشبة المسرح . . فكتب محرر مجلة الكشكول (العدد ٥٧ الصادرة فى ١٨ يونية عام ١٩٢٢ تحت عنوان « إرادة الشعب وأم كلثوم » :

« لم تتهيأ لى فرصة أستمع فيها إلى صوت الآنسة أم كلثوم التى كثر الإعلان عنها ، وتحدث الناس بها ، إلى أن كانت ليلة السبت الماضية ، وعلمت أنها تغنى الناس أو على الأصح تنشدهم فى تياترو برنتانيا تلك الليلة . فشخصت إليه فى رفقة من صحبتى . وبعد الجهد أصبنا « لوجا » فى الطبقة الثانية ، إذ كان التياترو كله قد غص بالناس على اختلاف طبقاتهم . وقد أجلت بصرى طويلا ،وتفحصت فى جميع أقطار المكان ، فلم أجد كرسيا واحدا خاليا .

وبدأت أم كلثوم تغنى، فكانت رائعة الصوت ، بارعة الصنعة ،حسنة الإلقاء ، بديعة الإشارة ، لطيفة الإيماءة، تجتهد فى أن ترضى الناس وتدخل السرور على ألبابهم، ولقد كان لها من هذا ما أرادت » .

أم كلثوم والعود :

أجادت أم كلثوم العزف على العود . تعلمته على يد أكثر من فنان . أخذت أصول العزف فى البداية على يد ملحنها الدكتور أحمد صبرى النجريدى (الطبيب الهاوى)، ثم على يد إبراهيم القبانى ، ثم محمد القصبجى، وأخيرا داود حسنى . كانت

تصاحب غناءها بالعود . . كما كانت تتوسط أفراد فرقتها (التخت) في حفلاتها بالمسارح فى مطلع الثلاثينيات . . وهى ممسكة بالعود . ثم تفرغت للغناء وحده .

أم كلثوم الباحثة عن الثقافة والعلم :

اتصفت أم كلثوم بذكائها وحضور بديهتها وسرعة الخاطر . . سعت وراء تثقيف نفسها . فدرست اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، وحفظت مئات الأبيات من الشعر لفحول الشعراء . . واستفادت بصلتها القوية بشاعر الشباب أحمد رامى ، الذى علمها تذوق الشعر .

قرأت أم كلثوم أمهات الكتب العربية . . ودواوين الشعراء القدامى والمحدثين . تعلمت اللغة الفرنسية حتى أتقنتها . . بل وأجادتها . كما حرصت على مجالسة الأدباء والمفكرين تتزود منهم علما وثقافة . وانعكس كل ذلك على أدائها واختيارها للكلمة .

أم كلثوم والغدة الدرقية :

منذ عام ١٩٤٩ ، وأم كلثوم تعانى من الغدة الدرقية . وعرضت الولايات المتحدة الأمريكية على مصر أن تعالج أم كلثوم ، بمستشفى البحرية الأمريكية ، وهو مستشفى تخصصى . . لا يعالج به غير رجال البحرية الأمريكية وعظماء شخصيات العالم .

وعندما سافرت أم كلثوم ، لم يجرؤ واحد من الأطباء الأمريكان أو العرب على إجراء عملية جراحية ، تهيبا لما قد يترتب عليها من مشاكل فى صوتها . وفضلوا استعمال الذرة فى علاجها . . وشفيت أم كلثوم . . وعادت إلى مصر . . واستقبلت استقبالاً شعبيا رائعا فى الإسكندرية . . وأقام الفنانون والشعراء والأدباء مهرجاناً جمع بين الخطب والقصائد الشعرية والزجل والغناء . وقدم لها « المصور » ميدالية عليها صورتها من صنع المثال « عباس الشيخ » ، وتبارت الهيئات والجمعيات فى تكريمها .

وفى ١٨ يناير من عام ١٩٥٥ ، نشرت جريدة الأخبار تحت عنوان « أم كلثوم هى السبب فى إنشاء معهد للذرة فى مصر » : إن المعونة التى قدمتها الطاقة الذرية لإنقاذ الحياة الفنية لأم كلثوم ، أشهر مطربات مصر ، كان لها الفضل فى وضع الحجر الأول فى مشروع الرئيس أيزنهاور لاستغلال الذرة فى الأغراض السلمية فى الدول الأجنبية .

وأثناء وجود أم كلثوم فى الولايات المتحدة الأميريكية ، توفى شقيقها وأعز إنسان لديها . . وأوصى الأطباء بإخفاء الخبر عنها ، حتى لا تموت من الصدمة أثناء العلاج .

ومن المعروف أن أحد كبار موظفى وزارة الخارجية الأمريكية ، طلب من أم كلثوم أن تغنى أغنية واحدة لمحطة إذاعة صوت أمريكا بعد شفائها . ورفضت أم كلثوم، وقالت :

سيكون أول غناء لى بعد شفائى لإذاعة مصر، لا لإذاعة أمريكا . وأنا مستعدة أن أدفع كل مصاريف العلاج، لأغنى فى بلدى أولا ! !

فى أيامها الأخيرة :

كانت أم كلثوم عندما تقوم بتسجيل أغانيها، تقف طيلة فترة التسجيل ، مهما طالت المدة . . دون أن تشكو أو تشعر بالتعب . وفى آخر تسجيل لها . . وكان لحن محمد عبد الوهاب . . . كان يبدو عليها التعب الشديد . حاولت أن تتماسك . . ولكن التعب كان أقوى منها ، فجلست على كرسى . . وجاء مهندس الصوت وأصلح من وضع الميكروفون ، حتى تستطيع الغناء دون أن تبذل مجهودا كبيرا .

ومنذ هذا اليوم، أحس الحاضرون فى الأستوديو بمرض أم كلثوم الشديد .

وفى السنوات العشر الأخيرة من حياتها ، أى بين منتصف الستينيات ومنتصف السبعينيات، بدأت أم كلثوم تشعر بخوف فى مواجهة الجماهير على الرغم من محبته العظيمة لها . وكان هذا الخوف كثيرا ما يسبب لها اللجلجة والنسيان . . فيتأثر مستواها الفنى المعهود . وظهر ذلك واضحا بعد مرضها بالغدة الدرقية .

ويؤيد المؤرخ كمال النجمى هذا الرأى بقوله : « إن هناك فرقا بين أداء أم كلثوم قبل مرضها بالغدة الدرقية ، حين كانت تواجه الجمهور بصوتها مجردا يهز المسرح بلا ميكروفون ، وبعد مرضها عندما لجأت إلى الميكروفون .

الفصل الخامس
القوالب الغنائية التى غنت منها أم كلثوم

فى الثلاثينيات ، اكتمل بنيان الغناء العربى على قواعده الأصولية . . واكتملت المدارس الغنائية . . فالمطربات بزعامة أم كلثوم ، والمطربون بزعامة عبد الوهاب . وانقسم الملحنون أيضا وراء أم كلثوم وعبد الوهاب . وظهرت قوالب غنائية جديدة . كما انكمش الدور . . فلم يعد مسموعا فى الثلاثينيات إلا من مطربى الغناء ، مع أدوار قليلة بصوت أم كلثوم وعبد الوهاب

فى الثلاثينيات تغير تكوين « التخت » ، وظهر إلى جانب العود والقانون والناى والكمان ، عدد كبير من الآلات الأوركسترالية الأوربية . واستطاع الموسيقيون تعريب هذه الآلات الأوربية ، وتطويعها لتؤدى المقامات العربية . كما انصرف الجمهور فى الثلاثينيات عن المسرح إلى السينما ، بعد أن أصبحت ناطقة . . وانتقلت الأصوات من المسرح إلى السينما . . ومن لم يستطع الظهور فى السينما اتجه للغناء بالإذاعة .

الدور:

كان فن الدور يوشك أن يطوى أوراقه ويودع الدنيا ، عندما بدأ زكريا أحمد فى تلحين الأدوار لأم كلثوم ، وذلك بداية من عام ١٩٣١ . وهو دور « هو دا يخلص من الله» . وكان زكريا يحاول تطوير فن الدور، بينما فن الدور يغادر ساحة الغناء المعاصر .

ويبدو أن زكريا لحن هذه الأدوار بناء على رغبة أم كلثوم ، لتعلقها بهذا اللون من الغناء . فزكريا لم يلحن أدوارا لغيرها من المطربات والمطربين ، باستثناء الدور الذى

غنته ليلى مراد ، ودور آخر غناه عزيز عثمان . وثمة دور ثالث غناه زكريا بصوته . وهذه الأدوار الثلاثة جاءت فى نفس الحقبة التى لحن فيها زكريا أدواره لأم كلثوم .

وفى المدة نفسها ، لحن داود حسنى لأم كلثوم عشرة أدوار . إلا أن أدوار زكريا امتازت بمحاولاته للتجديد والإبداع فيها . . فى حين تمسك داود حسنى بطريقة التلحين الأصولية للأدوار، كما تعلمها وسمعها من أساتذته محمد عثمان وعبده الحامولى .

إن هذه الأدوار التسعة عشر لزكريا أحمد وداود حسنى ، هى كل ما غنته أم كلثوم من الأدوار طوال حياتها الفنية الحافلة .

والدور يتطلب أصواتا قوية ، متمكنة ، وهو ما كانت أم كلثوم تتميز به . أشار «نجيب محفوظ » فى روايته « خان الخليلى » ، عندما وصف فى سياق الرواية « قعدة » فى حى الحسين ، تحدث فيها الأصدقاء عن الغناء ، إلى أن قال أحدهم :

« أجمل ما تسمع الأذن سى عبده الحامولى إذا غنى ياليل . والشيخ على محمود إذا صعد مئذنة مسجد الحسين وأذن لصلاة الفجر، وأم كلثوم فى دور « امتى الهوى ييجى سوا »، وما عدا هؤلاء فحشيش مغشوش بتراب » .

وكانت لدور « امتى الهوى ييجى سوا » عند المستمعين ضجة . وهو من كلمات الزجال « حسن صبحى » ، لحنه زكريا من مقام هزام . ويبدأ بمقدمة قصيرة . . ولم تكن للأدوار مقدمات . . وأدخل فى الدور لزمات موسيقية تصل الفقرات . . وعدل عن استخدام مذهبجية من المطربات ، كما فعل فى دور « ابتسام الزهر » الذى شارك فى غنائه مذهبجيات . سجلت أم كلثوم هذا الدور على أسطوانة أوديون عام ١٩٣٦ ، وفيه يظهر صوت زكريا أحمد الغليظ القدير ، يتردد بين أصوات المذهبجية فى جزء الآهات والمذهب .

ومن أجمل أدوار زكريا أحمد لأم كلثوم ، دور « هو دا يخلص من الله » . وهو أول أدوار زكريا لها ، والذى أحدث صدى واسعا عند المستمعين . فهو من مقام زنجران ، ومن كلمات بديع خيرى .

ويعتبر هذا الدور قمة غنائية أبرزت إمكانات أم كلثوم الصوتية وقدرتها على أداء هذا اللون من الغناء . ويعتبر هذا الدور أعظم أدوار زكريا على الإطلاق ، فضلا عن كونه من أعظم الأدوار فى تاريخ الغناء المعاصر .

ومن أدوار زكريا المميزة ، دور « مين اللى قال » و«ابتسام الزهر » و « يا قلبى كان مالك و « يا للى تشكى م الهوى هوّن عليك » . وقد توالت هذه الأدوار خلال أربع سنوات .

وآخر ما لحن زكريا لأم كلثوم من أدوار كان فى أواخر عام ١٩٣٨ ، وهو دور للزجال يحيى محمد ، ومطلعه « ما كانش ظنى فى الغرام » ، وكان زكريا قد أخذه من إحدى المجلات وقام بتلحينه . غنته أم كلثوم عام ١٩٣٩ . وبهذا الدور طوى زكريا أحمد صفحة فن الدور واكتفى بما لحن فى هذا القالب الغنائى . .

يقول كمال النجمى :

« لولا ما صنعه محمد عثمان والمسلوب وعبده الحامولى فى فن الدور ، لما استطاع الغناء المصرى أن يثب تلك الوثبة التاريخية الهائلة ، منذ منتصف العشرينات إلى يومنا هذا ، ولما أمكن أن تظهر أم كلثوم وعبد الوهاب وغيرهما فى الثوب الفنى الرائع المتجدد الذى رأيناه . . فالحقيقة أن عصر أم كلثوم وعبد الوهاب مدين للملحنين الفحول ، الذين تفننوا فى تلحين الأدوار الخالدة التى استوعبت مالا يمكن إحصاؤه من الضروب والمقامات ، والتى لم يسبق للغناء المصرى والعربى أن يكون قد سلك طرقها من قبل . »

ويمكن أن يقال إن الأغنية الطويلة التى اشتهرت بأدائها أم كلثوم بداية من الأربعينيات ، وليدة فن الدور، وإن اختلفت عنه فى الشكل والصياغة . ويرى كمال النجمى أن الطقطوقة أيضا وليدة الدور . . فهو يقول :

« إن الطقطوقة الحديثة وليدة هذا الفن ، وليست امتدادا للطقطوقة القديمة مثل

«ارخى الستارة اللى فى ريحنا » وغيرها من طقاطيق ما قبل ستين عاما . فصالح عبد الحى عندما غنى فى الخمسينيات طقطوقة « ليه يا بنفسج » من تلحين رياض السنباطى ، كان صالح يقول مفتخرا «إن هذه الطقطوقة تساوى دورا غنائيا بأكمله . »

أما عن الأدوار التى لحنها داود حسنى لصوت أم كلثوم ، فقد تحدثنا عنها فى الفصل الأول من هذا الكتاب .

القصيدة :

غنت أم كلثوم الدور والموشح والموال والطقطوقة ، غير أنها اختارت قالب القصيدة الشعرية . غنت العديد من القصائد لكبار الشعراء العرب . غنت من شعر « أبى نواس الحمدانى » ولحن « عبده الحامولى » قصيدة « أراك عصى الدمع شيمتك الصبر» ، ومن قصائد « عمر بن الفارض » غنت « غيرى على السلوان قادر » . و«للشيخ عبد الله الشبراوى » (أحد مشايخ الأزهر السابقين فى القرن الثامن عشر) غنت «وحقك أنت المنى والطلب » . ومن شعراء العصر الأيوبى غنت « لابن النبيه المصرى» «أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا » . . وغيرهم .

ويرجع لأم كلثوم وملحنى قصائدها فضل كبير فى أن جعلت أفراد الشعب العادى يتغنى بالأشعار . . ويفهم مضمونها . والمعروف أن الشعر هو أعلى ما بلغت إليه ألفاظ اللغة العربية .

وكان لأم كلثوم ذوقها الخاص فى اختيارها القصائد المغناة . . والكثير منها مأخوذ من دواوين بأكملها مثل قصيدة سلوا قلبى (أحمد شوقى) ، فهى من ديوان مؤلف من واحد وسبعين بيتا . . اختارت منها أم كلثوم واحدا وعشرين بيتا للغناء . الأبيات الستة الأولى فى الغزل . والخمسة التالية فى الحكمة . . وباقى الأبيات فى مديح الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

كما اختارت أم كلثوم قصيدة « نهج البردة » التى تضم ثلاثين بيتا من ديوان لشوقى

يضم مائة وتسعين بيتا . ومن الثلاثين بيتا التى اختارتها أم كلثوم ، ستة منها فى الغزل وثلاثة فى الحكمة . . وخمسة فى الضراعة والتعبد ، واثنا عشر فى مدح الرسول ، وأربعة فى الدعاء . وقصيدة « إلى عرفات الله » مأخوذة من ديوان شوقى الذى يضم ستين بيتا . اختارت أم كلثوم منها خمسة وعشرين بيتا ، منها ستة أبيات حداء لركاب الحجيج ، وثمانية دعاء واستغفار لرب الكعبة . وبيتا واحدا فى الحكمة ، وعشرة أبيات فى زيارة الرسول . وقصيدة همزية شوقى مأخوذة من ديوان يتألف من مائة وواحد وثلاثين بيتا ، اختارت أم كلثوم منها أربعة وثلاثين بيتا . جاءت تسعة أبيات منها فى بشرى مولد النبى ، وثلاث عشرة بيتا فى الإشادة بدعوته للدين الإسلامى ، وسبعة فى مدح الرسول ، وخمسة فى التضرع والدعاء . والأمثلة عديدة .

غنت أم كلثوم فى طفولتها عددا من القصائد التى تعلمتها عن طريق استماعها لفونوغراف العمدة . كذلك حفظت بعض القصائد من والدها الذى كان يحرص على تقديم القصيدة ، ضمن أغانيه فى الحفلات . وكان أستاذ أم كلثوم الأول المطرب والملحن « الشيخ أبو العلا محمد » الذى التقى بها فى قريتها « طماى الزهايرة » قبل بدء حياتها الفنية بالقاهرة .

غنت أم كلثوم من ألحان الشيخ أبو العلا :

قصيدة	الصب تفضحه عيونه	(أحمد رامى) (*)
قصيدة	أقصر فؤادى	(أحمد رامى)
قصيدة	قل للنحيلة بالسلام تورعا	
قصيدة	مثل الغزال	(صفى الدين الحلبى)
قصيدة	وحقك أنت المنى والطلب	(الإمام عبد الله الشبراوى)
قصيدة	يا آسى الحى	(إسماعيل صبرى باشا)
قصيدة	أفديه إن حفظ الهوى	(ابن النبيه المصرى)
قصيدة	أمانا أيها القمر المطل	(ابن النبيه المصرى)
قصيدة	أكذب نفسى	(ابن النطاح)

(*) أول قصيدة تغنيها أم كلثوم لأحمد رامى .

ولم تكن هذه القصائد ملحنة لصوت أم كلثوم . . ولكنها أخذتها عن الشيخ أبو العلا ومن تسجيلاته . وكان الشيخ أبو العلا قد غنى هذه القصائد بصوته .

وسجلت أم كلثوم هذه القصائد بصوتها على أسطوانات شركتى « جرامفون » و«صوت سيدة » .

كما سجلت أم كلثوم قصيدة « أراك عصى الدمع » شعر « أبى فراس الحمدانى » ولحن « عبده الحامولى » من مقام البياتى على أسطوانة أوديون فى عام ١٩٢٦ .

ويقول كمال النجمى :

« الشيخ أبو العلا » أول من أدرك من ملحنى العقدين الأول والثانى من القرن العشرين أهمية التوافق بين الكلام والألحان . مع اهتمامه فى الوقت نفسه باستعراض جمال الصوت وقوته وانضباطه فى الأداء . لم يسبقه إلى المطابقة بين اللحن والكلام أحد من معاصريه فى العقد الأول من هذا القرن . ثم لحق به فى هذا المجال سيد درويش وبقية الملحنين منذ العقد الثانى . وتوسعوا ـ وبخاصة سيد درويش ـ فى تصوير معانى الكلمات والألحان .

وقد تجلى ذلك كله فى القصائد الأولى التى غنتها أم كلثوم من تلحينه مثل « الصب تفضحه عيونه » من تأليف الشاعر أحمد رامى ، وقصيدة « وحقك أنت المنى والطلب» للشيخ عبد الله الشبراوى أحد مشايخ الأزهر القدماء ، وقصيدة شاعر العصر الأيوبى « أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعه » . .

وهذا الشيخ الفنان هو الذى أعاد الغناء المصرى إلى أصوله العربية ، ونفى عنه لهجته التركية والغجرية وغيرها » .

واستطاع الشيخ أبو العلا وأم كلثوم معا أن يردا الغناء العربى إلى طريقته الحضارية التى كانت له قبل سقوط بغداد فى أيدى التتار سنة ١٢٥٨م ، ثم سقوط غرناطة وضياع الأندلس على أيدى القشتاليين « الأسبان » سنة ١٤٩٢ ميلادية .

وكان انطلاق حنجرة أم كلثوم بهذه الطريقة فى غناء القصائد فى العشرينيات ثورة

غنائيـة قائمة على بعث الطـريقة العربية فى الغنـاء ، بدلا من الاقتباس أو التـزود من طرق الغناء الأوروبى .

والعجيب أن الشيخ « أبـو العلا محمد » ترك هـذا الأثر الفنى العظيم ، مـع أنه لم يعايش أم كلثوم فى القاهرة إلا حوالى خمس سنوات ، أى من سنة ١٩٢٢ إلى أوائل سنة ١٩٢٧ حينما توفى .

وهـذه السنوات القـلائل كانـت المدرسة الحقيقيـة التـى تلقت فيهـا أم كلثوم فـن القصائد من شيخها الفنان ، وكان هو نفسه شاعرا يملك موهبة نظم الشعر، وموهبة تلحينه فى وقت واحد . وله قصيدة يمدح بها أم كلثـوم ، ويبدى فيها إعجابه بصوتها فى تلك المرحلة المبكرة من عمرها .

ويذكر عارفو الشيخ أبو العلا أنه كان شديد الخوف على أم كلثوم ، متوقعا لها حياة قصيرة ، لأنها على حـد تعبيره « تغنى بـدمها » ، أى تحرق دمهـا فى الغناء ، ولهذا لـن تعمر طويلا !

ولكن مخاوف الشيخ لم تتحقق لحسن الحظ . »

ثـم جـاء الطبيـب الهاوى د . أحمد صبرى النجريـدى ليلحـن لأم كلثـوم بعـض القصائد . ويمكـن القول إن أسلـوب النجريـدى فى تلحينه للقصيـدة يعد امتـدادا للشيخ أبو العلا محمد . من هذه القصائد :

قصيدة	كم بعثنا مع النسيم سلاما	(إبرهيم حسنى ميرزا)
قصيدة	لى لذة فى ذلتى وخضوعى	
قصيدة	مالى فتنت بلحظك الفتاك	(على الجارم)

ثم جـاءت مرحلة محمـد القصبجى وألحانه لأم كلثوم التـى جاءت بالجديـد فى فن الغنـاء ،غير أن محمد القصبجـى لم يكـن من ملحنـى القصـائد ، وإنما تعـد أغانيـه الناجحه لأم كلثوم من لون « الطقطوقة » و « المونولوج » .

حـاول القصبجى أن ينقـل نجاحـه فى تلحين المونولـوج إلى القصائد . . ولكنـه لم يوفق . .

ويقول كمال النجمى :

« لم يوفق القصبجى فيما حاول تلحينه من القصائد ، ولم يتيسر له إلا القليل ، فإن قصائده مثل « يـا غائبا عن عيونـى » و « يا نسيم الفجر ريـان الندى » و « أيها الفلك على وشـك الرحيـل » لم تكن الا تقطيعـات لحنيـة ، مصحوبـة بنقرات على العـود ، تصاحبها أصوات آلات موسيقية أخـرى قليلة تعزف على استحياء ، بينما يجهد صوت أم كلثـوم لتنفيذ سينـاريو « التعبير » الـذى رسمه القصبجـى ، كأنـه دوائر هندسيـة جامدة » .

وليس للقصبجى إلا قصيدة واحدة جمع فيهـا بين التعبير والطرب العربى الأصيل وهى قصيـدة « يا فؤادى غـن ألحان الوفاء » التـى غنتها أم كلثوم فى فيلـم « دنانير » . ويخيل إلى المستمع أن القصبجى تأثر فى بعض مقاطعها بلحن النجريدى لقصيدة «كم بعثنا مع النسيم سلاما » .

لم يلحن القصبجى لأم كلثوم إلا سبع قصائد وهى :

- إن حالى فى هواها عجب سنة ١٩٢٦
- انظرى سنة ١٩٢٦
- إن يغب عن مصر سعد سنة ١٩٢٧
- أيقظت فى عواطفى سنة ١٩٢٨
- أيها الفلك على وشك الرحيل سنة ١٩٣١
- يا غائبا عن عيونى سنة ١٩٣١
- يا فؤادى غن ألحان الوفاء سنة ١٩٣٩

واشترك محمد القصبجـى مع رياض السنباطـى فى تلحين قصائد أوبرا عايـدة من «فيلم عايـدة » الذى مثلت فيه أم كلثوم دور الأميرة الحبشية (عـايدة) . وكان الهدف

من تقديـم هذا الجزء من أوبرا عايدة فى فيلـم من أفلام أم كلثوم ، هو البـدء فى تأليف هذا اللـون من الغناء الغـربى ، وإدخالـه ضمن ألوان الغنـاء العربى . فشلـت هذه المحاولة ، بل وفشل الفيلم بأكملـه على الرغم من جمال الألحان الأخرى التى تغنت بها أم كلثوم . وعلى الرغم من جودة ألحان القصبجى والسنباطى فى جزء أوبرا عايدة . . الا أن الجمهور لم يستسغ هذا اللون من الغناء الأوبرالى . . وكانت عايدة هى المحاولة الأولى ، ولم تكررها أم كلثوم فى أفلامها أو غنائها فيما بعد .

لم يكن القصبجـى ميالا إلى تلحين الشعر ، وحـاول إخضاع القصائد التـى لحنها لنفس أسلـوب تلحينه للـزجل العـامى فى الطقطـوقة والمونـولوج ، وهـذا هو السبـب الأساسى لفشل القصبجى فى تلحين الشعر الفصيح .

وجاء زكـريا أحمد بقصـائده المميزة . فلحـن لصوت أم كلثـوم القصيدة الشعـرية الوحيـدة فى فيلمها الأول وداد (١٩٣٥) ، وهـى من شعر الشريـف الرضـى . أحد كبار شعراء العصر العباسى الثانى . نظمها على بحر « الخفيف » ومطلعها :

أيها الرائح المجد تحمّل   حاجة للمتيّم المشتاق

لحنها زكريا أحمد من مقام الصبا . . وأبـدع فى صياغتها . وكانت هى أول قصيدة يلحنهـا لأم كلثوم . . وفيها أثبت براعته الفائقـة فى تلحين الفصيح . وعندما شرعت أم كلثوم فى تقديم فيلـم « دنانير » ، أسندت إلى زكريا تلحين جميع مـا فيه من قصائد الشعر . وكانت أربع قصائد ثلاث منها مجتمعة فى موقف واحد ، تبدأ كل منها بقول الشاعر :

قولى لطيفـك ينثنى عن مضجعـى . أما القصيدة الرابعـة ، فهى من تـأليف أحمد رامى . . وهـى قصيدة بـاكية مـن مقام الصبـا مطلعها : « رحلـت عنك سـاجعات الطيور » .

وآخر ما لحن زكريا من القصائد لأم كلثـوم ، كان من شعر الشيخ محمد الأسمر . وقدنظمه تحية للجامعة العربية سنه ١٩٤٥ ومطلعه :

زهر الربيـع يـرى أم سـارة تحـب

وروضة أينعت أم حفـلة عجـب

أى أن حصيلـة زكـريا أحمد لأم كلثـوم مـن القصـائد لم تخرج عما قـدمه لأفـلامهـا السينمائية . . وتلك المنـاسبة التاريخية المتعلقـة بالجامعة العربيـة . وقصيدة « بين ذل الهوى وعزة نفسى » وهى من الأعمال التى لم تنتشر ولا يذكرها الآن أحد .

أما الوثبة الكبرى فى فـن القصيدة ، فكانت على يد رياض السنبـاطى الذى لقب بأبى القصيدة . فقصائد السنباطى هى شـوامخ هذا المجال من الغناء . أدخل عليها رياض المقـدمات واللزمات الموسيقيـة كما أكثر من تنقـلاته فى المقامات ، ممـا أكسب اللحن ثراء .

كان السنباطى متأثرا بالرعيل الأول مـن ملحنى القصائد . كما كان متأثرا بأسلوب زكريا فى هذا المضمار . ويبدو ذلك واضحـا فى أول قصيدة من ألحانه لأم كلثوم ، وهى من شعر أحمد رامى ومطلعها :

كيف مرت على هواك القلوب　　　فتحيرت من يكون الحبيب

ولكـن سرعان مـا استطاع ريـاض التخلص مـن جـاذبية أسـلافه فى التلحـين ، وانطلق بأسلوبـه المميز فى فضاء هذا الفن العريق . فن تلحين القصيدة الذى فتح له صوت أم كلثوم أبوابا سحرية . وبذلك تفتحـت موهبة السنباطى ولبى بألحانه صوت أم كلثوم وارتفع به إلى قمة الغناء .

يقول كمال النجمى (١٣) .

« لقد تخطـى السنباطـى أسلافة ومعـاصريه فى تلحين القصائد بـالاستعاضـة عن الطرب الزخـرفى بطرب أكثر تعبيرا . وأحاط الجملـة الغنائية فى القصيدة بـإطار مبتكر من المقدمات واللوازم الموسيقية يزيد الجملة الغنـائية بكلامها ولحنها معا ، وضوحا فى الأسماع ، ورهافة فى القلوب ، ويعقد صلة شـديدة القوة بين الصوت واللحن وعزف الآلات الموسيقية . وقد تزايدت مقدرته من مرحلة إلى مرحلة ، وزودته تجاربه بما يمكن

تسميته « سر الصنعة » وهو سر لم يستطع أحد من ملحنى عصرنا كله أن يشارك فيه السنباطى ، وحسبك أن تتذكر ألحانه الفذة لقصائد مثل « سلوا قلبى » و « ريم على القاع » و « وقف الخلق ينظرون » و « سلوا كئوس الطلا » و « رباعيات الخيام » و« الأطلال » .

وبين الثلاثينيات والستينيات تدرجت الألحان السنباطية لأم كلثوم فى القصائد التالية :

ـ كيف مرت على هواك القلوب	سنة ١٩٣٥
ـ اذكرينى كلما الفجر بدا	سنة ١٩٣٩
ـ سلوا كئوس الطلا	سنة ١٩٤٤
ـ سلوا قلبى	سنة ١٩٤٥
ـ ريم على القاع	سنة ١٩٤٦
ـ من أى عهد فى القرى تتدفق (النيل)	سنة ١٩٤٦
ـ أصون كرامتى	سنة ١٩٤٧
ـ ولد الهدى	سنة ١٩٤٩
ـ رباعيات الخيام	سنة ١٩٤٩
ـ وقف الخلق ينظرون جميعا (مصر تتحدث عن نفسها)	سنة ١٩٥١
ـ أغار من نسمة الجنوب	سنة ١٩٥٤
ـ بأبى وروحى الناعمات الغيدا	سنة ١٩٥٤
ـ ذكريات	سنة ١٩٥٦
ـ قصائد رابعة العدوية	سنة ١٩٥٧
ـ أنا لن أعود إليك (قصة الأمس)	سنة ١٩٥٨
ـ ثورة الشك	سنة ١٩٦٢
ـ أراك عصى الدمع	سنة ١٩٦٤
ـ إلى عرفات الله	سنة ١٩٦٥
ـ الأطلال	سنة ١٩٦٦

ـ حديث الروح سنة ١٩٦٧
ـ أقبل الليل سنة ١٩٦٩
ـ من أجل عينيك سنة ١٩٧١

كما لحن رياض السنباطى العديد من القصائد التى قيلت فى مناسبات سياسية عابرة ، وأناشيد وطنية . والتاريخ يشهد لرياض السنباطى أنه ليس بين جميع معاصريه من استطاع أن يلحن مثل هذه القصائد كما وكيفا . وقد اهتم رياض بالمقامات العربية . . فأعطى كل قصيدة ما يناسبها من المقامات الموسيقية التى تعبر عن معانيها فأكسبها ثراء .

وانضم إلى ركب ملحنى القصائد الكلثومية ملحنان جديدان ، هما كمال الطويل ومحمد الموجى . استعانت بهما أم كلثوم فى ألحان قصائد « رابعة العدوية » . وهى تمثيلية غنائية ضخمة ، بطولة سميحة أيوب (تمثيلا) وأم كلثوم (غناء) . وكانت هذه بداية لمرحلة أخرى من الغناء الكلثومى للقصائد الفصيحة . جاءت قصائد «رابعة العدوية » عصرية الطابع . مع أن رابعة عاشت قبل ألف ومائتى سنة . . عقب زكريا أحمد على هذه القصائد بقوله : « إن القصص التاريخية القديمة تحتاج لألحان ذات نكهة تراثية ، مثل الألحان التى وضعتها لفيلم سلاّمة سنة ١٩٤٤ . » وكانت هذه القصائد من أروع ما غنت أم كلثوم .

لم تشأ أم كلثوم أن تسند إلى السنباطى تلحين القصائد فى رابعة العدوية ، فأسندت إلى الطويل والموجى تلحين البعض منها . . وكانت هذه مفاجأة لمتابعى فن أم كلثوم . فإن تجارب الموجى والطويل فى تلحين القصيدة كانت لا تزال فى بدايتها .

لحن الموجى قصيدتى : « انقروا الدفوف » و « حانة الأقدار » . كما لحن الطويل قصيدة « لغيرك ما مددت يدًا (شعر طاهر أبو فاشا) .

يقول كمال النجمى (١٣):

« إن الطابع الأساسى فى غناء أم كلثوم للقصائد فى تلك الفترة كان إطلاق صوتها

على امتداد مقاماته السبعة عشر (فى العشرينيات) ، والتشدد فى دقة الأداء ، تحقيقا لعنصر أساسى من عناصر الغناء العربى المتقن ، وهو « قوة الأسر » . أى شدة الضبط والإحكام فى الأداء . . ومتانة بناء الأداء نبرة فوق نبرة .

وقوة الأسر فى الغناء العربى المتقن كانت منذ بدايته استطرادا للفصاحة فى الشعر العربى . فلا تجتمع الفصاحة الشديدة فى الشعر مع ركاكة الغناء واسترخائه .

وقد حققت أم كلثوم فى تلك الفترة الحافلة بالنشاط ، تدريبا صوتيا بالغ الأهمية . كما حققت نصرا ساحقا على طريقة الغناء الغجرى والعثمانى والسوقى العامى . ومضت بعد ذلك مع ملحنى قصائدها بل أعظم ملحنى القصائد وغير القصائد فى عصرنا كله . وعلى رأسهم رياض السنباطى . »

ودخل عبد الوهاب مضمار القصائد الكلثومية متأخرا . . فلم يلحن لها القصيدة إلا بعد أن لحن لها أربع أغنيات هى :

« إنت عمرى » ـ « إنت الحب » ـ « أمل حياتى » ـ « وفكرونى » .

وأول قصيدة لحنها عبد الوهاب لأم كلثوم من شعر « جورج جرداق » قصيدة «هذه ليلتى » . وفيها ابتعد عبد الوهاب عن أسلوب السنباطى والقصبجى وزكريا فى التلحين . وجاء بأسلوبه الوهابى الخاص . وعبد الوهاب ذو تاريخ طويل فى تلحين القصائد . فقد لحن وغنى مجموعة كبيرة منها فى العشرينيات والخمسينيات .

أدخل عبد الوهاب الإيقاعات والألحان الراقصة فى قصيدته الأولى لأم كلثوم «هذه ليلتى » . ولم يكن المستمع العربى قد اعتاد هذا الأسلوب فى غناء أم كلثوم . فجاءت هذه القصيدة للمرح والرقص والغزل الجرىء . وقد تخفف عبد الوهاب من هذه الإيقاعات الراقصة فى قصيدته الثانية التى لحنها لأم كلثوم عام ١٩٧١ . وهى قصيدة « أغدا ألقاك » (شعر الهادى آدم) . ففى هذه القصيدة عاد عبد الوهاب للسلطنة والطرب . وتعتبر هذه القصيدة من أجمل ما لحن عبد الوهاب لصوت أم كلثوم . ففيها جمع بين التعبير والطرب وبين خفة الظل والرقص والعذوبة . . وأدتها أم كلثوم باقتدار . . وفيها كانت تودع عالم الغناء .

هوجم عبد الوهاب فى أسلوب تلحينه لأغانى أم كلثوم ، بإدخاله الإيقاعات الغربية والآلات الكهربائية « الأورج » و « الجيتار » . كذلك آلة « الأكورديون » .

وعلل عبد الوهاب استخدامه لهذا الأسلوب الجديد بقوله :

« استطعت بهذا اللون الجديد الذى فرضته على صوت وأداء أم كلثوم ، تقريب أغانيها إلى الشباب الذى التف حول المطرب المعبر عبد الحليم حافظ .

ولعبد الوهاب لحنان آخران لقطعتين من الشعر الفصيح . . إحداهما من شعر كامل الشناوى وهى « على باب مصر » ، والثانية من نظم نزار قبانى (أصبح عندى الآن بندقية) .

ومنذ أن بدأت أم كلثوم فى غناء القصائد فى أوائل العشرينيات ، وهى تظهر بحنجرتها المثقفة ولهجتها ونطقها السليم .

كان الناس فى تلك الفترة يستمعون إلى غناء سوقى ، حتى إذا جاءت أغنياتها باللغة العربية الفصحى فإنها تؤدى باللهجة السوقية التى كانت المطربات يتغنين بها الطقاطيق الزجلية الرخيصة المنتشرة فى ذلك الوقت .

فقد جاءت أم كلثوم بمدرسة الشيخ أبو العلا محمد . . وهنا صمت المطربون ، وأنصت المستمعون .

وتعرف أم كلثوم بمطربة القصائد فى عصرنا ـ لأنه لا ينازعها فى هذا المضمار مطرب أو مطربة . . غنت ما يقرب من ثمانين قصيدة . وبين القصائد التى تغنت بها فى العشرينيات وقصائدها فى الستينيات والسبعينيات مشوار طويل وصعب . فخلال هذه الفترة الزمنية تطورت بأدائها للقصيدة ، حتى وصلت بها إلى أزهى صورة عرفها تاريخ الغناء العربى المتقن .

الطقطوقة :

استطاعت الطقطوقة أن تتفوق على ألوان الغناء الأخرى ، فهى أغنية بسيطة فى معانيها شعبية فى ألحانها .

والطقطوقة أغنية ذات مذهب وأربعة أو خمسة أدوار أو أغصان . وعند ظهور

« الفونوغراف » وانتشار الأسطوانات ، انتشرت الطقطوقة التى كانت أكثر ألوان الغناء مناسبة للتسجيل . فهى الأغنية الخفيفة ، القصيرة ، التى لا تزيد على خمس دقائق .

وكانت الطقطوقة تختلف فى عدد أدوارها أو أغصانها تبعًا لحجم الأسطوانة وأسلوب المغنى فى الإلقاء من حيث السرعة والبطء . وبظهور الطقطوقة ، استغنى المطرب عن البطانة أو السنيدة فى أدائه لهذا اللون الجديد من الغناء .

وتعد الطقطوقة بمثابة لحن شعبى يشعر بها رجل الشارع ، ويرددها فى كل مكان لبساطة تركيبها وبعدها عن التعقيد .

ولتعلق الشعب المصرى بهذا اللون من الغناء ، أخذ الملحنون والمطربون يقدمون على أدائه . كما اهتمت شركات الأسطوانات بتسجيل هذا اللون من الغناء الذى جاءت من ورائه مكاسب طائلة . تطورت الطقطوقة على يد الشيخ زكريا أحمد وأصبحت « الأغصان » لا تلحن جميعها من مقام واحد . كما أدخل زكريا جملا موسيقية (لازمات) تمهد لكل غصن .

ومن تطوير زكريا للطقطوقة صياغته للموال الزجلى فى قالب الطقطوقة المتطورة ، مثل « الأولة فى الغرام » ، وهى من تأليف بيرم التونسى .

وكان من نصيب صوت أم كلثوم عدد كبير من هذه الطقاطيق . . فغنت أم كلثوم فى الثلاثينات من ألحان زكريا « اللى حبك يا هناه » ، و « العزول فايق ورايق» ، و«الليل يطوّل ويكيدنى » ، و « بكره السفر » ، و « جمالك ربنا يزيده » وغيرها .

وفى الأربعينيات غنت أم كلثوم : « قل لى ولا تخبيش يا زين » ، و« غنى لى شوى شوى » وغيرهما .

وغنت أم كلثوم من بين هذه الطقاطيق فى حفلاتها الإذاعية : « كل الأحبة اثنين اثنين » ، و « إيه اسمى الحب » ، و « آه من لقاك فى أول يوم » ، و « أنا فى انتظارك » و« أهل الهوى ياليل » و « حبيبى يسعد أوقاته » . . وكانت كل هذه الطقاطيق من نظم بيرم التونسى وألحان زكريا أحمد .

أما محمد القصبجى فاستطاع أن يساهم فى تطوير هذا اللون من الغناء ، بأنه ابتعد

بها عن مفهوم التطريب المتزلف ، إلى أبعاد أخرى أكثر رفعة ووقارا . ومن الأمثلة على ذلك : طقطوقة « ليه تلاوعيني » التى غنتها أم كلثوم فى الثلاثينيات ــ « وتبيعيني ليه كان ذنبي إيه »، و « انت فاكراني والانسياني »، و « محتار يا ناس» . . إلى غير ذلك .

كما اهتم رياض أيضا بالطقطوقة ، فوضع لها معزوفة ترتبط بالمعنى وتثير الانتباه . ومن بين أشهر أعماله الأولى لأم كلثوم « افرح يا قلبى » . وكان رياض لا يخرج فى ألحانه عن القالب الموضوع من أسلافه الملحنين . ثم لحن من لون الطقطوقة لأم كلثوم :

لما انت ناويه تهاجريني ـ ياليلة العيد آنستينا ــ ظلموني الناس ــ وغيرها . وطور رياض تلحينه للطقطوقة حتى أصبح لها أسلوب متطور متقدم ، تتنوع فيها اللازمات الموسيقية بين كل غصن وآخر . كما تتنوع الألحان فى الأغصان المختلفة . وهو فى كل ألحانه ، كان حريصا على التعبير عن معانى الكلمات تعبيرا حقيقيا صادقا .

ولأم كلثوم طقطوقة واحدة قامت بتلحينها فى عام ١٩٢٨ ، وهى من كلمات أحمد رامى ، ومن مقام الراست ، وهى طقطوقة « على عينى الهجر دا منى » مسجلة على أسطوانة جرامفون فى عام ١٩٢٨ . وتقول كلماتها

طقطوقة

على عيني الهجر دا مني

تأليف أحمد رامى ـ تلحين أم كلثوم ـ (مقام راست)

مذهب

على عينى الهجر دا منى ... دا بعادك كان غصبن عنى

غصن

حبيتك ورضيت باللوم ... وجفانى وجفيته النوم
تعا ليلى وشوفى حالى اليوم ... على عينى الهجر دا مِنى

غصن

حبيتك وصفا لك ودى ... وهاديتك باعز ما عندى
أشجانى ودموعى وسهدى ... على عينى الهجر دا مِنى

غصن

في غـرامك يـا مـا شفـت الويـل	سهـران بـك ونـديمـى سهيـل
أتـــألم وتنـــامـــى الليـــل	على عينـــى الهجـــر دا مِنـــى

غصن

اصفـــى لى يصفـــالـــك قلبـــى	وراضينـــى تـرضـــى من حبـــى
حبيتـــك والأمـــر لـــربـــى	وعلى عينـــى الهجـــر دا مِنـــى

غصن

* * *

المونولوج :

الشاعر أحمد رامى هو الذى أضـاف مصطلح « المونولوج » إلى مصطلحات الغناء العربى الجديد . وكلمة « مونولوج » معناها باللغة الإغريقية الأداء الانفرادى .

وخلال ثورة ١٩١٩ ظهـر القالب الغنائى النقـدى الخفيف الذى عرف بـالمونولوج الفكاهى . واشتهر بأدائه يوسف وهبى ـ حسـن فايق ـ فكرى أباظة وغيرهم . وتطور هذا اللـون من الغناء على يـد إسماعيل يس ومحمـود شكوكـو وثريا حلمـى وغيرهم . وانتشر المونـولـوج الخفيـف بـأنـواعـه النقدى والثـورى والـوطنـى . . وكـانـت هـذه المونولوجات تثير حماس الشعب خلال ثورة ١٩١٩ .

ثم جاء المونولوج الغنائى الذى طوّر قالبه اللغوى أو النظمى أحمد رامى بعد عودته من بعثته فى باريس عام ١٩٢٤ . ففى المونولوج استخدم رامى أكثر من بحر وقافية فى القطعة الواحدة ، وبذلك أعطى الملحن الفـرصة لإدخال التنويع واستخدام المقامات والضروب الإيقاعية المتعددة .

استطاع القصبجى أن يجعل من تلحينه للمونولوج قالبا غنائيا عربيا جديدا . ففيه استبدل القصبجـى بالمقدمة الموسيقيـة القصيرة (الدولاب) ، أخرى تفصـح عن روح الأغنية . وقوبلت هـذه المحاولة من الملحنين الزملاء بالهجـوم وعدم الاقتناع . وذلك بخروج القصبجـى عن التقليد المتبـع . ولكن سرعان مـا انتشر هذا اللون الجديـد من

الغناء ، ولقى استحسانا من المستمعين .

كتب أحمد رامى فى عام ١٩٢٧ لأم كلثوم مونولوجا دراميا « إن كنت أسامح وأنسى الأسية » ولحنه محمد القصبجى . ويمتاز هذا المونولوج بالقالب الجديد . ففيه اختفت القفلة المتكررة . . وظهرت مقدمة موسيقية قصيرة مستقلة ، شبيهة بمقدمات الأغانى الأوربية حينذاك . كما أدخل القصبجى من مقام الماهور (الماهورك) ، وهو مقام عربى الأصل ، اتخذ اسما أجنبيا بعد سقوط هولاكو سنة ١٢٥٨ وانطواء صفحة الغناء العربى المتقن . والماهور أو الماهورك باللغة الفارسية معناها « الهلالى » . وكان مونولوج « إن كنت أسامح وأنسى الأسية » حافزا لعبد الوهاب على غناء مونولوج « أهون عليك» .

وتوالت بعد ذلك المونولوجات التى لحنها القصبجى لأم كلثوم . محاولا إضافة الجديد فى هذا اللون من الغناء . . فغنت مونولوج « عينى فيها الدموع » ، و « يا للى جفاك المنام » ، و « يا ما ناديت من أسايا » ، و « فين العيون اللى سابتنى » . ومن مونولوجات الأفلام « يا طير يا عايش أسير » (فيلم وداد) و « فنيت شبابى » و « المجد يا ما اشتهيتك » (فيلم نشيد الأمل) . ثم آخر لحن بصوت أم كلثوم من ألحان القصبجى « رق الحبيب وواعدنى » . (١٩٤٦)

وفى هذه الفترة ، غنى عبد الوهاب « النيل نجاشى » ، و « بلبل حيران » ، و«يا دنيا يا غرامى »، و « أحب عيشة الحرية » ، و « فى الجو غيم » ، و« فى الليل لما خلى»، و « ياللى بتنادى أليفك » ، وغيرها .

ثم جاء السنباطى ولحن مونولوجاته الأولى لأم كلثوم من سنة ١٩٣٥ إلى أوائل الأربعينيات : « النوم يداعب عيون حبيبى » ، و « قضيت حياتى » ، و « يا للى صنعت الجميل » ، و « يا طول عذابى واشتياقى » ، و « يا للى كان يشجيك أنينى » ، وغيرها .

وكان أثر القصبجى واضحا فى مونولوجات السنباطى الأولى . ثم استقل الأخير

بأسلوبه الخاص فى التلحين .

ويرى « كمال النجمى » أن السنباطى لم يتحرر بـالكامل من أسلوب القصبجى ، إنمـا بقى هنـاك شىء يربط السنباطـى بالقصبجى ولو من بعيـد . . . وبعيد جدا. ولحنت أم كلثوم مـونولوجا مـن كلمات أحمد رامى (مقام حجاز كـار) وغنته وسجلته على أسطوانة أوديون عام ١٩٣٦ .

الأغنية الوطنية :

بدأ الشعور الوطنى لدى أم كلثوم منذ صغرها . فعند وفاة الزعيم سعد زغلول عام ١٩٢٧ ، انقطعت عن الغناء مشاركة فى أحـزان الشعب. ولم تعد للغناء إلا يوم ذكرى الأربعين ، فرثته بأغنية نظمها أحمد رامى ولحنها القصبجى :

إن يغـــب عــن مصر سعـــد فهــو بـــالــذكـــرى مقيـــم
ينضـــــب الماء ويبقـــــى بعـــده البيــت الكـــريـــم
خلــــدوه فى الأمـــانـــى واذكــــروه فى الـــــولاء
وانــــدبــــوه فى الأغـــانـــى أعــذب الشكـــوى البكـــاء
أنشـــدوا الشعـــر ثنـــاء فى سجـــايـــاه العـــذاب
أرسلـــوا الـــدمـــع وفـــاء للـــذى لاقـــى العـــذاب

فى سبيـــــل الـــــوطــــن * مـــن صفـــوف المحـــن
بين سجـــــــــن واغتراب فى مشيـــــب وشبـــــاب
مجـــــدوه فى الأغـــانـــى خلـــدوه فى الأمـــانـــى

ولتعيـــش ذكـــرى الـــزعيـــم

وحينها قامت ثورة ١٩٥٢ ، انفعلت أم كلثوم بـالأحداث، وراحت تغنى للشعراء الذين نظموا ، وانفعلوا بهذه المواقف الوطنية . وكان أولهم أحمد رامى الذى غنت له :

مصر التى فى خاطرى وفى فمى أحبها من كل روحى ودمى

كما غنت من الشعر القديم لحافظ ابراهيم :

وقف الخلـق ينظـرون جميعـا كيـف أبنى قواعـد المجـد وحدى

وانتشرت الأغانى الوطنية بصوت أم كلثوم فى الإذاعة والتليفزيون فسمعنا :

يا دعاة الحق هذا يومنا لاح فى آفاقه نـور الرجـا

وقصيدة بين عهدين (أحمد رامى ـ رياض السنباطى) غنتها أم كلثوم عام ١٩٤٩ :

طـالما أغمضـت عينـى وتخيلـت بـلادى

مثلما صـور ظنـى وتمنـاهـا فـؤادى

وغننت أيضا :

أيها السارى إلى فجر المنى غنى للنور الذى قد أشرقا

إلى غير ذلك.. ويمكن حصر أشهر الأغانى الوطنية والقومية التى غنتها أم كلثوم فى الآتى :

يا شباب النيل	أحمد رامى ـ رياض السنباطى	١٩٣٧
مصر التى فى خاطرى	أحمد رامى ـ رياض السنباطى	١٩٥٢
يا مصر إن الحق جاء	أحمد رامى ـ محمد الموجى	١٩٥٤
والله زمان يا سلاحى	صلاح جاهين ـ كمال الطويل	١٩٥٦
راجعين بقوة السلاح	صلاح جاهين ـ رياض السنباطى	١٩٥٦
كشف النقاب عن الوجوه الغابرة	عبد الفتاح مصطفى ـ بليغ حمدى	١٩٥٧
بغداد يا قلعة الأسود	محمود حسن إسماعيل ـ رياض السنباطى	١٩٥٨
منصورة يا ثورة أحرار	عبد الفتاح مصطفى ـ رياض السنباطى	١٩٥٨
مشى المجد فى يومه المرتقب	طاهر أبو فاشا ـ رياض السنباطى	١٩٥٩
ثوار ولآخر مدى ثوار	عبد الفتاح مصطفى ـ رياض السنباطى	١٩٦١

الزعيم والثورة	عبد الفتاح مصطفى ـ رياض السنباطى	١٩٦٣
على باب مصر	كامل الشناوى ـ محمد عبد الوهاب	١٩٦٤
قم واسمعها من أعماقى	صالح جودت ـ رياض السنباطى	١٩٦٧

روى كمال النجمى :

« فى بداية عصر جمال عبد الناصر، كانت أم كلثوم مستبعدة عن ثقة العهد الجديد ورضاه . فقد استطاعت مجموعة صغيرة من العسكريين والمدنيين، أن تدخل فى روع بعض ذوى النفوذ ، أن أم كلثوم كانت من رموز العهد البائد ، وأن من واجب العهد الجديد منعها من الغناء !

ونجح أولئك السذج فى منع إذاعة أغانى أم كلثوم بعض الوقت ، ولكن العقلاء من مستشارى العهد الجديد استطاعوا وقف هذه الحملة البلهاء ، وإعادة أغانى أم كلثوم إلى ميكروفون الإذاعة .

ولم يكن لعبد الوهاب يد فى هذه الحملة من قريب ولا من بعيد ، لأن السذج الذين منعوا إذاعة أغانى أم كلثوم ، يمكن أن يمنعوا أغانيه هو أيضا إذا تراءى لهم ذلك .

وانفرجت هذه المشكلة بعد انطلاق الرصاصات الطائشة على جمال عبد الناصر فى حادث المنشية بالإسكندرية بعد عقده « معاهدة الجلاء » مع الإنجليز عام ١٩٥٤ فقد سارع أصدقاء أم كلثوم ، ينصحونها بانتهاز الفرصة وتسجيل أغنية تعبيرا عن ابتهاجها بنجاة الرئيس . وكانت طقطوقة « يا جمال يا مثال الوطنية » ، من زجل بيرم التونسى وتلحين رياض السنباطى ، هى العصا السحريه التى ألغت ما حاول السذج والجهلاء تلفيقه وتدبيره لخنق صوت أم كلثوم .

بعد هذه الأغنية المطربة ، الخفيفة الظل ، التى تعانق فيها صوت أم كلثوم بألحان السنباطى ، صارت أم كلثوم هى مطربة العهد الجديد . وتحولت هذه الأغنية إلى ما

يشبه « النشيد القـومى » . . وتلقفها ميكروفون الإذاعـة يبثها بلا ملل ولا كلـل ، يوما بعد يوم .

أم كلثوم والسينما :

فى عام ١٩٣٣ ، وبعـد نجـاح فيلم « الـوردة البيضــاء » الذى لعب بطولته محمد عبد الوهاب ، فكرت أم كلثوم أن تنتج فيلما لحسابها ، تقوم ببطولته . ولكنها تراجعت عن الفكرة عندما بلغها أن تكاليف فيلم الوردة البيضاء بلغت اثنى عشر ألف جنيه .

عرض بولس حنا (باشا)، وهو أحـد أغنياء الصعيد ، على أم كلثوم القيام بإنتاج فيلمها الأول ، على أن تكون شريكة له بمجهودهـا الفنى . وافقت أم كلثوم . وقررت أن تكون قصة « وداد » لأحمد رامـى أول أفلامها . ولكنها عادت وفسخت عقـدها مع بولـس حنا (بـاشا). وقـامت شركـة مصر للتمثيل والسينما بـإنتاج فيلـم « وداد » . وتقاضت أم كلثوم عن دورها فى الفيلم خمسـة آلاف جنيه . وكان أجرا خياليا فى ذلك العهد . وقام بـإخراج الفيلم المخرج الألمانى « فـريتز كرامب » ، وكتب السينـاريو له أحمد بدرخان ، وقام بالبطولة أمامها أحمد علام . وكان العرض الأول لفيلم وداد فى ١٠ فبراير عام ١٩٣٦ . وضم الفيلم تسع أغنيات .

وفى هذا العام نفسه ، اشتركت مصر بفيلم « وداد » فى معرض السينما الدولى الذى أقيم بمدينة البندقيه ، على اعتبار أنه أول إنتاج لإستوديو مصر .

غنت أم كلثوم فى فيلم وداد :

« ليه يا زمان » ـ و « يا طيريا عايـش أسير » ـ و « يا للى ودادى صفا لك » ـ و « يا بهجة العيد السعيـد » ، وكلها مـن ألحان محمد القصبجـى وكلمات أحمد رامى ــ كما غنت مـن ألحان زكريا أحمد « يا بشير الأنـس » (أحمد رامى) ـ وقصيـدة « أيها الرائح المجد » (*) ـ و « ياليل نجومك شهـود » (أحمد رامى) . ومن ألحان رياض السنباطى

(*) من نظم الشاعر العباسى المشهور « الشريف الرضى ».

غنى عبده السروجى « على بلد المحبوب ودينى» وغنت المجموعة « حيوا الربيع » - و«البحر زاد يا فرحنا » كلمات أحمد رامى . كما ألف رياض موسيقى بعنوان رقصة «شانجهاى » لتؤدى فى مقهى فى أحد مناظر الفيلم . وعندما سئلت أم كلثوم عن سبب اختيارها لقصة وداد أجابت : « لأن وداد جارية مغنية ، وبذلك يسهل إيجاد مناسبات الغناء . وبذلك لا تحشر الأغانى حشرا . . أو تأتى بتكلف » .

ويقال إن أم كلثوم بكت طربا وفرحا وهى تسمع أغانى فيلم وداد ، وذلك عند رؤيتها للفيلم فى عرضه الأول .

وعند الحديث عن فيلم وداد، لابد من ذكر اسم « طلعت حرب » فخر الاقتصاد وسياسة المال . الذى حداه إخلاصه لوطنه وحبه للفن إلى التفكير فى إنشاء شركة مصر للتمثيل والسينما . وشيد لها أستوديو أراد به أن يكفى بلاده مئونة الاتكال على غيرها من البلاد . وأعد هذا الأستوديو بأرقى المعدات وأحدث وسائل الإخراج . وبعد نجاح فيلم وداد . . وإقبال الجماهير عليه، أعلنت منيرة المهدية مسئولية أم كلثوم عن انهيار المسرح الغنائى . فهى بهذا الفيلم، جذبت جمهور الغناء الذى أدار ظهره لمنيرة وللمسرح، واتجه إلى الفن الجديد . . فن السينما .

واتجهت منيرة أيضا إلى السينما طمعا فى الربح ، وشفاء لغليلها ، فأنتجت فيلما غنائيا هو « الغندورة »، الذى اقتبس من مسرحيتها الغنائية التى كانت تحمل نفس الاسم . . وكانت أكثر مسرحياتها نجاحا . إلا أن منيرة لاحقها الفشل على الشاشة . . فخسرت جزءا كبيرا من ثروتها . . لأنها أنتجت الفيلم لحسابها الخاص . . كما احترق الفيلم وضاع أثره .

وعند الحديث عن فيلم وداد ، لابد من التوقف عند أغنية «على بلد المحبوب» (لحن رياض السنباطى) ، التى قام بغنائها فى الفيلم المطرب عبده السروجى . فقد نجحت هذه الأغنية جماهيريا . وبعد عرض الفيلم بعدة شهور ، ظهرت أسطوانة لهذه الأغنية بصوت أم كلثوم . وفيها استطاعت أم كلثوم أن تضيف لمسات فنها البديع .

وسجلت مبيعات هذه الأسطـوانة رقما خياليا فى كل أرجاء الوطـن العربى . ويقال إن أغنية « على بلد المحبوب » كانت قـد وضعت أصلا لتغنيها أم كلثوم فى فيلم وداد . . لكنها لم تعجبها . فلما سمعتها بصـوت عبده السـروجى ، وبعد نجاحها الشعبى ، ندمـت وعـاودت تسـجيلها على أسـطوانتها التـى اشـتهرت شهرة بـالغة . وفى ذلك يقول السنباطى :

« إن هذه كانت من أندر هفوات أم كلثوم فى تقديـرها للألحـان » .

وفى حـديث آخـر أدلى بـه ريـاض السنباطـى مـن إذاعـة القاهـرة عـام ١٩٧٧ ، قال : عرض على « أحمد سـالم » (*) كلمات أغنيـة « على بلد المحبـوب ودينـى » لأحمد رامى ، وهو يعتذر بـأنها الأغنية الوحيدة التى سألحنها لفيلـم وداد . وبعد أيام أنهيت تلحينها وسلمتها لأحمد سالم ليعود إلى فى اليوم التـالى قائلا : اللحن لم ينل الرضا ، ولم يحظ بقبول من أم كلثوم ، وطلب إلى أن ألحنه ثانية ، فرفضت ، وطلبت منه أن يكلف ملحنا آخـر ليلحنها ، وأعلمته بأنـى سأعطى هـذا اللحن لعبده السروجى . وعنـدما استمع إليه « باروخ » أعجب به ، وسجله بصوت السروجى . وقبل أن ينتهى الفيلـم ، ظهرت الأغنية ونجحت نجاحا شعبيا كبيرا . وزادها نجاحـا على نجاح ظهورها ثانية فى فيلم وداد . . عنـدما أسند إلى عبده السروجـى تمثيل دور ثانوى فى الفيلـم . وبعد نجاح الأغنية وإقبـال الناس عليها ، طلبت أم كلثوم تسجيلها بصـوتها على أسطوانة لحساب شركـة «أوديون » بشرط إرضاء عبده السروجـى أولا . وتم ذلك ، وظهـر لحنى للمرة الثانيـة . . » ولقد تحولت كلمات هذه الأغنيـة ، فى بعض الأقطار العربيـة مثل سوريا ، إلى أغنيـة شعبية وطنية إبان النضال ضد الفـرنسيين ؛ فغنت الجماهير المذهب على الوجه التالى : على بلد المحبوب ودينى ـ لأفدى وطنى بعينى .

ويمكـن اعتبـار فيلـم وداد خطـوة أولى لبـدايـةالعـلاقـات الفنيـة بين أم كلثـوم والسنباطى .

(*) المنتج المنفذ .

ثم تـوالت أفلام أم كلثـوم . . فظهرت فى ستة أفـلام، منذ عام ١٩٣٥ حتـى عام ١٩٤٥ . . من إنتاج شركات السينما الكبرى نظير أجرها الكبير . وثانى أفلام أم كلثوم « نشيـد الأمل » الـذى عرض فى ١١ ينـاير مـن عـام ١٩٣٧ ، وكان مـن إنتاج أفـلام الشرق، والفيلم عن قصة لإدمون تويما وسيناريو وإخراج أحمد بدرخان .

وغنت أم كلثـوم من ألحان محمد القصبجـى « منيت شبـابى النعيم » . و « نـامى نامـى يا مـلاكى » ، و « يـا بهجة العيـد السـعيد » ، و « يـا للى صـنعت الجميـل » ، و«يامجد يا ما اشتهيتك » .

ومن ألحان رياض السنباطى غنت أم كلثوم :

«افرح يا قلبـى » ـ « قضيت حياتى جـرى عليك » ـ و« يا شبـاب النيل » . وجميع أغانى هـذا الفيلم من كلمات أحمد رامى . كان رامـى فى ذلك الوقت يحتكـر أغانى أم كلثوم . . ألـف كلماتها عدا القصيدة الشعرية القـديمة . والمعروف عن رامى أنه كان لا يتقاضى أجره على أغانى أم كلثوم . . عدا أغانى الأفلام التى كان يتقاضى عنها من منتج الفيلم .

واختارت أم كلثوم طقطـوقة « افرح يا قلبى » لتقدمهـا على المسرح ضمن الفقرات الغنـائية لحفلهـا السـاهـر . . كما قدمـت نشيـد الجامعة بقـاعـة الحفـلات بجامعـة القاهـرة . . وفيها استعـانت أم كلثـوم بعدد من طلبـة وطالبـات الجامعة للقيـام بأداء المجموعة (الكـورال) . وقام السنباطى نفسه بتدريبهم . والأغنيتان مـن فيلم نشيد الأمل .

وفى عـام ١٩٣٩ ، عـرض لأم كلثـوم فيلـم « دنـانير » . . الـذى عـرض يـوم ٢٩ سبتمبر . وهو عن قصة لأحمد رامى ، وسيناريو أحمد بدرخان ، وإنتاج أفلام الشرق . وفيه غنت أم كلثوم من ألحان القصبجى :

« الزهر فى الروض » ـ « طاب النسيم العليل » ـ « يا فؤادى غن ألحان الوفاء »

ومن ألحان زكريا أحمد غنت أم كلثوم :

« بكره السفر » ـ « رحلت عنك ساجعات الطيور » ـ « قولى لطيفك ينثنى (*) » .

وغنت أم كلثوم من ألحان رياض السنباطى :

« الشمس مالت للمغيب » (بغداد) ـ و « ياليلة العيد أنستينا » .

والفيلم الرابع لأم كلثوم « عايدة » عرض فى ٢٨ ديسمبر عام ١٩٤٢ ، وهو عن قصة لعبد الوارث عسر ، وسيناريو وإخراج أحمد بدرخان ، وإنتاج أفلام الشرق . وفيه سجلت سبع أغنيات لحنها لها رياض السنباطى ـ و الفصل الأول من أوبرا عايدة قام بتلحينه محمد القصبجى ـ أما الفصل الثانى من الأوبرا فكان من ألحان رياض السنباطى . وقام بالتوزيع الموسيقى الموسيقار « إبراهيم حجاج » ، وقام بغناء المشاهد مع أم كلثوم ، إبراهيم حمودة فى دور راداميس ، وفتحية أحمد فى دور ابنة الملك «امنيريس » ، غناء . أما التمثيل ، فقامت به الممثلة القديرة فردوس حسن .

وفى فيلم عايدة قدمت الأوبرا « الممصرة » لأول مرة . ولم ينجح هذا الجزء الأوبرالى لبعده عن الذوق الفنى العربى . . مما اضطر إلى حذف الفصل الأول من الأوبرا والاكتفاء بتقديم الفصل الثانى فقط .

أما أغانى فيلم عايده التى غنتها أم كلثوم فهى :

« عطف حبيبى وهنانى » ـ « بكره السفر » وهما من ألحان محمد القصبجى . كما غنت لزكريا أحمد : « القطن فتح » ـ « يا فرحة الأحباب » ــ « وموال فضل لى إيه يا زمان» .

وفى عام ١٩٤٤ ، ظهرت أم كلثوم فى فيلم سلاّمه الذى لحن كل أغانيه زكريا أحمد عدا قصيدة واحدة هى « قالوا أحب القس سلاّمة » التى نظمها (على أحمد باكثير) ، صاغ رياض هذه القصيدة بلغة العصر ، مع احتفاظه بالجو الذى كانت سلاّمة تعيش فيه أزمتها العاطفية . وقصة (سلاّمة) لعلى أحمد باكثير . سيناريو وإخراج « توجو مزراحى » . وأغانى فيلم سلاّمة :

(*) شعر الشريف الرضى .

« برضاك يا خالقى » ـ «سلام الله على الحاضريـن » ـ «عينى يا عينى » ـ « فى نور محيـاك» ـ « قـل لى ولا تخبيـش » ـ « غنـى لى شـوى شـوى » ـ وهـى مـن كلمات بيرم التونسى . و« يا بعيد الدار» (عباس بن الأحنف) .

وآخر أفلام أم كلثوم، هـو فيلم فاطمة الذى عرض عـام ١٩٤٦ أمام أنور وجدى وسليمان نجيب ، والذى حقـق أرباحا خياليـة بلغت نصف مليون جنيـه . وهى عن قصة لمصطفى أمين . . سينـاريو وإخراج أحمد بدرخـان ، والفيلم من إنتاج ستـوديو مصر وتـوزيع شركـة مصر للتمثيل . ومـن أغانـى فيلـم فاطمـة ، من ألحان ريـاض السنباطى :

« أصون كرامتـى» ـ « حقابله بكـره » ـ وهما من كلمات أحمد رامى ، و « ظلمـونى الناس » (بيرم التونسى) . وغنت أم كلثوم من ألحان زكريا أحمد :

« جمال الدنيا » (أحمد رامى) ـ « نصرة قوية » ـ « الورد جميل » وهما من تأليف بيرم التونسى .

ومن ألحان محمد القصبجى ، غنت أم كلثوم « نورك يا ست الكل» (بيرم التونسى) و « يا للى انحرمت الحنان » (أحمد رامى) و « يا صباح الخير » (بيرم التونسى) .

ويلاحظ فى الأفلام التى قدمتها أم كلثـوم ، أنه لم يغن مع أم كلثوم فى أفلامها غير مطرب واحد هو إبراهيم حمودة ، وذلك فى فيلـم « عايدة » . أما عبده السروجى فغنى أغنيـة فى فيلـم وداد بعيدا عنهـا . أى أن أفـلام أم كلثـوم كـانـت كلها خـاصـة لها . واعتمـدت أغلب أفـلام أم كلثوم على القصـص التاريخيـة ، فلم تحقـق هذه الأفـلام الإيرادات العالية . . وإنما يمكن القول بأن أقل إيرادات الأفلام الغنائية باستثناء فيلم فاطمة ، كانت أفلام أم كلثوم . وقد استمدت هذه الأفلام قيمتها الفنية بما قدمته فيها من أغانى . فقد أدت أغانيها فى الأفلام باقتدار وتفوق . إلا أن موضوعات الأفلام لم تكن تجذب الجمهور العادى . ونحن اليوم لا نشاهد هذه الأفلام إلا فى النادر ، ونجد أغانيها دخلت التاريخ من أوسع أبوابها .

مشروع فيلم « ثومة » :

عام ١٩٦٨ ، ولدت فكرة إنتاج فيلم « ثومة » الذى يجسد سيرة حياة أم كلثوم .

وكان « ثومة » هو الاسم الذى كانت أمها فاطمة تدللها به . . وتحت عنوان « إلى ثومة » نظم أحمد رامى عددا من قصائده الوجدانية والعاطفية ، بعد لقائه الأول معها ، وتعلقه الشديد بها .

« ثومة » الفتاة الريفية المصرية التى خرجت من ريف مصر لكى تصبح سيدة الغناء العربى .

تبنت المؤسسة العامة للسينما عام ١٩٦٨ مشروع إنتاج هذا الفيلم . وكلفت الكاتب الكبير سعد الدين وهبة بكتابة السيناريو والحوار له . وتعاقدت مع المخرج يوسف شاهين لإخراجه . وفعلا قام يوسف شاهين بتصوير حفل « أم كلثوم » الشهير فى صالة مسرح أوليمبيا بباريس . وصور أيضا جانبا من حفل غنائى لها فى طنطا عاصمة الغربية . . وقد كان واحدا من حفلاتها الأخيرة .

وكان المبلغ المرصود لهذا العمل الفنى الكبير نصف مليون جنيه . وشرع يوسف شاهين فى إعداد الأجزاء التى صورها لأم كلثوم فى حفلاتها الغنائية . . كما عاد إلى أرشيفها السينمائى . . وأعمالها القليلة فى التليفزيون . فالمعروف أن أم كلثوم كانت تكره أن تسلط عليها كاميرات التليفزيون ، وهى تغنى . . وإذا تم التصوير فلابد أن تكون اللقطات بعيدة عنها . . فهى تحرم استخدام عدسة « الزوم » ، وكانت تحدد أماكن تواجد الكاميرات لكى تظهر فى صورة جانبية واحدة ترضى عنها . كل هذا جعل يوسف شاهين يعانى فقر المادة الفيلمية ، التى يمكن أن يستخدمها فى فيلم « ثومة » .

وكانت أم كلثوم موافقة على هذا المشروع . . وكانت تعطى الكثير من وقتها للجلوس مع سعد وهبة . كما عرض عليها يوسف شاهين المرشحات للقيام بدورها على الشاشة فى مرحلة الصبا والشباب ، وكان يأخذهن ويذهب ليلتقى معهن بأم كلثوم . ويقول سعد الدين وهبة :

قضيت أكثر من خمسة شهور أتردد على أم كلثوم فى فيلتها بالزمالك ، وذلك بعد أن قرأت كل ما كتب عنها منذ اللحظة الأولى التى بدأت فيها الغناء فى قرية « طماى » ، فى الصحف المصرية ، وفى الصحف العربية وفى صحافة العالم . وبعد هذا كنت أجلس إليها وأتركها تتكلم عن حياتها كيفما شاءت . كانت تركز على بعض النقاط بإسهاب ، وتوجز فى البعض الآخر . وعندما انتهيت من كتابة ملخص سيرتها الذاتية فى نهاية الجلسات . . قرأته لها . . وكانت شغوفة لمعرفة ما سوف يتعرض له الفيلم من قصة حياتها وجوانبها المتعددة .

ولم يتم إخراج هذا العمل السينمائى الكبير . . ويعلل سعد الدين وهبة سبب توقف العمل فى فيلم « ثومة » بقوله :

« إن المخرج يوسف شاهين هو السبب . . فقد كان مصرا على أن يشترك معى فى كتابة السيناريو » .

ورفض سعد الدين وهبه مطلب يوسف شاهين . وحدث فى الفترة نفسها أن توقف القطاع العام عن الإنتاج ، وآل الإنتاج إلى يوسف شاهين ، لكنه اختلف مع الورثة ، فتوقف المشروع كله .

روى سعد الدين وهبة ، الذى كتب سيرة حياة أم كلثوم لفيلم « ثومة » الذى كان مزمعا إنتاجه فى عام ١٩٦٨ ، أن الفيلم يحكى من خلال قصته الكثير من الأسرار الخافية التى احتفظ بها وحافظ عليها لينفرد بها الفيلم كما سمعها من أم كلثوم نفسها. إن ثمة علاقة كبيرة بين الاقتصادى المصرى الكبير « طلعت حرب » (باشا) « وأم كلثوم » . . خاصة فى العشرينيات والثلاثينيات . وإن طلعت حرب أنشأ بنك مصر ومجموعة شركاته الكبرى ، ومنها شركة مصر للتمثيل والسينما التى أسست ستوديو مصر ، ولعبت دورا خلاقا وبناء فى تاريخ السينما المصرية فيما بعد . طلعت حرب كان ، إلى جانب اشتغاله بالاقتصاد وحمله عبء نهضته ، يهتم كثيرا بالفن ، وهو الذى أعاد المخرج محمد كريم عندما قابله فى ألمانيا ليكون واحدا من رواد السينما

فى مصر. وهو الـذى أنتج أول فيلم مثلتـه أم كلثوم، وهو فيلـم « وداد » ، وأرسله إلى مهـرجـان فينيسيـا السينمائى الـدولى ، لكـى يمثـل مصر عـام ١٩٣٦ فى أول دورة للمهرجان. وهو الـذى أرسل أحمد بـدرخان وصلاح أبـو سيف ونيـازى مصطفى إلى بعثات سينمائية دراسية من ستوديو مصر . وكانت صلته بأم كلثوم فريدة . فقد أرادها كموهبة عظيمة أن تسهم فى نقل أغانيها على أسطوانات . وشجعها على أن تتعاقد مع إحدى شركات الأسطوانات التى تعمل فى السـوق عندئذ ، والتى يلقى إنتاجها رواجا كبيرا لتعـاقدهـا مع مطـربات ومطـربـى الصف الأول . وعملـت أم كلثوم بنصيحـة الاقتصـادى طلعت حـرب . لكـن الشركة أهملـت أغنيـات أم كلثوم ، ووضعتهـا فى الصف الثانى بعد مطربة القطرين فتحية أحمد . وذهبت أم كلثوم تقابل طلعت حرب تستشيره فيما يجب أن تفعل ، خـاصة وأن الشركة كـانت قـد وضعت شرطا جـزائيا فى العقد يلزم أم كلثوم إذا فسخته بدفع ألفـى جنيه ، ولم تكن تملك هذا المبلغ الضخـم . وكان رأى طلعـت حرب أن تفسـخ العقد فـورا ، وأن تدفـع المبلغ ، وإلا بقيـت طيلة حياتها مطـربة فى الصف الثـانى . أكثر مـن هذا أقرضهـا المبلغ من بنـك مصر لتنفيذ نصيحته .

مشروع فيلم سميراميس :

قدم الشاعر والكـاتب الإذاعى طاهر أبو فـاشا (صـاحب أغانى رابعـة العدوية ـ وألف ليلة وليلـة) عملا دراميا غنائيـا ضخما هو « سميراميس » ، كتبه منـذ مستهل الستينيات ـ وكان المقرر أن تقوم كوكب الشرق أم كلثوم بالبطولة فيه .

نشرت مجلة الكواكب ٨ مارس عام ١٩٦٦ فى صفحاتها الأولى :

نجحـت المحاولات التـى بـذلـت مع أم كلثـوم فى السينما ، لتقـوم ببطـولة فيلـم سميراميس . وسميراميـس أسطـورة تـروى أن واحدة مـن الملائكة أحبـت رجلا مـن البشر ، ونـزلت إلى الأرض معـه . وحملـت منه وأنجبـت طفلـة صغيرة ، فاستحقـت غضب الملائكة . واضطـرت لأن تترك ابنتها الوليدة فى غـابة ، ليجدها أحـد الرعاة ،

وقد راحـت تحوم حولها الحمامات البيضاء، فـأخذها إلى كـوخه ورباها، وأطلـق عليها «سميراميس». وكـانت نصف ملاك ، صـوتها فيه حلاوة أصوات الملائكـة ، وأصبح هذا الصوت إلهاما للشعب الذى كان يلاقى الهوان والاستعباد. واستطاع هذا الصوت أن يحرض الشعب على الثـورة والتحـرر من العبوديـة . كانت أم كلثـوم ستقـوم ـ صوتـا ـ فقـط بـدور « سميراميس » . ويـحاول « سعـد الديـن وهبة » الآن أن يقنع الموسيقـار « محمـد عبد الوهـاب » بتلحـين أكبـر عـدد من الأغنيات التى ستغنيهـا « أم كلثوم » فى هذا الفيلم ، والتى كتبها الشاعر « طاهر أبو فاشا » .

إلى هنا تنتهـى سطور الخبر الذى نشرتـه مجلة « الكواكـب » . غير أن المشروع تعثر لأكثر من سبب ، من بينها : العقبة المالية ، فـالعمل تطلب ميزانية ضخمة . . لما فيه من مجاميع كبيرة يتطلبها الفيلم . . والديكور الهائل وأعمال التصوير والجو الأسطورى المصاحب للقصة . . كل هذا يتطلب ميزانية لم تقدرها تكاليف الفيلم المصرى .

ورحلت أم كلثـوم . . وطوى طاهر أبـو فاشا أوراقـه حزينا آسفا ، فهـو لا يتصور وجود صـوت جديد بالقيـام ببطولة هذا الفيلـم الغنائى . . هذا الصوت الـذى يقود شعبا بأسره إلى التمرد والثورة والقضاء على الطاغية .

أغـان مجهـولة :

غنت أم كلثوم مئـات من الأغانى ، لاقـت جميعها نجاحا وانتشـارا لدى الجمهور العربـى . إلا أن هناك أغنيتين فقط لم يقـدر لهما الرواج . . ولم تصلا إلى جمهـورها . . واكتفت أم كلثوم بغنائهمـا مـرة واحـدة فقط . فى الثلاثينيات والأربعينيات اعتمدت أم كلثوم فى أغـانيها على ملحنيها الكبار القصبجـى وزكريا ورياض . . الـذى انضم مؤخـرا إلى قائمة ملحنيها . أرادت أن تغنـى لحنا جديـدا لملحن جديد . واستعـانت بالملحن « فريد غصن » لتلحين أغنية « وقفت أودع حبيبى » كلمات أحمد رامى .

قدمـت أم كلثوم أغنيتها الجديـدة فى حفل مـن حفلاتها الغنائيـة فى عام ١٩٤١ ،

وكانت مقتنعة بـاللحن . . ولكن، فاجأها استقبال الجمهـور لأغنيتها الجديدة بفتور شديـد . . وذلك من بـداية المقطع الأول . . فـاضطرت إلى تكملة غنـاء اللحن كيفما كان . . ولأن اللحن لم « يضرب » مع الجماهير ، لم تعد أم كلثوم إليه ثانية .

وهنـاك لحن آخـر لم يلق قبـولا لـدى مستمعيهـا . . وهـو من ألحان زكـريـا أحمد وكلمات بيرم التونسى . غنته أم كلثوم بعد نجاح لحنها « أنا فى انتظارك » و «الآهات» ، وذلك فى الأربعينيات أيضا . واللحن الذى لم يلق قبولا لدى الجماهير ، هو « اكتب لى اكتب لى . . اكتب لى كثير» .

أيضا لم تحاول أم كلثوم إعادة غناء هذه الأغنية بعد سقوطها الفاحش، وعدم تقبل جمهورها لها .

التقدير و الأوسمة والنياشين التى حصلت عليها أم كلثوم :

كـرمت أم كلثـوم تكـريما لم يكـرم به فنـان مـن قبـل . فعند حصـولها على وسـام الجمهورية الأكبر ، عزف لها السلام الجمهورى من باب الاستثناء . كما منحتها الدولة جواز سفر دبلوماسيا، تقديرا وعـرفانا لفنها . غنت أم كلثوم فى نوفمبر عام ١٩٦٧ فى باريس . وكانت أول فنانة مصريـة تغنى فى باريس . . وعلى مسرح أولمبياد . عقد لها مؤتمر صحفى ضـم كبار العاملين بالصحافـة بالعالم . . كما انتشرت صورهـا بالحجم الطبيعى بالأنـوار النيون فى معظم شوارع بـاريس المهمة . وتبارت الصحـف الفرنسية الكبرى فى وصفهـا ، ووصف حفلهـا الغنائى وإقبـال الجماهير المحتشدة على حفلهـا وخارج المسرح . وكانت أم كلثوم فى غنائها ومقـابلاتها تعلن رفض الهزيمة . وغادرت أم كلثوم فرنسا ، بعـد أن كانت خير سفيرة لمصر والعرب . وأرسلت برقيـة إلى الرئيس السابق ديجول تناشده وقوفه مع السلام جاء فيها :

« قبل أن أغـادر فرنسـا العظيمة . . أحيـى فيك وقـوفك مـع العدالـة وفى جانـب السلام . »

وجاء رد الرئيس ديجول :

« لقد لمست بصوتك أحاسيس قلبى وقلوب الفرنسيين جميعا » .

وفى هذا العام نفسه ، اتجهت أم كلثوم إلى الغناء من أجل مصر ، متبرعة بالدخل لدعم المجهود الحربى . فسافرت إلى العديد من الدول العربية ، وأصبحت سفيرة الفن العربى فى أوربا . تنشر وتدافع عن قضية العرب ، مطالبة بالسلام .

تقول د . نعمات فؤاد(٦) :

« . . وبعد العدوان ، أصبحت أم كلثوم عنوانا ثابتا فى الصحف ، فهى تدعو السيدات إلى التجمع الوطنى . وكانت تجتمع بالصياغ وتجار المجوهرات لحثهم على التبرع بالذهب . وتنتقل لجنة التبرعات بالذهب ببنك القاهرة إلى منزلها لتتسلم مجموعة المصوغات المتبرع بها من سيدات التجمع الذى ترأسه . ومن بينها إسورة كبيرة لها مرصعة بالماس ، وعقد عبارة عن سلسلة ذهبية مجدولة طولها متران ، وساعة ذهبية وعقد آخر مرصع بالماس . »

كما جمعت أم كلثوم مئات الآلاف من العملة الصعبة قدمتها لمصر وللمعركة . وتنافست البلاد العربية فى تكريمها .

غنت أم كلثوم فى عيد استقلال الكويت عام ١٩٦٣ . . كما غنت عام ١٩٦٨ فى الخرطوم . لصالح المجهود الحربى العربى . وفى السودان صلى الناس فى المسرح أثناء غنائها شكرا لله . وزارت بها مدرسة ، فأطلق اسمها عليها .

وفى إبريل من عام ١٩٦٨ ، غنت فى الكويت . . وخرج الناس يرشون فنانتهم بالعطر . . واستقبلها قصر الحاكم . وقدمت الإذاعة اليابانية بمناسبة هذه الزيارة للكويت برنامجا خاصا عنها ، مدته ١٢ دقيقة . وهى المرة الأولى التى تقدم فيها الإذاعة اليابانية (ن . هـ . ك) برنامجا عن فنان عربى .

وفى المغرب قدم لها أهل مدينة فاس شمعة خضراء طولها متر ، مرصعة بالذهب الخالص ، رمزا للمحبة والإعجاب . وكما فعل السودانيون والتونسيون حين سموا مواليدهم الإناث أم كلثوم ، فقد أطلق سكان مدينة فاس نفس الاسم على المواليد

خلال زيارة أم كلثوم لهم .

وفى مراكش ، استقبلت بحشد كبير من الراقصين والراقصات فى رقصاتهم الشعبية المصحوبة بالغناء .

وفى تونس ، أحاطوها فى المسرح ببستان من زهور القرنفل ، وصل عددها ما يقرب من ٢٨٠ ألف زهرة . . كما وزعت مناديل مرسوم عليها صورتها . . وأطلق اسم أم كلثوم على أحد شوارع تونس .

وفى عام ١٩٧٠ ، أحيت أم كلثوم مهرجان بعلبك الدولى بلبنان . وسجل التليفزيون الإنجليزى والفرنسى حفلها الأول كاملا ليعرض فى لندن وباريس .

وفى ديسمبر عام ١٩٧١ ، غنت أم كلثوم فى أبو ظبى ، لتضيف إلى عطائها للمجهود الحربى ٢٤ ألف جنيه إسترلينى .

وقد أهدت مدن عديدة أم كلثوم مفاتيح من الذهب الخالص . كما ألف وزير المعارف الباكستانى كتابا عن سيرة أم كلثوم .

ومن أهم الأوسمة التى حصلت عليها أم كلثوم من الرؤساء والملوك فى العالم العربى والغربى :

- نيشان الكمال فى سبتمبر عام ١٩٤٤ (مصر) .
- وسام النيل .
- نيشان الرافدين من الدرجة الأولى من الملك فيصل عام ١٩٤٦ .
- نيشان الرافدين العراقى .
- وسام الأرز اللبنانى عام ١٩٥٥ .
- وسام النهضة من ملك الأردن عام ١٩٥٥ .
- وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى من الرئيس هاشم الأتاسى عام ١٩٥٥ .
- وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى فى مارس من عام ١٩٦٠ . (*)

(*) نال محمد عبد الوهاب أيضا فى نفس هذا التاريخ هذا الوسام تقديرا لفنه .

ـ وسام الجمهورية الأكبر من تونس فى ٤ يونيه عام ١٩٦٨ (منحت مصر أم كلثوم فى نفس هذا العام جواز سفر دبلوماسيا) .

ـ وسام الكفاءة العسكرى المغربى .

ـ وسام الاستحقاق من لبنان عام ١٩٦٨ .

ـ جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٦٨ (تنازلت أم كلثوم عن قيمتها ٢٥٠٠ جنيه لصالح صندوق معاشات الفنانين) .

ـ وسام « نجمة الامتياز » من باكستان تقديرا لغنائها قصيدة إقبال « حديث الروح » ، وهو أرفع أوسمة الباكستان .

ـ وفى يناير عام ١٩٧٢ ، منحتها مصر لقب « فنانة الشعب » . وقد أهدى اللقب أيضا إلى محمد عبد الوهاب ويوسف وهبى .

ـ وعام ١٩٥٣ ، انتخبت أم كلثوم عضو شرف فى جمعية « مارك توين » الأمريكية الدولية . ومن أعضاء الشرف فى هذه الجمعية « الجنرال أيزنهاور » ومستر « تشرشل » . ومستر « روزفلت » .

الفصل السادس
أم كلثوم فى ذمة التاريخ

الشهور الأخيرة فى حياة أم كلثوم الفنية :

كان آخر ما غنت أم كلثوم بصوتها لحن سيد مكاوى ، وكلمات عبد الوهاب محمد أغنية « أوقاتى بتحلو معاك . . وحياتى بتكمل برضاك » . كانت فى بداية البروفات متفتحة للحياة . . ولكن بعد ساعات من البروفة وقعت أم كلثوم صريعة المرض . . كان مرض النهاية .

قررت أم كلثوم أن تسافر إلى لندن للعلاج . . وكانت ، إلى جانب مرضها ، تفكر فى أغنية جديدة . . أغنية تؤديها بمناسبة نصر أكتوبر .

طلبت أم كلثوم من الشاعر صالح جودت أن يكتب لها أغنية لعيد أكتوبر، وأن ينتهى من كتابتها قبل عودتها من الخارج .

وفى لندن قال الأطباء لها إن الكلى تفرز الأملاح . . وعليها أن تشرب ماء بالملح . . وظلت أم كلثوم بقوة إرادتها تشرب الماء بالملح . . وفور وصولها إلى مصر، اتصلت بصالح جودت الذى قدم لها كلمات الأغنية التى كانت قد طلبتها منه قبل سفرها . وأعطتها أم كلثوم لرياض السنباطى ليلحنها . . فهى مصرة على غنائها فى ٦ أكتوبر .

ولكن المرض لم يمهلها ، فقد رحلت أم كلثوم قبل أن تؤدى أغنيتها هذه .

وتقول كلمات الأغنية :

يا للى شبابك فى جنود الله . . والحرب فى قلوبهم صيام وصلاة . .

ودمهم عند الشهادة زكاة . . زى اللى عزوا الديـن فى غزوة بدر . . طول أعمارهم أحرار أولاد أحرار. . . متسلحين بالعزم والإصرار. . ساعة ما نـاداهم منادى الثأر. . قاموا فى شهر الصـوم . . وعدوا البحر وقـالوا دا احنا نموت وتحيـا مصر . . الله يزيدك منـزلة يامصر » .

وفى صباح ٢٢ يناير عام ١٩٧٥ ، أعلنت الصحف نبأ مرض أم كلثوم ، وأخذت تنشر التقاريـر الطبية . وكانـت الإذاعة تستهـل نشرتها بالنشرة الطبية عـن أم كلثوم . وعرض الناس التبرع بالدم لأم كلثوم . وتوفيـت أم كلثوم فى ٣ فبراير من نفس العام . وقطعت الإذاعات فى مصر وفى باقى بلاد العالم جميع برامجها ، لتذيع النبأ الأليـم ، لقد كانت ملحمة أمة .

الفن التشكيلى يخلد أم كلثوم :

لعب الفن التشكيلى دورا فى تكريم أم كلثوم . فبعـد وفاتها ، قام المثال عبد الحميد حمدى بصنع بـورتريـه لها (تمثال نصفى) ، عبر فيـه عن شخصية أم كلثـوم كإنسـانة وفنانة. وفى الذكرى الثانية لوفـاتها . . كلف محافظ الدقهلية الفنان عبد الحميد حمدى بإقامةتمثال كامل لها يوضـع فى أحدث ميادين المنصورة (ميدان المحطة)، وأطلق على هذا الميدان اسم « أم كلثوم » . وقد استغرقت إقامة هذا التمثال عاما كاملاً . والتمثال طولـه ثلاثـة أمتار ، ويزن مـا يقرب مـن ألف كيلـو باستثناء القـاعدة . مثـل الفنان عبدالحميد حمدى تمثـاله لأم كلثوم وهى تغنـى وتمسك بمنديلها الطـويل . . وتنظر إلى أعلى .

كانت أم كلثوم أنيقة . . . بل مغالية فى الأنـاقة . وربما جاء ذلك نتيجة للحرمان الذى عاشت فيه فى طفولتها . . والملابس التى ارتدتها عندما نزلت لأول مرة إلى القاهرة (زيها الريفى) ، كانت دافعا لرغبتها فى إثبات أناقتها فى المجتمع .

و كانت الصحـف و أجهزة الإعـلام ، حريصة على وصف تفاصيـل ما ترتديـه

أم كلثوم فى حفلاتها . كانت أناقتها بسيطة الخطوط ، ثرية الخامات . . مغالية فى الاحتشام . وكانت أم كلثوم تبدو دائما بوجهها الريفى الطبيعى ، وتحرص على ألا تغير تسريحة شعرها .

و هذا الوجه الريفى الجميل ، نقله الفنان محمود مختار ، الذى قام بنحت تمثال لأم كلثوم من بداية حياتها الفنية حوالى عام ١٩٢٤ ، عندما اهتم مختار بفن أم كلثوم ، فطلب منها أن تجلس فى مرسمه ، لينحت لها تمثالا . . و يقول :

«كانت تحكى لى نوادرها و ذكريات صباها . . و كانت لا تزيد عن ٢٦ سنة » .

و يقول كمال الملاخ :

« . . كانت تسرى بينهما ومضات حب عذرى . وإذا تطلعنا إلى وجه فلاحة نهضة مصر الواقفة الشامخة بجوار الأسد ، وهى من أعمال مختار المميزة، لرأينا بعض ملامح أم كلثوم مع بعض ملامح الفنانة الفرنسية التى عشقها محمود مختار» .

زواج أم كلثوم :

خرجت أكثر من مرة إشاعات بزواج أم كلثوم ، والعرسان الذين أكدت الإشاعات عقد قرانهم منهم :

١ ـ النبيل عمرو إبراهيم

وقصته أن أم كلثوم اشترت منه مائة فدان . . فجاء إليها صحفى يسألها عن سر اجتماعها به فأجابت أم كلثوم : كنا بنكتب العقد يا أخى . .

وفى اليوم التالى نشر خبر عقد زواج أم كلثوم على النبيل عمرو إبراهيم .

٢ ـ الشيخ عبد الرحيم بدوى (صاحب مطبعة الرغائب)

أرادت أم كلثوم السفر إلى فلسطين لإحياء بعض الحفلات بها . واعترضت حكومة فلسطين على التصريح لها بدخول فلسطين ، إلا بصحبة الزوج . فعقد الشيخ

عبدالرحيم بدوى عليها (صوريا) ، لتتمكن من السفر ، ثم طلقها بعد عودتها .

٣ ـ الفنان محمود مختار ، لكثرة ترددها عليه أثناء نحته تمثالا لها .

٤ ـ أحد كبار الدولة المشتغلين بالقانون .

٥ ـ الشاعر أحمد رامى . . وكانت أسرته نفسها معتقدة بزواجهما سرا .

٦ ـ الفنان محمود الشريف

زواج أم كلثوم من محمود الشريف :

روى محمود الشريف : (أخبار اليوم ١٩٤٤)

كنت فى يوم من الأيام على موعد مع الأستاذ محمد فتحى كبير المذيعين آنذاك . . وبينما كنت أخترق مدخل المبنى فى طريقى إلى الدرج كانت سيدة فاضلة تسبقنى . . أخليت لها الطريق لتأخذ طريقها على سلم المبنى . . الهمسات تعلو بين السعاة . . «الست أم كلثوم . . .»

السعاة يحومون حولها مهللين . . مرحبين بسيدة الغناء العربى . . إذن هذه أم كلثوم التى تملأ أسماع الوطن العربى . . هى بدمها ولحمها ترتقى سلم الإذاعة فى تواضع ، حتى بلغت باب الإذاعى الكبير الأستاذ محمد فتحى . . .

محمد فتحى يقف عند الباب لاستقبالها . . هاشا . . مرحبا بها . . تلكأت قليلا حتى تنتهى مراسم الاستقبال على خير ما يرام . . ترددت فى الدخول ، وفكرت فى الزوغان . . رغم موعدى مع الإذاعى الكبير . . لكنه لمحنى من بعيد . . نادى على . . تسمرت فى مكانى ، أسرعت إليه بعد لحظات . . تصافحنا . . بادر بتقديمى لسيدة الغناء العربى . .

كان محمد فتحى مهندس حفلاتها الذى ابتدع أساليب جديدة فى تقديمها . استمر بينهما الحوار . . وانتقل بها إلى الحديث عنى . . أصغت إليه باهتمام وهو

يحدثها عـن حياتـى . . نشأتـى . . . معانـاتى . . مشـوارى الطويـل مع الفـن . . وأدهشها أن تعرف لأول مرة أن أغنية « بتسألينى بحبـك ليه » من ألحانى . فقد كانت حتى ذلك اللقاء المثير ، تعتقد أنها من ألحان الموسيقـار محمد عبد الوهاب . . استمر صديقى محمد فتحى فى الحديث عن شخصى المتواضع . . حتى قال :

ـ قريبـا سوف تستمعين إلى عمل غنائى رائع . . صورة غنـائية باسم « بـالوما » ، سيكون له شأن عظيم . . وفتح جديد فى عالم التوزيع الأوركسترالى . .

سألت : ومن المغنى ؟

ـ رد محمد فتحى :

ـ هو نفس الملحن الجالس أمامك . .رمقتنى بنظرة ذات مغزى . . وقالت ضاحكة.

ـ إذن أنت مطرب أيضا . . .

انحبس صوتى فى حلقى، وأنا أحـاول الرد . . . فخرج وكأنه حشرجات : لا . . دى مجرد محاولة . . تجربة فقط . .

نهضـت أم كلثوم . . وقبـل أن تغادر الغـرقـة قالـت مـوجهة حـديثها إلى الأستـاذ فتحى: طيب يا محمد . .أنا فى انتظار تليفـون ، نتفق فيه على زيارة عندى . . وتبقى فرصة نسمع ملحنك ومطربك الجديد . .

مدت يدها . . مددت يدى للسلام . . وكم كنـت أتمنى أن تكون يدها بلا قفاز، حتى ألمس بكفى أناملها . . أنامل الإنسانـة المعجزة .ولكن اللقاء الذى وعدت به أم كلثوم لم يتم .

وكان لقائى بها للمرة الثانية من لـون آخر . . حدث فى إحدى سهراتنا بشارع عماد الـدين . . كنـا نستعـد لتسجيل إحـدى أغنيـات فيلم « ليلـة العيـد » للممثل أنـور وجدى.

وفى إستوديـو مصر قامـت مشادة بين ضـابط الإيقـاع إبراهيـم عفيفى وبين أنـور وجدى . انتهـت باعتداء الأخير على ضـابط الإيقـاع بالضرب والسب، الأمـر الذى

أثارنى . فأمرت الفرقة بالتوقف وركبنا « الباص » الذى أقلنا إلى الشقة التى كان الموسيقيون يجتمعون فيها ، ويؤدون فيها البروفات . .

كان الموسيقيون يلتفون حولى . . فقد كنت فى ذلك الوقت أسعى إلى تنظيم نقابة الموسيقيين فى مصر . . وكانت أم كلثوم فى ذلك الوقت تسعى حثيثا للتقرب من الموسيقيين ، أملاً فى أن تصبح أول نقيبة لهم . وإثر ما حدث من مشادة بين الفرقة وبين أنور وجدى ، تدخلت أم كلثوم لفض الإشكال . وكانت فى حديثها شديدة التعاطف مع أنور وجدى ، الأمر الذى أثار غيظى ، وحملنى على القول بأعلى صوتى دفاعا عن الموسيقيين وعن كرامة الفن ، لأم كلثوم : إن مطلبنا يتلخص فى الآتى :

ـ يدفع أنور وجدى أجر الموسيقيين الذين انتقلوا للتسجيل فى أستديو مصر ، وكأن التسجيل قد تم فعلا . .

ـ أن تقوم الفرقة نفسها بالتسجيل . . وسوف يحدث مالا تحمد عقباه ، إذا ما حاول أنور وجدى تسجيل اللحن عن طريق فرقة أخرى .

ـ أن يدفع أنور وجدى مبلغ عشرين جنيها لضابط الإيقاع إبراهيم عفيفى ، كرد شرف على إهانته بالإستوديو . .

فزعت أم كلثوم مما قررته . . ووقف كل الموسيقيين صفا واحدا إلى جانب كل ما اقترحته ، مما جعل أم كلثوم تقف بعيدة عن تأييد أى واحد منهم . ولقد أحسست يومها بأننى أقف فى حماس مع قضايا الموسيقيين العادلة ، وأقف بشدة أكثر ضد أية إهانة تلحق بهم . وقد كان للموقف الصلب الذى وقفه الموسيقيون ، أن تراجع أنور وجدى ، ونفذ كل ما طلبناه . . وكان أول انتصار جماعى للموسيقيين قبل أن تضمهم أية نقابة . . .

كان لقائى بأم كلثوم ذلك اليوم لقاء مثيرا حقا . . . دفعها إلى محاولة التعرف على أكثر فأكثر .

ومع تـراكـم مشاكل الموسيقيين . . أحسـوا بأنهم فى حاجة ، لا إلى مكـان يجمعهم لعمـل البروفـات ، ولكنهم فى حـاجـة إلى نقـابـة تسـاندهـم وتحميهـم وتحافـظ على حقـوقهم . ومـع تكتلهم ، صـدر القانـون رقم ١٢٣ لسنـه ١٩٤٤ بإنشـاء أول نقابـة للموسقيين . اجتمعـت الجمعية العمـومية وتم انتخـاب أول مجلس إدارة للنقـابة . . فازت فيها أم كلثـوم بمنصب النقيب ، وانتخبت وكيلا للنقابة . وكان من بين أعضاء المجلس : أحمد الحفناوى ــ إبراهيم حجاج ـ محمد القصبجـى ـ عبده صالح ــ كامل إبراهيم ـ الشيخ زكريا أحمد ـ محمـد بخيب (سكرتيرا للنقابة) . انعقد المجلس لأول مرة وبعد مناقشات صاخبة انتهى الاجتماع ، وانصرف من انصرف وبقى من بقى . .

وفى نهاية الاجتماع جلسـت إلى أريكة بالقـرب من النـافذة . اقتربت أم كلثـوم من النافذة وأطلت منها . . ثم عادت وألقت بحقيبتها إلى جوارى . . جلست إلى جانبى على الأريكة . . مدت يدها إلى حقيبتها . . وأخرجت علبة سجائر « لكى سترايك » . . قدمت لى سيجـارة وأشعلت لها الأخرى . ودار حديثها حـول مصيف رأس البر الذى عادت منه منذ أيام . . .

اقترح عازف الكمان المشهور أحمد الحفناوى أن يعزمنا الليلة على الحاتى ، بشرط أن يقدم لنا « محمد القصبجى » بعضا من تقاسيم على العود . . .

فوجـئ القصبجى بالاقتراح ، وخيـم عليه صمـت كئيب بعد أن وافقـت أم كلثوم ووافق باقى الحاضرين . . وبعد لحظات غيرت أم كلثوم من الاقتراح قليلا :

ـ أنا عندى فكرة أحسن . . إيه رأيكم بـدل سهرتنا فى النقابة . . أعزمكو ونقضى السهرة عندى فى البيت . . مش أحسن ؟

حمل القصبجى عوده على مضض ، ولكنه فوجئ بـأم كلثوم تضحك ملء شدقيها وهى تقول له :

ـ سلامتك يا قصب . . طب خليك أنت ما دام تعبان !!

ولكن القصبجى انتزع نفسه من على مقعده وهو يقول :

ـ أمرى لله آجى أسهر معكم . .

لقد كان للقصبجى مع أم كلثوم قصة حب من طرف واحد ، تحسها أم كلثوم .

المهم أننا هبطنا سلم النقابة . أخذتنى إلى جوارها فى المقعد الخلفى بينما جلس القصبجى حاملا عوده إلى جانب السائق . . وفى سيارة أحمد الحفناوى ، كان محمد عبده صالح إبراهيم عفيفى وآخرون لا أذكرهم .

وفى القاعة الكبرى بمنزل أم كلثوم بدأت السهرة . جاءت مأكولات الحاتى وملحقاتها . . وعزف القصبجى أحلى مقطوعاته . وغنت أم كلثوم ، كما لم تغن من قبل . . وكانت ليلتها شديدة المرح . . شديدة الجاذبية . . تلقى بالنكتة وتغنى وكأنها ابنة ستة عشر ربيعا .

امتدت السهرة حتى مطلع الفجر . . . قمت إلى شرفتها المطلة على النيل أتنسم بعض الهواء البارد . . بعد أن بلغت النشوة بالجميع مداها . . أحسست بيدها تمسح على كتفى . . تلفت إليها . . إلى الرمز الخالد . . إلى ثومة . . أحسست أنها مسحت عنى الأحزان . . اقتربت منى . . فهمست فى أذنى ببضع كلمات . .

ـ أنت تتغذى معايا بكره هنا فى البيت .

ما سر اهتمام أم كلثوم بى ؟ قد يكون لأنى المشاكس الدائم فى مجلس النقابة ، ومعظم أعضاء النقابة من أسرة فرقتها الموسيقية . وهى تريد بكرمها وحسن استقبالها لى ، أن تلوى ذراع هذا المشاكس وتطويه تحت إبطها . . وقد يكون لأنى أحد أصدقاء الموسيقار محمد عبد الوهاب . فى وقت كانت تتصارع فيه القمتان ، فظنت أننى مجرد أحد رجال الموسيقار الكبير . . الذين يروجون لفنه بمناسبة وبدون مناسبة . . فأرادت بذلك أن تستميلنى إلى جانبها . . فتكسر بذلك حدة أحد أنصار عبد الوهاب . إننى كنت فعلاً صديق عبد الوهاب نلتقى ونتناول طعام الغداء معا . . ولكننى كنت أتعامل معه معاملة الند للند . استفدت من أعمال عبد الوهاب العظيمة ولكنى لم أخرج من معطفه . . ولم أتصور فى يوم من الأيام أن أكون نسخة مكررة لأحد . . حتى ولو كان ذلك عبد الوهاب نفسه . لقد كنت معتزا بفنى وبأسلوبى الخاص الذى كان

متميزا . . الأمر الذى كـان يتلقاه الموسيقار الكبير بانبهار شديـد ، ويعلن عن انبهاره هذا فى مناسبات مختلفة . . ولكنها مع مـرور الأيام اكتشفت أننى شىء آخر . . بعيد عـن كل مـا دار بخلـدها ، وأننـى سـأظل رغـم كـل كـرمها وعطفهـا ذلـك النقابـى المشاكـس ، وذلك الملحن الـذى يتعامل بـأسلوبه المتميـز فى التلحين بندية حتـى مع القمم . .

ومع تطور علاقتى بأم كلثـوم ، بدأت شخصيتى الحقيقية تتكشف لها . . أدركت أننى لا أدور فى فلك أحد . . ولا أعيش على بقايا موائد عالم الموسيقى والتلحين . .

جاء فى كتاب أم كلثوم «عصر من الفن» : (٨)

رشحت الإشاعات يوما فى شبه تأكيد شريف صبرى باشا خال الملك فاروق زوجا لأم كلثوم . ولكن الباشا تخلى تحرجا بحكـم العقلية القديمة أو تهيبا ، أو تحت ضغط أسرته المالكة .

وأحست أم كلثوم بجـرح غائر . . إن تقبيل يدهـا والهيام بها حركات لـلاستهلاك المحلى فقط ، مراسم حفلات وشغل صالونات .

وبكل كبرياء المرأة الطبيعية ، ردت اللطمة لأصحاب الحياة العالية بارتضائها فنانا من صميم الشعب ومن صميم عملها . . محمود الشريف .

ونجحت فى تدبيرهـا ، فقد هرع إليها شريـف صبرى هذا يتلظى هيامـا ومعه بهى الدين بركات باشا .

ـ كيـف ؟ ولماذا ؟ وما هذا ؟ إلـخ علامـات التعجب والاستفهام . وأخيرا ذكـرها بنيشان الكمال الذى أنعمت به أسرته عليها . وكان هذا آخر سهم فى الجعبة :

ـ أنسيـت أنك تحملين نيشان الكمال ، وأن زواجـك من أجـل هذا مرهـون بإرادة فاروق ، ومتوقف على رضاه . . السامى ؟

وذات صباح . . .

تعلن الصحف نبأ زواج أم كلثوم من محمود الشريف الفنان الشعبى الذى يقف على أولى درجات السلم فى ذلك الوقت .

وجاء دور الشعب . . كثرت الأسئلة ونشط الفضول . . وحينئذ قال البعض إنها أساءت الاختيار ، وأنها بعد الانتظار الطويل لم تلتق بالرجل المنشود . والرجال من جمهورها الغفير لم يفرحوا . . جلسوا كعجائز الفرح ينهشون « محمود الشريف » أصله وفصله و . . . كل شيء خاضوا فيه عدا فنه وموهبته . . وكأن الرجل ليس له حسنة واحدة !! ولكن هؤلاء ظلموا الرجل وظلموها معه . فمحمود الشريف هو الفنان الذى حصل على وسام الفنون من الدرجة الأولى فى عيد العلم ـ فيما بعد هذا التاريخ وعلى وجه التحديد سنة ١٩٦٠ . وحصل على أكثر من وسام من دول عربية شقيقة . وفاز بالميدالية الذهبية عن لحن السد العالى . وميدالية بورسعيد عن نشيد بناء بورسعيد . . وميدالية التسلح والجلاء فى عيد الجلاء . . وغيرها .

ومن وجهة نظر الفن الصحيح محمود الشريف هو الفنان الذى ساهم فى كل ألوان الفن الموسيقى . . وله ألحانه الكثيرة التى لاقت نجاحًا كبيرا .

وفى مذكراته كتب :

ولدت مرتين . . يوم ولدتنى أمى ويوم أحببتها . سنتان ونصف السنة ، ولم أقل لأحد إنى أحبها ، ما أسعد القلب حينما يسعى إلى قلبه فى غفلة عن عيون الرقباء .

ليس عندى شيء أقوله سوى أن يتركنى الناس وشأنى حتى أتفرغ للعناية والسهر على هذا القلب الكبير . إننى أرجو من الدنيا أن تبتهل إلى العلى القدير ، أن يبارك هذا الحب ويرعاه ويحفظه من شياطين الإنس . . »

هذا الحب القوى كان الناس أقوى منه ، لم تستطع أم كلثوم أن تتحدى الرأى العام الذى ارتفع همسه إلى استنكار مسموع ، فلم تقو وهى العنيدة الصلبة الرأى ، ذات الهيلمان ، على المقاومة . . والمخالفة والمخاطرة .

وانتهت العلاقة . . واستراح المعجبون . وجاءت قصة حبها الثانية .

زواج أم كلثوم من د . حسن الحفناوى :

كان أحد أطبائها . . وكان يسهر عليها . إلى جانب أنه كان واحدا من محبى فنها، مستمعا من أصحاب الصفوف الأولى .

نشرت الأهرام فى ١٧/ ٩/ ١٩٥٤ نبأ عقد قران أم كلثوم بالدكتور حسن سيد الحفناوى الأستاذ المساعد بكلية طب قصر العينى . وهو من مواليد ٨/ ٨/ ١٩١٥ فى مدينة أسيوط . . أى أنه أصغر منها سنا .

واستمر هذا الزواج إلى وفاتها فى فبراير من عام ١٩٧٥ .

قصص وحواديت :

روى المهندس محمد دسوقى (ابن أخت أم كلثوم ، وكان أقرب أفراد الأسرة إلى قلبها) :

« كانت أم كلثوم تجلس إلى جانبى فى السيارة . وكنا فى طريقنا إلى المسرح . كانت مستغرقة فى تلاوة آيات القرآن الكريم ، كأنها تدخل الامتحان للمرة الأولى . سألتها :

ـ لماذا هذا القلق ؟ هل نسيت أنك أم كلثوم ؟ لو غنيت أى شىء ، حتى لو كان « ريان يا فجل » فإن الجمهور ملهوف إليك . التفتت إلى فى حسم وقالت :

ـ بلاش يا محمد . . إوعى تقول كده تانى . . إن الجمهور يقبل منك ما تعطيه لأنك تتفانى معه . إذا خطر ببال أى إنسان أن يثق فى نفسه لدرجة الغرور . . فلا يعطى كل ما عنده بإتقان ، فإن الجمهور لا يرحمه .

وبهذا العمق سجلت أغنياتها . تعرف أنها تغنى فى الحفلات، وتصل إلى القمة ، وما يبقى هو التسجيل ، لذلك تهتم لتتركه ثروة للمصريين و العرب ، تظل تذاع ، ولا يأتى يوم نبحث عن أغنية لأم كلثوم فلا نجدها .

يقول المهندس محمد الدسوقى :

« كان أشد ما تحرص عليه أم كلثوم قبل أن تغنى فى حفلة عامة . . هو إجراء عدة بروفات . . فهى تارة تجتمع بالملحن ، وتارة تجتمع بأفراد فرقتها . ولا يمكن أن تذهب إلى حفلة دون أن تجرى بروفة لها ، ولكنها فى كثير من الأحيان تغنى أغانى غير التى غنتها فى البروفة . فقد كانت تعتبر الأغنيات التى تغنيها من الأسرار التى يجب ألا يعرفها أحد . وكانت تجرى البروفات على عشر أغان لتختار منها ثلاثا . وكانت تحرص على أن تختار الأغنية التى تلائم الجو . فكانت تتمتع بقدرة فائقة على معرفة ذوق جمهور الحفلة بمجرد أن تلقى نظرة سريعة من فتحة الستار . .

وكانت تذهب إلى الحفلات وهى جائعة جدا . . ولا تأكل إلا فى الساعة الرابعة صباحا ، بعد أن تنتهى من الحفلة . . ثم تنام ثلاث أو أربع ساعات ثم تستيقظ لتتناول إفطارها . . وكان العشاء والغداء يتكونان من الفاكهة . »

حينما قررت اعتزال الغناء :

تقول أم كلثوم :

مزقتنى محنة وطنى . . قررت اعتزال الغناء بعد ١٩٦٧ . لم يكن ممكنا أن أفرح ، وأن أضع فى صوتى لحظات فرح تمنح طربا ولا ترضى مزاجا . . كان الحزن طاغيا . . كاد يشلنى . . ويحبس صوتى . ولم ينقذنى إلا بريق أمل فى لحظة يأس قائلة إن مصر لن تنهزم . . إن تاريخها فى النضال تحدى كل النكسات . لقد صمدت فى أيام المحن لتنتفض ، وصنعت انتصاراتها العظيمة .

رأيت فى صوتى رغبة فى الانطلاق . أصبح الغناء مجندا . والطرب وسيلة لهدف عظيم قادم .

تحويل الهزيمة إلى نصر . . الثأر من النكسة . . مشاركة أبناء وطنى فى المخاض العظيم لميلاد الحرب التى تستعيد فيها مصر كرامتها وأرضها وكبرياءها . وتراجعت فى قرارى عن الاعتزال . ولكن عودتى بعد ٦٧ لم تكن للغناء . . بالمعنى الذى عشته

وأديته . فقد عرفت هذا الفن وعرفنى . . كانـت عودتى نوعا من وضع السلاح الذى أملكه فى خدمة بلدى . . ووضعت صوتى . . وكانت رحلاتى حول العالم . . »

بدأت أم كلثوم رحلاتها بعد النكسة إلى باريس ، حيث غنت على مسرح أولمبيا . . وحققت نجاحا كبيرا ، وعادت من رحلتهـا بعائد كبير ، مساهمة من الفن فى الإنفاق على صد معـارك الأعداء . وهكذا أصبحت أم كلثـوم سفيرة تساهم بفنهـا العظيم فى قضايا الوطن والإنسان .

أم كلثوم بريشة الفنان صلاح طاهر : (الكواكب ٧ فبراير ١٩٧٨) :

عاشت أم كلثـوم فى وجدان الرسام الفنـان صلاح طاهر الـذى رسم لها صورتين لم يكتملا حتى وفاتها . . وعن اللوحتين تحدث الفنان فقال :

شرعت فى عمل اللوحة قبل رحيلها بأربعة أعوام على وجه التقريب . وسبب عدم اكتمال الصورة أو أحد أسباب عدم اكتمالها بمعنى أصح ، هو سفرها إلى أمريكا فترة طويلة للعلاج . وبعـد أن عادت، سافرت مرة أخرى إلى بـلاد أخرى فى رحلات فنية ورحلات للاستشفاء . . وسـافرت أنا أيضا لإقامة معـارض فى بلاد أوربية متعددة . من أجـل هذا تعطل العمل فى اللـوحة عدة مـرات . . أضف إلى هذا سببا آخـر، هو أننى حينما كنت أذهب إلى بيتها المطل على نيل الزمـالك ، كان وقت طويل يمر دون أن أشعر به من فرط أنها . . وفى حضرتها، ومن خلال حديثها الممتع ، فقد كان الرسم يستغرق دقائق محدودة فى كل مرة ، بينما يستغرق حديثها وأنسها الساعات الطوال .

أدهشنى فى أم كلثوم الجوانب الثقافية المتعددة . . فقـد كانت على جانب كبير من الثقافة، وأبرزهـا صولاتها وجولاتها فى الأدب والشعر العربى . حتـى أنها كانت تحفظ نصوصا بأكملها من كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى . . . .

. . ومن الـدوافع التـى جعلتنى أرسـم أم كلثوم . . شكلهـا المصرى الذى يشبـه الأميرة « نفرت » ، والموجـود تمثالها فى المتحـف المصرى أيام كـانت فى سـن الشباب .

كذلك المعانى التى كانت تفيض من وجهها ويديها وجسمها وهى تقوم بغناء روائعها من أغنياتها البديعة . ثم حضورها الذى كان يستقر فى النفوس دائما ، والذى ما كان يستطيع أى إنسان أن يتجاهله حتى وهى صامتة . مضافا إلى كل ذلك خفة الروح والذكاء اللذين كانا يشعان منها فى كل لحظة .

رسمت لوحتين لا لوحة واحدة . . وكلتاهما لم تتم بالألوان والخطوط . وفى نيتى أن أعيد الكرة من جديد وأصورها فى لوحة جديدة تجمع كل تلك الصفات التى احتشدت فى خاطرى، وهى حصيلة تلك الجلسات التى لا تنسى، ولا تنسى صاحبتها أبدًا .

أم كلثوم فى عهد الأسرة المالكة :

روت أم كلثوم قصتها مع الملكة نازلى :

طلبت الملكة نازلى من أم كلثوم أن تزف العروس الأميرة فوزية والأمير رضا بهلوى (الشاه السابق لإيران) . وكان من مبادئها ـ أم كلثوم ـ أنها لا تزف أية عروس تحيى فرحها . . كانت تقوم بغناء وصلتها فقط . وكانت كبريات العائلات تلجأ لفرقة بديعة مصابنى ، أو فرقة إحسان وثريا سالم ، أو غيرها للقيام بزفة العروسين .

أرادت الملكة نازلى « الأم » أن تخرج عن هذه التقاليد . فبحثت عن الأقوى والأقيم . . فلم تجد غير صوت أم كلثوم . ووقعت أم كلثوم فى حرج شديد . . بين مبدئها فى الحياة والخضوع للسلطة . . للأسرة الحاكمة ، قررت أم كلثوم أن تقبل هذا الطلب على أن تكون أول وآخر عروس تزفها ، وقد كان ، وضعت أغنية خاصة لهذه المناسبة من كلمات « بيرم التونسى » وكانت مطلعها » « مبروك على سموك وسموه » .

وأعدت أم كلثوم لهذه المناسبة فستانا من الدانتيل الأسود ، وكان ذلك قبل أن يعرض عليها زفة العروسين .

وعلمت الملكة نازلى من « الخياطة ريتا » أن أم كلثوم سترتدى فستانا أسود . . فطلبت الملكة تغيير لون الفستان . . ولم تجد أم كلثوم أمامها إلا أن تغير بطانة الفستان

مـن اللون الأسـود إلى اللـون البمبى . وكـانـت أول مرة يبطـن فستـان بلون آخـر . . وأصبحت موضة أطلقت عليها مدام ريتا « موضة ثومه » .

أم كلثوم فى عهد الثورة :

وفى بداية عصر الثورة . . همس بعض المغرضين للرئيس جمال عبد الناصر بأن يجعل للثورة مطـربة أخـرى غير أم كلثوم . . التـى غنت للملـك « حبيبى يسعـد أوقاتـه » ، ونالـت نيشان الكمال . . وأصبحـت صاحبـة العصمة . . وأنـه يجب أن تعامـل كما يعامل زعماء أحزاب العهد البائد ! !

واقتنع جمال عبد الناصر بهذا الرأى . وطلب أن تنصب المطربة ليلى مراد على عرش الغناء . وفعلا كانت ليلى المطربة الأولى لقطار الثورة ، وغنت فى أول أعياد الثورة .

أسفـت أم كلثوم لتصرف الـرئيس جمال عبـد الناصر، ولكنهـا كانـت تعرف قـدر نفسها . . قالت :

« أنا أم كلثوم . . أمامى اليوم عاصفة . . سـأتركها تمر من فوق رأسى . . ثم أعود شامخة كعادتى . . »

وفعـلا لم يمر على الثـورة غير عام أو ربما أقـل . . حتى استـدعاهـا عبد النـاصر وطلب منها أن تعود . . بسؤاله لها !

أين أنت ؟

ومرت العاصفة . . وعادت أم كلثوم لمكانها الطبيعى . . على قمة الغناء .

عبد الحليم حافظ يبكى :

روى « أحمد الحفناوى » (عازف الكمان الأول بفرقة أم كلثوم) :

حدث فى بـداية الاحتفالات بـأعياد الثورة ، أن كانـت أم كلثوم تغنى بمفـردها فى هـذه الحفلات . . فـاقترح عبـد الحليم حـافـظ أن يشارك مـع بقيـة زملائه الفنـانين

والفنانـات فى هذه الحفـلات، كنوع مـن التعبير عن فـرحهم ومشـاعرهـم تجاه الثورة أيضا. ووافـق الرئيـس عبد النـاصر، ولم يمانع المشير عبـد الحكيم عـامر. وأصبحـت الحفلـة تبدأ بغنـاء أم كلثـوم وتنتهـى بها. وبين الوصلتين الأولى والأخيرة يغنـى عبـد الحليم حافـظ وبقية الفنانين. ولكن هذا الـوضع كان يرهقها صحيـا ومزاجيا، لأنها كانـت تنتظر وقتا طـويلا.. كما أن هذا الانتظـار الطويـل يخرجها من جـو السلطنة والسخونة التى عاشتها فى الوصلة الأولى.. ولا يجعلها تتألق كعادتها فى الوصلة الثانية وهكذا... وعلى ذلك، طلبت أن تغنى الوصلـة الأولى، ثم تُقدَّم فقرتان قصيرتان، ثم تغنى الوصلة الثانية.. ثم يتعاقب بقية الفنانين فى بقية السهرة فأجيب طلبها.

وحدث أن كان عبـد الحليم آخر من يغنـى.. فغضب لذلك، وأعلـن فى الحفلة وعلى الملأ أمام الميكروفون، بأن هناك شيئا غير عادى فى تنظيم فقرات الحفل.. وهذا ليس سليما.

وكان إعلانـه رأيه هذا والكل يسمعه سببـا فى غضب أم كلثوم الشديد منـه عندما سمعت بذلك.. فقاطعته لأنها اعتبرت أن هـذه الكلمات إهانة مباشرة وموجهة لها. ولكن عبد الحليم طبعا لا يقصد ذلك إطلاقا، وإنما كان يعنى مراعاة ظروفه الصحية. كما أنه كان من رأيه أن أم كلثوم تمتع الناس ببـداية الحفل، وتمتع الناس أيضا بختامها للحفل، سواء تمتع الجمهور ببقية الفقرات التى تتخلل الوصلتين أم لا.

ومرت الأيام والشهور على هذه الواقعة. وفى إحـدى هذه الحفلات قابلنى وسألنى عن أم كلثـوم لأنه يـريد أن يسلـم عليها، فـذهبت معـه إلى حجرتها الخاصـة ليسلم عليها، فتجاهلت دخـوله الحجرة، وقد كان الغضب منـه ما زال بداخلها ولا أدرى ـ فقالت غاضبة منى: إيه يا أستاذ فيه إيه؟

فقلت لها: إن عبد الحليـم حافظ جاء ليسلـم عليك.. فردت قائلـه بانفعال: أنا.. لا أريد أن أسلم على عيال..

فخرج عبد الحليم متأثرا أشد التأثر من إهانتها وقسوتها.. وبكى..

لقد كانت فى خصوماتها قاسيه جدًّا .

أمنية القرآن :

روى مصطفى أمين :

« فى يوم من الأيام طلبتنى أم كلثوم ، وبمجرد لقائنا ، قالت لى إن لها أمنية تحلم بها وهى أن تسجل القرآن بصوتها . . وأن تسجل كل القرآن فى أسطوانات . وأنها لا ترغب فى أن تستفيد من هذه العملية . . وقد قدر لها الخبراء فى ذلك الوقت أن تربح مليون جنيه كل عام . وسألتنى رأيى فى الجهة التى سوف تخصص لها المليون جنيه سنويا . فاقترحت أن يخصص المليون جنيه لطلبة الجامعة ومساعدتهم . وتوجهنا إلى الأستاذ نجيب الهلالى ، وكان محاميا فى ذلك الوقت ، وطلبنا منه أن يكتب لنا تنازلا من أم كلثوم عن هذا المبلغ لصالح الطلاب . وعندما اتصلت أم كلثوم بشيخ الجامع الأزهر آنذاك للحصول على موافقته ، رفض شيخ الأزهر أن يوافق على أن تقرأ أم كلثوم بصوتها جميع سور القرآن . حدث ذلك ، بالرغم من أن أم كلثوم قرأت بعض آيات من القرآن فى فيلم « سلامة » ، ونالت استحسان العالم الإسلامى كله . »

من هواة الكرة :

ويقول مصطفى أمين :

« ربما الناس لا يعرفون أن أم كلثوم كانت من هواة الكرة . وأنها فى وقت من الأوقات كانت تحضر كل مباريات كرة القدم فى النادى الأهلى . وأنها وقفت حكما فى بعض مباريات كرة القدم . وأنها فى رأس البر كانت تلعب معنا . . وكانت تقف (حارسة مرمى) . وكان الذين يلعبون معها كرة القدم الأستاذ التابعى وكامل الشناوى ومأمون الشناوى وأحمد ألفى عطية .

فضل أم كلثوم على أخبار اليوم:

كتب مصطفى أمين فى مجلة آخر ساعة (١٢ فبراير سنة ١٩٧٥) يقول :

« . . كانت أم كلثوم أول من شجعنا على إصدار أخبار اليوم . . وأول من وقفت معنا . . كانت أمنية حياتها قيام جريدة مصرية كبيرة . . . وحدث أن خاضت أخبار اليوم معركة طاحنة مع إحدى الحكومات . . صحفها تصادر كل يوم . . . المظاهرات تضربها بالطوب . . مجهولون يلقون عليها القنابل والديناميت . . محرروها يوضعون فى السجون والمعتقلات . . وأصدرت الدولة أمرا إلى الشركات والمحال التجارية بعدم نشر إعلانات فى أخبار اليوم . وخضعت بعض الشركات للضغط . . وخافت أن تغضب الدولة ، فامتنعت عن نشر الإعلانات . ووقعت أخبار اليوم فى ضائقة مالية . وبعنا البيت الذى نملكه فى الروضة . . ولكنه لم يكف لسداد المطلوب . . وبعنا أسهم أبى فى شركة بيع المصنوعات المصرية ، ولكن ابتلعتها الجريدة الجائعة . وذهبنا إلى البنوك نقترض منها . ولكن صدرت الأوامر للبنوك بالامتناع عن إقراض أخبار اليوم . وكنا قد استنفدنا كل ما نستطيع أن نقرضه من البنك العربى . ونذكر هنا أن صاحبه الفلسطينى عبد الحميد شومان فتح حسابا لأخبار اليوم على بياض بثلاثين ألف جنيه . . ولكن الثلاثين ألف جنيه انتهت أيضا . وامتدت أيد كثيرة لتخنقنا . وكنا نخفى هذه الحقيقة على كل من يعمل معنا . كنا نضحك وقلوبنا تبكى . . كنا نكتب ولا نعرف هل سنجد ثمن الورق الذى ستصدر به الجريدة فى اليوم التالى ؟ . . وذات يوم دق جرس التليفون فى مكتبى ، وإذا بها أم كلثوم ، وقالت إنها تريد أن تقابلنى أنا وعلى أمين فورا فى بيتها . فذهبنا إليها ، فقالت إنها علمت أننا فى أزمة خانقة ، وأن أخبار اليوم مهددة بالإفلاس . . وأنها على استعداد لأن تضع كل مليم تملكه تحت تصرف أخبار اليوم . . وبهتنا !! وسألناها من أين عرفت هذا السر ؟؟ فقالت إنها ترفض أن تقول من أين علمت السر ، وأحضرت لنا مبلغ عشرين ألف جنيه . . وقالت إنها مستعدة لأن تبيع مصوغاتها وأسهمها وبيتها وتقدم لنا لغاية مائة ألف جنيه . قلنا لها : أنت مجنونة !! إن هذا المبلغ قد يضيع !

قالت : إن الذى يهمنى هو ألا تموت جريدة مصرية . فقلنا لها : إننا نشك فى أننا

نستطيع أن نسدد لك هـذا المبلغ قبل سنوات . . قالت : لا أريـد أن تسددوه إلا بعد أن تسددوا آخـر دين عليكم لـلآخرين . واكتفينـا بمبلغ ١٨ ألف جنيـه . وأردنا أن نكتـب إيصالا بـاستلامنـا المبلغ . . ورفضـت أم كلثوم أن نكتـب هذا الإيصـال . . وجلسنا وكتبنا الإيصال ، فمـزقته ورمته فى وجوهنا . وكنا قد سمعنـا قبل ذلك ألوف القصص والأكاذيـب عن بخل أم كلثوم . ولكـن أم كلثوم فعلت فى ذلك اليـوم ما لم تفعله البنـوك . وفعل هذا المبلـغ فعل السحر فى أخبـار اليوم . واستطعنا بعـد بضعة شهور أن نسدد هـذا المبلغ كله إلى أم كلثوم . ولكنها اشترطت علينـا شرطا واحدا . . وهو أن نخفى هـذا الأمر عن كل إنسان . وأخفينـا الأمر عن الجميع سنـوات طويلة . وفى شهـر نوفمبر سنـة ١٩٦٠ ، أحسسـت أننـى لن أبقـى طـويـلا فى أخبار اليـوم . وأحسست أن واجبى أن أذكر أسماء الـذين وقفوا بجوارنا فى أزماتنـا . . وكتبت القصة فى عـــدد أخبـار اليـــوم الصـادر فى ١٢ نـــوفمبر سنـــة ١٩٦٠ . وغضبـت أم كلثـــوم وخاصمتنى . فقلت لها : إننـى فعلت ذلك لأننى شعرت أن أيامـى معدودة فى أخبار اليوم . وبعد أسـابيع قليلة صدقت نبوءتـى ، وصدر قرار بإخراجـى أنا وعلى أمين من أخبار اليوم . . وبأن نلزم بيوتنا . واتصلت بى أم كلثوم وصالحتنى . وقلت لها إننى لا أعرف سر غضبها الشديـد للنشر . قالت ضاحكة : خشيت أن تطلـب منى جريدة الأهرام سلفة هى الأخرى !

ثم قالت إنها تضايقت لأننى قضيت على شهرتها التى كونتها على مر السنين كامرأة بخيلة . وأنها استفـادت من هـذه الشهرة فائدة عظيمـة لأنها أبعدت عنهـا النصاب والمحتالين !!

عندما جلست أسمهان عند قدمى أم كلثوم :

جاء هـذا العنوان فى مقـال كتبه للكـواكب فـؤاد الأطرش شقيـق أسمهان (عـام ١٩٦٦) ، وفيه قال :

« كنا قـادمين ، فريـد وأنا ، مـن جبل الـدروز فى رحلة الفـرار من ثـورة الجبل على

الفرنسيين ، وقد رأينا صورة أم كلثوم تتصدر ملهى البوسفور حوالى عام ١٩٢٣ ، وكانت تضع على رأسها عقالاً مما يضعه الرجال عندنا . وقد استوقفنا المشهد . . فلما سألنا عنها ، اتهمتنا أمنا بالجهل لأننا لا نعرف فنانة مصر الصاعدة . ومنذ ذلك الحين بدأنا نستمع إلى أغانى أم كلثوم .

وقد كان اللون الذى قدمته أم كلثوم فى الأغنية المصرية صاروخا حملها إلى سماء الطرب . . وما لبثت أن أصبحت أكبر الفنانين جميعا واحتلت كل العروش بغير توقف . . وأم كلثوم فى سعيها للتجديد سبقت كل جديد .

وأذكر أن أسمهان لما تزوجت وذهبت إلى جبل الدروز لتعيش مع زوجها الأمير حسن الأطرش ، أرسلت بعد ثلاثة أعوام تريد أن تزور مصر بشرط أن ترى أم كلثوم . كانت أسمهان شغوفة بأم كلثوم عاشقة لصوتها . وما من مرة سمعتها تغنى وجمعهما مكان واحد ، إلا واختارت أسمهان أن تجلس عند قدمى أم كلثوم ، حتى ينساب صوت الست أول ما ينساب إلى أذنيها . ذهبت لأم كلثوم بالخطاب فقالت لى :

ـ خليها تيجى . . . والله وحشتنا .

وجاءت أم كلثوم وكنا جيرانها فى بيت الزمالك ، وأمضت معنا ليلة من ليالى العمر التى قل أن يجود الزمان بمثلها . . كنا ـ أسمهان وزوجها وفريد والقصبجى وعمر شوقى وعبده صالح وأنا ـ وغنت أم كلثوم سلوا كئوس الطلا هل لا مست فاها » فزحفت أسمهان إلى قدميها وجلست وهى تردد الآهة الإعجابية فنقولها معا كأننا كورس . . . فما إن وصلت أم كلثوم إلى البيت الذى تغنى فيه :

حمامة الأيك من بالشجو طارحها ومن وراء الدجى بالشوق ناجاها

حتى استبد بنا الطرب ، فاستعدناها لا أقل من خمسين مرة .

صاح القصبجى :

ـ حرام عليك يا ست الكل . . أنت ذبحت تحت قدميك كل الحمام اللى فى الحجرة !

وكان يقصد أسمهان لأنها استسلمت للبكاء من فرط التأثر !!

من أقوال أم كلثوم المأثورة

● الفنان الأصيل هو الذى يكرس نفسه لخدمة هذه الأصالة .

● إذا أحس الإنسان أنه قمـة وأنه نال وحقق كل ما يـريد ، فهذا يعنى الموت . . يعنى النهاية .

● يجب أن نكون شرقيين . . وموسيقانا شرقية . . حتى نثبت للعالم كله شخصيتنا .

● لا سر فى احتفاظى بصوتى ، إنه هبة من الله ـ والله وحده هو الذى يحفظه .

● الأمل هو أول مصادر الحياة . . والتحرك فى رأيى هو الحياة .

● إننا قـد نعجب بالموسيقى الأفـرنجية ، ولكننا لا نطرب لها . وإن الجمهـور قد يعجب مثلا بأنغام الفالس المحشورة فى القطعـة . ولكن عندما يصل اللحن إلى جزئه العـربى ، يتغير حـاله ويغلبـه التأثـر . وهـذا هو الفـرق بين شعورنـا أمام الموسيقـى الأفرنجية والموسيقى العربية . . الفرق بين الإعجاب والطرب .

● الفن وحده هو الذى يفرض نفسه .

● إن الفنان يجب أن يشعر بأهميتـه ، فإذا شعر بذلك كان جـادا ، وكان حريصا على أن يكون عند حسن ظن الناس . وهذا يرهقه ويعذبه ، ولكن هذا هو أحلى ما فى الفن : إن يلتقى فيه العذاب والعذوبة .

عن طه حسين قالت أم كلثوم :

« المفضل عندى هو طه حسين . فكتاباتـه فيها رقة الشعر وموسيقاه . وكلما قرأت كتابه « الأيـام » أحسست أننى أمام شاعـر حساس موهوب . كلماته غنيـة بالأنغام ،

غنية بالأصالة الشعرية .

وكتاب الأيام هو فى حقيقته مجموعة من القصائد الجميلة البديعة . طه حسين هو الكاتب الشاعر » .

● عن محمد عبد الوهاب قالت (*)

« هو مطرب الشرق الأول بلا منازع . . له من حرارة صوته والعاطفة المرهفة ما يوفر النجاح الكبير. فهو موسيقى ماهر خصوصا فى الاقتباس عن الموسيقى الغربية . وهو يعتز بهذه المهارة فى الاقتباس ، حتى أنه ينسب أحيانا إلى نفسه لحنا مقتبسا على أنه مؤلفه الأول والأخير أيضا » .

قالت أم كلثوم عن المطربين والمطربات والملحنين :

● محمد عبد الوهاب :

إنه قمة فى كل شىء

● رياض السنباطى :

هو الوحيد الذى يستطيع أن يتذوق الشعر ، ويستطيع أن يلحنه . ولا أظن أحدا قد أوتى هذه الموهبة .

● محمد الموجى :

له ملامح خاصة وله مزايا نعرفها بسهولة ، وهو شرقى مصرى ، وفنه نابع منه ، وجمله الموسيقية نابعة منه .

● كمال الطويل :

موهوب ، وعباراته جديدة وشابة ، ولكن ليس عنده صبر .

● عبد الحليم حافظ :

صوته جميل جدًّا ، وهو قادر أن يطربك ويشجيك ، ولا أعتقد أن عندنا صوتا فى جمال صوت عبد الحليم .

(*) آخر ساعة ١٩٤٣ .

● **محمد عبد المطلب :**

ابن بلد وجدع ، وفيه نبرة مصرية شعبية ، والجدعنة التى فى صوته تجعلك تضحك أو تفرح به ، لأنه جدع فى زمن اختفت فيه الجدعنة . . ثم إن أولاد البلد أصبحوا يخجلون من أنهم أولاد بلد .

● **محمد رشدى :**

أيضا ابن بلد ، وصوته فيه نبرة حلوة ، ولكن أخشى عليه أن يتفرنج .

● **محمد العزبى :**

صوته شرقى وحلو ومريح للأذن . .

● **محمد قنديل :**

هذا الصوت القوى الجميل . . لا أعرف بالضبط هل قنديل ساذج ، أو غير ساذج أو هو لا يعرف أنه يملك حنجرة ممتازة ؟

● **فايزة أحمد :**

صوتها جميل جدا وقدرتها الغنائية هائلة .

● **شادية :**

صاحبة صوت ظريف حلو ، وهو شبيه بالوشوشة ، وربما هذا هو السر فى شعور الناس بالراحة عند سماع أغانيها .

* * * *

قالوا عن أم كلثوم :

● **قال الحبيب بورقيبة (رئيس جمهورية تونس السابق)**

« عرفتها وأكبرت فيها مع المقدرة الفنية سعة الشخصية ، وقوة الخاطر ، وجملة من الخصال جعلت منها سيدة بارزة فى مقدمة سيدات العالم العربى المرموقات . »

● **قال يوسف السباعى :**

« إنها فنانة الشعب التى أعطت فأجزلت العطاء ، وقدمت فبذلت بسخاء ، ومن خلال صوتها أذابت روحها ، ووهبتها لخير وطنها . عاشت عدة أعمار فنية ، كانت فيها همزة الوصل بين أجيال وأجيال . إنها نسيج نادر لا يجود به الدهر إلا بعد أجيال وأجيال . وسيبقى فن أم كلثوم تراثا خالدا تتغنى به الدنيا وسيظل مشعلا هاديا يضىء طريق الفن العربى . »

● **قال مصطفى أمين .**

« رغم أن أم كلثوم كانت أشهر امرأة فى العالم ، إلا أنها كانت زاهدة فى الشهرة . وكانت إلى سنوات قريبة تخاف من الصحفيين . ولم تهاجم فنانة فى مصر كما هوجمت أم كلثوم . نشرت عنها القصص والأكاذيب . . ألفت عنها الأكاذيب . . أطلقت الإشاعات ، ولكن كل الطوب والأحجار التى ألقيت عليها لم تهدم الهرم ، بل زادته ضخامة . »

وقال أيضا :

« أم كلثوم عدة شخصيات فى امرأة واحدة . فهى مثلا على المسرح تظهر طويلة بالنسبة للناس ، مع أنها فى حقيقة الأمر قصيرة . . وللناس تبدو بخيلة وهى كريمة ، ولأهل السنبلاوين تبدو فلاحة ، وهى « سيدة صالون » من الطراز الأول . ولأساتذة الجامعة سيدة لها فكر راق ، وبالتحديد هى لم تدخل مدرسة . ومع ذلك فهى أكبر النساء المثقفات فى مصر . . »

● **قال محمد عبد الوهاب :**

« الألحان الكلثومية وجدت للحنجرة الكلثومية . إن لون أم كلثوم يعتمد على القفلات (قفلات الطرب) . وأم كلثوم أقدر الجميع على أداء القفلة التى تعتبر أصعب امتحان للصوت ، والتى تحتاج إلى شجاعة وإحساس عميق ، وصوت سليم مدرب وقوى . وهذه المزايا من الصعب أن تجتمع فى حنجرة واحدة بعد أم كلثوم .

ويقول محمد عبد الوهاب أيضا :

« . . إن أم كلثوم فيها ملامح عصر فى طريقة الغناء والسلوك الشخصية والخلق . قدمت فنا بلا ابتذال ، وسمت بأخلاق المهنة . »

ومن كلماته أيضا عنها فى ذكرى وفاتها التاسعة فى حديث له بإذاعة القاهرة :

« إن فيها عشر مغنيات معا . . فكل ميزة تجعل منها مطربة كبيرة . من أهم ميزاتها التعبير بالجسم واليدين بالإيماء بالوجه بالعبوس بالضحك . . كانت ممثلة . ولا أعنى أنها كانت تفتعل ، بل كانت تحس . . وهذه سمة الفنان العظيم . . تحس الغضب أو الفرح أو العتاب فتؤديه . . كانت مجموعة عجيبة من عطايا الله السخية . أما الصفة العظيمة فيها ، فهى أنها ظلت هاوية حتى آخر رمق فيها . كانت مستمعة من الطراز الأول ، فتبكى حين تتأثر بأغنية تعجبها . ولو لم تكن مستمعة عظيمة لما كان فى مقدورها أن تكون مطربة عظيمة » .

● **ومن أقوال عبد الوهاب أيضا :**

« أم كلثوم المغنية الوحيدة التى جمعت بين القوة والعاطفة والحساسية فى صوتها . وإنها الصوت الوحيد الذى تمرد على ذل الميكرفون » .

● **قال توفيق الحكيم :**

« أم كلثوم تؤدى كل قصيدة ، وكل أغنية ، وكل لحن : الأداء الكامل . إنها صفة الفنان الأصيل . »

● قال د. طه حسين :

إن أم كلثوم بصوتها النادر فى امتيازه سواء فى الجمال . . أو فى سلامة نطق اللغة العربية ـ ساهمت عندما غنت القصيدة : فى إثبات جمال اللغة وطواعية موسيقاها ، حتى فى أصعب الكلمات لموسيقى الغناء . وكان لصوتها فضل فى انتشار الشعر العربى على ألسنة العامة والخاصة . »

● قال عباس محمود العقاد :

« أيها الكوكب الذى أسعد الأرض باللقاء أنت كالشمس لا تعدد فى هذه السماء

وقال أيضا :

أم كلثوم هى المطربة الموهوبة التى أثبتت ، أن الغناء فن رءوس وقلوب . . وليس فن حناجر وأفواه فحسب . »

● قال أحمد رجب :

« قال محمد عبد الوهاب لى مرة أن أم كلثوم « تكلثم » اللحن فتزيده جمالا على جمال ! !

« وتكلثم » تعبير ابتدعه عبد الوهاب ليعبر به عما يضفيه فن أم كلثوم على اللحن وأداء اللحن ! ولكن أم كلثوم لا تكلثم اللحن فقط ! إنها أيضا تكلثم كلمات الأغنية قبل أن تغنيها ، ثم « تكلثم » معانى هذه الكلمات خلال الأداء .

إن دور أم كلثوم فى الأغنية لا يقتصر على مجرد تلقى الكلمات من المؤلف واللحن من الملحن ثم أداء الأغنية وانتهينا . . برغم أن هذا الأداء الساحر فى حد ذاته معجزة تكفى ! أبدا ! إن دور أم كلثوم فى الأغنية يشمل خلق الكلمة والمعنى ، وأحيانا فكرة الأغنية كلها» .

● قال الدكتور مصطفى محمود :

أم كلثوم لها صفة غير أنها تغنى . . وتفلسف الحب . . وتمثل أعظم دار للنشر . .

أم كلثوم فى الوطن العربى أقوى من ألـف خط طيران يربط الأرض العربية . أقوى من أى خط تليفون ! أقوى من ألف خط سكة حـديد تمتد من بغداد والكويت وقطر شرقا ، إلى الدار البيضاء فى أقصى الغـرب . ومن القامشلى وحلب فى أقصى الشمال ، إلى عدن والخرطوم فى الجنـوب . فإنك تستطيع أن تسمع فى يوم الخميـس من أول كل شهر صـوت أم كلثوم وهو ينسـاب من نـوافذ البيوت فى الموصـل أو عمان ، وفى نفس الوقـت يملأ صوتها ليـل بنغازى ، وبيروت وتـونس ، وفى ذات اللحظة يشـد صوتها الناس حول أجهزة الراديو فى جدة وصنعاء والخرطـوم وكل مكان فيه عرب . فلو أنك خرجت بسيارة ليلة حفلة أم كلثوم لتتجول فى الـوطن العربى ، فإنك تستطيع أن تحدد معـالم هذا الـوطن وحـدوده ! كل أرض لا يتردد فيهـا صوت أم كلثـوم ليلة حفلتهـا ـ معناهـا أنك خـرجت بسيارتـك عن حـدود الوطن العـربى . أم كلثـوم أجمل وأوضح خريطة مسموعة تبين الحدود المترامية للوطـن العربى . إنها أقوى الأدلة على أن الوطن العربى يعيش فوق أرضه شعب واحد ، له عقل واحد ، قلب واحد ، وجدان واحد ، وذوق واحد .

● ومن أقوال الدكتور مصطفى محمود أيضا :

« أم كلثوم فى الغناء مثل طه حسين فى الأدب . تمثـل العربية الفصحى فى الأداء ، والإعراب السليم للحروف الغنائية ، والجزالة فى الصوت والنغم .

صوتها يشبه فى نقائه وشرقيته سلالة الخيول العربية الأصيلة ، وهى تخطر فى اختيال مثل الخيـول فى رقصها فى أبهة وجـلال . . وفخامة ، وهـو يذكرنـى بمائدة حافلـة من موائد رمضان .

● قال الدكتور إبراهيم ناجى :

« أم كلثوم تملك جوهرة يسجد لها عـرش الدولار المعظم ، ولا تقدر بمال فى خزائن الأرض . وليست ثروة أم كلثوم بما تملك من مال فحسب ، ولكن ثروتها الكبرى هى ما تملك مـن ملايين القلوب التى تعبـد عظمة الله فى صوتها الحنون . وهـى بهؤلاء العباد

أغنى من قارون :

قــارون مـا شــافــش مـن الغنـــى
ربـــع اللى « ثــومـــة » شــافتـــه

ولا عــــرفــــش مــــن الغنـــا
شـــىء م اللى هيـــا عـــرفتـــه

ولا حــــد حبـــــه حبنــــا
آدى الغنـــــــا فى روعتــــــــه

لــــو كـــان سمعهـــا زينـــا
كـــان بـــاع هـــدومـــه وثـــروتـــه

كما وصفهـا د. إبراهيـم ناجـى : بـأنها مطربـة الجنـة . . على كل وتـر من أوتـار حنجرتها يجلس إله .

● وقال عزيز أباظة :

تشـدو فتسكـب فى الأرواح صـافيـة ... مـن سلسـل مـن رحيـق الخلـد مختوم
تعطيـك مـن دمهـا لحن الخلـود فما ... داود أحـرى وإن أوفى بتقـديـم
هـزت ربـى الشوق هـزا فـاستـدار لها ... وقـال مـن تلـك ؟ فى فخـر وتعظيـم
تلـك التـى ازدانـت بها فغـدت ... غنيـة بـاسمهـا عـن كـل تقـديـم

● قال المؤرخ عبد الفتاح غبن :

« ميزات أم كلثوم الحقيقية » « مصريتها » . لم تكن مطـربة ، وإنما خطيبة . كانت على أنغام صوتها تخطب فى الناس : تحرضهم . . تشرح لهم . . تنقل انفعالها إليهم .

وكان انفعالها مصريـا دائما . . وهذا الإخلاص لمصريتها كان منبعه الأسـاسى هو إخلاصهـا لفنها ، وحبهـا الخارق للموسيقـى والشعر ، والأداء ، وإحسـاسها طـول الوقـت بأنها تنقل للمستمع رسـالة ، تحاول كأى خطيـب ـ أن تقنعه بشىء . كـانت

تترنح من فرط الاستمتاع بما تغنى والإيمان به ، والرغبة فى أن يؤمن به الآخرون . »

● **قال الدكتور محمود أحمد الحفنى :**

« لو أننى تنازلت لحظة عن موسيقيتى الخاصة لأعيش فى صفة مصريتى العامة ، لقلت عن إيمان وثقة وجدارة إن الفن والموسيقى لا يستأثران وحدهما بكل هذا الفضل، بل مصر ومعها العروبة والشرق أحرزت بها فوزا ونصرا ، وسمت بفنها عزا وقدرا . فالفنان العظيم مجد لوطنه كما هو مجد لفنه ، ودعاية لأمته قبل أن يكون دعاية لمهنته . فثروات الشعوب ليست أموالا ، وإنما هى محصولها من العلوم والفنون . والفنانون فى الدولة هم كنوز ثروتها وباعثو قوتها ومخلدو عظمتها . ومصر مهد الموسيقى والتى انبعثت منها أشعة الفن الأولى فأضاءت العالم ، قد وهبتها العناية الإلهية فى نهضتها الحديثة أم كلثوم لتكون لحن التعبير عن مجدها ، ونغمة الإيضاح عن آمالها ، والصوت المترنم باستقلالها ، المتغنى بذكرياتها وأمجادها وما خلده التاريخ من مآثر دينها ودنياها . فقد ولدت فى فجر النهضة لتكون عنوان عظمتها ومذيعة رسالتها» .

الفهرس

المراجع والمصادر

١ ـ زكريا أحمد — صبرى أبو المجد
(المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر) (تاريخ لسلسلة أعلام العرب ـ ١٩)

٢ ـ زكريا أحمد — أمين فهمى
(جمعية أنصار الموسيقار زكريا أحمد ـ بدون تاريخ)

٣ ـ محمد القصبجى — محمود كامل
(الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١)

٤ ـ أم كلثوم (النصوص الكاملة لجميع الأغانى) — خليل المصرى ومحمود كامل
(اللجنة الموسيقية العليا)

٥ ـ الأغنية العربية — صميم الشريف
(منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى دمشق ١٩٨١)

٦ ـ أم كلثوم وعصر من الفن — د. نعمات فؤاد

٧ ـ دفاعا عن الأغنية العربية — إلياس سحاب
(المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ط١/ ١٩٨٠)

٨ ـ رياض السنباطى — صميم الشريف

٩ ـ أصوات وألحان عربية — كمال النجمى (١٩٦٨)

١٠ ـ لكل أغنية قصة — أحمد عبد المجيد
(مكتبة الأنجلو المصرية ـ ١٩٧٠)

١١ ـ محمد عبد الوهاب — رتيبة الحفنى
(دار الشروق ١٩٩١)

١٢ ـ سحر الغناء العربى — كمال النجمى

١٣ ـ الغناء المصرى — كمال النجمى (١٩٦٦)

رقم الإيداع ٣٨٥٩/ ٩٤
I.S.B.N 977-09-0209-8

مطابع الشروق
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣